طريق الإيمان

أو الإيمان بالله عن طريق الفكر المستنير

سسة العالمية للكتاب

طريق الإيمان

سميح عاطف الزين

طريق الإيمان

أو الإيمان بالله عن طريق الفكر المستنير

الشركة العالمية للكتاب ش م ل
مكتبة المدرسة - دار الكتاب العالمي

الشركة العالمية للكتاب ش م ل
طباعة - نشر - توزيع

مكتبة المدرسة

دار الكتاب العالمي

الدار الافريقية العربية

الادارة العامة
الصنائع - مقابل الاذاعة اللبنانية
هاتف ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٣٧٠ - ص ب ٣١٧٦
تلكس LE ٢٢٨٦٥ - برقياً: كتالبنان
بيروت - لبنان

الطبعة العاشرة
مزيدة ومنقحة
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - إنَّ كثيراً من الناس ينتسبون للإسلام ولا يعلمون عنه شيئاً أيجوز لهم ذلك ؟

٢ - هل تعلم أيها المسلم أنه لا يجوز لك التقليد في العقيدة ؟ وأن المطلوب منك الإيمان العقلي .

٣ - في القرن العشرين أناس كثيرون ملحدون ينكرون وجود الله . ويسعون جاهدين لجر المؤمنين وراءهم .

فما رأيك أيها الإنسان المؤمن ؟

٤ - إذا أردت أن تكون عالماً عاملاً ، ومسلماً صادقاً ، ومؤمناً سليم العقيدة ، فاقرأ هذا الكتاب ، فإنه طريقك إلى الإيمان العقلي إن شاء الله الكريم .

مقدمة الكتاب

إن قيمة الإنسان كامنة في إيمانه، فمن آمن بالله وصدَّق فقد أعز نفسه، ومن كفر ورفض الإيمان فهو شر من دبٍّ على وجه الأرض كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

والطريق الذي يسلكه الناس للإيمان بالله سبحانه وتعالى ليس سليماً في كل الأحيان، لأن الإيمان بحقيقة وجود الله تعالى تثبته نظرة الإنسان إلى الإنسان، والحياة والكون، عن طريق الفكر المستنير. أما الإيمان عن طريق التقليد والعاطفة، دون الفكر والنظر، فهذا ما نهى عنه القرآن الكريم وحذَّر من اتباعه، لأنه يكون إيماناً غير

(١) الأنفال: ٥٥.

صحيح وغير كامل، وهو عرضة للهزات والتشكيك، وقابل للخرافات والتُّرَّهات.

ومن أجل رفع الإنسان إلى مستوى الكرامة، نعني كرامة الإيمان الصحيح، أرسل الله تعالى المرسلين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب والهدى، وأيدهم بالمعجزات والآيات، ليدعوا الناس إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته وحده.

ولكي يستطيع الإنسان فهم هذه الدعوة، وإدراك قيمتها وأهميتها في الدنيا والآخرة، منحه الله العقل وجعله مناط التكليف، وأودع في مخلوقاته من الآيات والأسرار والعجائب ما يساعد العقل على الفهم والاستدلال ثم الوصول إلى معرفة الخالق العظيم سبحانه وتعالى طبقاً لما جاء به رسله إلى عباده.

وإننا في كتابنا هذا نحاول أن نأخذ بأيدي الناس ليسيروا على المنهج الصحيح الذي يوصلهم إلى الحق ويهديهم إلى سواء السبيل، بعد أن أضلَّتهم الأهواء وأغرتهم الشهوات، واستهواهم شياطين الإنس والجن حتى أوقعوهم في متاهات الضلال والإلحاد.

معرفة الله تعالى

إن أول واجب على الإنسان أن يعرف حقيقة وجود الله تعالى الذي خلقه معرفة يقينية. والمعرفة في اللغة هي الإدراك والعلم، وفي الاصطلاح هي العلم الجازم المطابق للواقع عن دليل. واجتماع هذه العناصر كلها شرط أساسي حتى تتم المعرفة، لأن العلم من غير جزم يشكل ظناً أو شكاً وكلاهما ليس معرفة، فلا بد من أن يكون العلم جازماً، وأن يكون مع ذلك مطابقاً للواقع، لأنه قد يكون العلم جازماً ولكنه غير مطابق للواقع، كالعلم الذي كان يقول بأن الأرض مسطحة والشمس ثابتة، فذاك العلم كان جازماً عند أصحابه ولكنه مخالف للواقع فلا يسمى معرفة. وقد يكون الجزم عن تقليد، فلا يسمّى معرفة، كعبادة الوثنيين للأصنام التي ورثوها عن آبائهم.

أما معرفة حقيقة وجود الله تعالى، المطلوبة من المكلف حتى يكون ناجياً يوم القيامة، فلا بد فيها من تحقق الجزم والقطع، وعدم الشك والظن والوهم، ولا بد فيها من المطابقة للواقع مع قيام الدليل، فإذا فَقَدَتْ أحدَ هذه الشروط فلا معرفة، ولا نجاة يومئذ.

ولكن ما هو الدليل؟

الدليل: هو البرهان الموصل إلى العقيدة، وهو نوعان: تفصيلي وإجمالي.

فالدليل التفصيلي: هو الذي يعرف المكلف تفاصيله وأجزاءه ومقدماته ونتائجه، ويستطيع به رد الشُّبه التي توجه إليه. وذلك كمعرفة أن الإنسان مخلوق، وأنه لا بد محتاج إلى خالق خلقه، وقد ثبت في مختلف الديانات السماوية أن الله تعالى هو الخالق.

أما الدليل الإجمالي: فهو الذي لا يعرف المكلف تفاصيله ولا يستطيع رد الشُّبَه عنه، كأن يقول: الدليل على وجود الله وجودُ العالم، من غير أن يستطيع التفصيل.

المعرفة المطلوبة:

هي المعرفة الواجبة على كل مكلف، أي أن يعرف ما يجب له تعالى من صفات الكمال والجلال، وما يستحيل عليه سبحانه مما لا يليق به، ولا يجوز في حقه. أما معرفة ذاته تعالى فلا تدركها العقول، ولم يكلفنا الله تعالى بها، بل إنَّ عجزنا عن ذلك هو غاية المعرفة والتسليم، لذلك يأمرنا تعالى بالتفكر في آياته ومخلوقاته.

فمعرفة الله تعالى بصفات الكمال، التي سنبينها في «الإيمان بالله تعالى»، أساس كل عبادة، ودليل وجوب هذه المعرفة قوله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾[1]. وقد أجمعت الأمة على وجوب معرفة الله تعالى على كل مكلّف، ووجوب دعوة الكافرين جميعاً إلى الإيمان. أي: إن دليل وجوب معرفة الله على المكلف هو دليل شرعي، أي ثابت بالنص القرآني الشرعي القطعي الثبوت والدلالة. وهذا لا يعني أنه لا دور للعقل في هذا المجال، بل إن من شروط التكليف «العقل»، فالعقل إذا استعمله صاحبه فيما خلق لأجله ساعده على معرفة الحق ونبذ الباطل، لذلك

---

(١) محمد: ١٩.

جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم يأمر الله تعالى فيها بالتفكير، والتدبُّر، والنظر، والعلم، والعقل، توصلاً إلى عَقْل الحق ومعرفته.

الإيمان

الإيمان في اللغة: هو التصديق مطلقاً، ومنه معنى «الأمن» الذي هو ضد الخوف، لأن المؤمن يأمن بإيمانه مما يخافه من عقاب الكفر.

والإيمان في الاصطلاح: هو التصديق القلبي بما جاء به محمد رسول الله ﷺ، والنبيون والمرسلون كافة. وقد بيّنه الرسول الأعظم في الحديث الشريف الذي رواه مسلم في صحيحه جواباً عن سؤال جبريل عليه السلام عن الإيمان حيث قال ﷺ: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره».

وسيأتي هذا كله مفصلاً إن شاء الله تعالى.

الإسلام

الإسلام لغة: هو الانقياد والامتثال مطلقاً، أي: الامتثال في الظاهر والباطن، وفي الدين وغيره.

والإسلام شرعاً: هو الدين عند الله. والدين يتضمن الأوامر والنواهي منه تعالى. فلا بد من الامتثال والانقياد لأوامر الله تعالى، ولا بد من ترك ما نهى عنه تعالى واجتنابه..

ويلخص معنى الإسلام قوله ﷺ في الحديث الذي أشرنا إليه جواباً عن سؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام: «الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

وبالاضافة إلى هذه الأركان تأتي سائر الواجبات والأوامر كالجهاد وبر الوالدين وغيرهما.. وإن لم تكن من أركان الإسلام..

الصلة بين الإسلام والإيمان

لقد ذكرنا أن الإيمان هو: التصديق، وأن الإسلام هو: الانقياد، فمفهوم كل منهما غير مفهوم الآخر، وهذه المغايرة في المعنى واضحة راجحة لأنها مؤيدة باللغة والنصوص.

قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾(1)

وهؤلاء هم المنافقون نفاق اعتقاد أي: الذين كانوا يظهرون الإسلام، بفعلهم ما يفعله المسلمون، ويبطنون في أنفسهم الكفر ـ والعياذ بالله تعالى ـ، وكان الأعراب الذين بيَّن الله تعالى حقيقتهم في هذه الآية أشدَّ كفراً ونفاقاً من سائر المنافقين.

وخلاصة القول: إنَّ الإيمان والإسلام متغايران معنى، فمعنى الإيمان: التصديق الباطني، ومعنى الإسلام: الانقياد الظاهري.

والمؤمنون هم المصدقون الصادقون، لتصديقهم

---

(1) الحجرات: ١٤.

بحقيقة وجود الله وملائكته وكتبه ورسله إلخ . . .

وكل فرد يصلح أن يكون محلاًّ للإيمان وللإسلام معاً، فيوصف بهما الفرد إذا اجتمعا فيه، ويسمى مسلماً مؤمناً، ويوصف بأحدهما إذا وجد فيه دون الآخر. هذا كله من حيث التصور لما يمكن أن يكون في الواقع. أما من حيث الوجوب فالمكلَّف مأمور بتحقيق المعنيين، فهو مأمور بالإيمان الصحيح اعتقاداً، ومأمور بالامتثال لحكم الله تعالى عملاً، وإذا أخلَّ بشيء من ذلك انطبق عليه حكمه.

ولكن يقدم الإيمان على العمل لأن العمل لا يقبل من دون إيمان، وكل من نطق بالشهادتين فهو مسلم ما لم يظهر ما يناقض ذلك، ومن قصر في واجب غير الشهادتين فهو فاسق عاصٍ إلا أن يكون جاحداً أو مستهزئاً، فيكون بذلك مرتداً كافراً.

ومن لم ينطق بالشهادتين فهو كافر ولا حكم لنا على ما في قلبه لأنه غيب لا يعلمه سوى الله تعالى.

والمسلم مؤمن، والمؤمن مسلم ما لم يظهر ما ينقض ذلك.

الفكر

الفكر ـ العقل ـ الإدراك

١ ـ معنى الفكر وعوامله

٢ ـ العملية الفكرية

٣ ـ الفكر والتمييز الغريزي

٤ ـ الطريقة العقلية والطريقة العلمية

٥ ـ أقسام الفكر

الفكر ـ العقل ـ الادراك

(بمعنى واحد)

إن معرفة معنى «الفكر» تستدعي البحث في ثلاث نقاط هي:

١ ـ الفكر وعوامله.

٢ ـ الفكر وعمليته.

٣ ـ أقسام الفكر.

١ ـ معنى الفكر وعوامله:

الفكر: هو قدرة الإنسان العاقل المدرك على إصدار الحكم على الشيء، وذلك بناء على ما تحصله الحواس الخمس من أحاسيس ومدارك تجعل الإنسان قادراً على إعطاء الحكم على الأشياء.

فلذلك كانت الحواس الخمس وهي: السمع والبصر واللمس والشم والذوق داخلة في تكوين الإنسان. وكان

لديه أيضاً الدماغ المنطوي على قدرة ربط المعلومات، وعلى قابلية التمييز، وهذه القدرة على الربط والتمييز هي خاصّية[1] رئيسة لدى الإنسان، وهذه الخاصية هي العقل الذي خصه الله به على سائر الكائنات الأرضية الحية وجعله فيه مناط التكليف الدنيوي، والحساب والجزاء في الآخرة.

فالأشياء موجودة قطعاً، والإنسان يتعرَّف عليها بواسطة حواسه الخمس، وبواسطة الدماغ لديه.. فهو يرى كل ما تقع عليه عينه، ويشمُّ كل ما ينبعث من روائح، ويسمع كل ما يحدث حوله من أصوات، ويتحسس ويشعر بكل ما يقع عليه لمسه أو ذوقه.. وعلى هذا فإنَّ كل الأشياء التي هي في متناوَلِه أو تحيط به، أو تقع عليها حواسه، تكوِّن واقعاً محسوساً بالنِّسبة إليه.. فالرغيف، مثلاً، أو القلم، أو الفيجن[2]، هي من الأشياء التي تقع

---

(١) الخاصيَّة: هي ما يعطيه الشيء نفسه وينتج عنه كالرؤية في العين، والقطع في السكين، والإحراق في النار. فيقال: خاصيَّة العين الرؤية، وخاصيَّة السكين القطع، وخاصيَّة النار الإحراق.. ومن هنا فإنَّ أهمَّ خاصيَّة لدى الإنسان هي التمييز الذي يمكِّن من إصدار الحكم على الأشياء.

(٢) الفيجن: نوع من النبات.

تحت الحواس، وهي بالتالي من الأشياء المحسوسة التي تنبثق عن الواقع المحسوس.. ولكن لماذا نحكم على الرغيف أو القلم، وما هما، ولا نستطيع الحكم على الفيجن؟!.. إنَّ المعلومات التي تكوَّنت لدينا عن الرغيف أو القلم بصورة كافية، جعلتنا نكوِّن الصورة الصحيحة عن ماهية كل منهما، ولذلك صار لدينا التمييز وبالتالي الحكم على الرغيف أو القلم، أي معرفة كل منهما بصورة تامة.. وهذا بخلاف الفيجن عندما نراه لأول مرة، فنحن نجده نباتاً بصفةٍ معيَّنة، وتنبعث منه رائحة معيَّنة، ولكن رغم رؤيته هذه، وشم رائحته تلك، فنحن لا نقدر على إعطاء حكم صحيح عليه، أي أننا لم نصل بعد إلى معرفته بصورة تامة. والسبب في ذلك أنه ما زال ينقصنا عاملٌ مهم لهذه المعرفة، وهذا العامل يتمثَّل بالمعلومات السابقة عن الفيجن، التي لم تكن قد تكوَّنت لدينا بعدُ.

إذن فأمامنا واقعٌ محسوسٌ جديدٌ طرأ على عوامل فكرنا: هو الفيجن، وقد عرفنا أنه نبات معيَّن، ولكن لم نعرف جميع خصائصه.. فإلى هنا تكون قد تكوَّنت لدين ثلاثة عوامل بالنسبة إليه، هي: الواقع (وجود الفيجن) والإحساس بالواقع (النظر إليه وشمّ رائحته) والتمييز

(إدراكنا بأنه نبات معيَّن يختلف عن غيره من النباتات الأخرى).. ويبقى أن نعطي صورة فكرية عن الفيجن، أي أن نحكم عليه.. فإذا توفرت لنا المعلومات بأنه نبات ورقه كالصعتر، وينبت في أحوال مناخية ما.. ويعطي رائحةً معينةً ما.. وله طعم كذا.. وله فائدة كذا.. فهذه المعلومات التي حصلنا عليها، إذا أضيفت إلى العوامل الثلاثة الأولى، تمكِّننا جميعها من إعطاء حكم على الفيجن.. فإذا رأينا الفيجن مرة أخرى، صارت لدينا القدرة على معرفته، وبالتالي صرنا نُميِّزه بخصائصه عن سائر النباتات الأخرى..

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الأشياء والمسائل، والأمور كافة... إذ يقتضي توفر أربعة عوامل من أجل الحكم عليها هي:

١ ـ الواقع.
٢ ـ الإحساس بالواقع.
٣ ـ تمييز الواقع عن غيره.
٤ ـ توفر المعلومات السابقة عنه.

ولكي نوضح الشرحَ أكثر، نُعْطي مَثَلاً كلمتي: وليمة ووضيمة...

فأنت لو سُئلت أيها القارىء عن معنى كلمة: وليمة، وكنت تعرف بصورةٍ مسبقة ما هي الوليمة فإنك تجيب على الفور: إنها دعوة إلى الطعام في الأفراح.. ولكن لماذا أجبت بهذه السرعة؟ لأنَّ العوامل الأربعة التي تمكِّنك من الإجابة متوفرة لديك بالنسبة إلى معنى هذه الكلمة..

ولكن إذا سُئلت ما معنى كلمة «وضيمة»، ولم تكن قد تكونت لديك معلومات سابقة عنها، فإنك تقف حائراً وتجيب: لا أدري.. ففي هذه الحالة، وبعد أن سُئلت عن كلمة «وضيمة» توفَّرت لديك ثلاثة عوامل: الواقع (فما دمت قد سُئلت عنها فإنها باتت واقعاً بالنسبة إليك، أي شيئاً موجوداً)، والإحساس بالواقع (التقاط سمعك لها وإحساسك بواقعها عن طريق السمع).. ثم بعد أن اختلط الواقع بالإحساس، نُقِل هذا الواقع إلى الدماغ فانطبع فيه، ومن ثم قام بعملية تميِّزه عن سائر الانطباعات الأخرى لديه، أي أنه صار لدى الدماغ انطباع جديد عن واقع يقال له: «وضيمة».. فإلى الآن حصلت العملية الفكرية التي جمعت بين العوامل الثلاثة الأولى، ولكن رغم حصول هذه العملية الفكرية، فإنك أيها القارىء، لم

تصل بعد إلى إعطاء حكم واضح عن كلمة «وضيمة»..
ولا بد من أن تتوفر لك معلومات سابقة عنها حتى يحصل عندك الفكر، أي تكتمل العملية الفكرية.، فإذا قيل لك: إن كلمة «وضيمة» تعني الدعوة إلى الطعام في الأتراح، فإنه بات بإمكانك، في أي وقت، بعد ذلك، أن تدرك حقيقة تلك الكلمة، أي أن تعطي حُكماً صحيحاً عليها، وذلك بعد أن توفرت لك المعلومات السابقة عنها..

لكن السؤال يُطرح: ما هي هذه المعلومات السابقة؟ وما هو مقياسها؟ وما هو الدليل عليها؟

ولكي يمكن الإجابة عن ذلك، ينبغي معرفة عوامل الفكر، وهي أربعة:

- عاملان يدخلان في تكوين الإنسان وهما: الحواسُّ الخمس، والدماغ الذي هو مركز التمييز.

- وعاملان يخرجان عن تكوين الإنسان وهما: حقيقة الواقع، واسمُه.

وتنطلق العملية الفكرية من اجتماع هذه العوامل الأربعة. ونقطة الانطلاق تكون دائماً من الواقع المحسوس. وهذا الواقع قد تُنقل عنه معلومات صحيحة

وصادقة، أو قد تُنقل عنه معلومات خاطئة ومشوهة.. فإذا قيل لنا: في محلة كذا شُيِّد بناءٌ ضخمٌ جديدٌ من عشرات الطوابق، وذهبنا ووجدنا البناء كما أُعلمنا عنه، كانت المعلومات صادقة. ولكن إذا قيل بأن المطار قد احترق، وذهبنا لنتأكد من صحة الخبر، فوجدنا المطار سليماً، كانت المعلومات خاطئة.. إلَّا أنَّ الذهاب إلى المطار ومعاينته بواقعه، قد أثبت لنا حقيقة هذا الواقع. وهذه الحقيقة هي التي نفت التشويه والتلفيق والتضليل.. فمقياس المعلومات السابقة، والدليل على صحتها أو كذبها، إنما يكون في حقيقة الواقع الموجود. وبناء على حقيقة الواقع يكون إدراك معنى الأشياء مثل: ما تعني هذه اللفظة، وما طعم هذه الفاكهة، وما اسم ذلك الشيء، وما ينفع هذا أو ماذا يضرّ، وما يقدِّم هذا الأمر أو ماذا يؤخِّر، وما يُثبت هذا القول أو ماذا يَنفي، ومن حضر أو من غاب؟. وهلمَّ جرّاً بالنسبة لجميع الأشياء، والأمور، والشؤون، والقضايا، والحالات، والمسائل... التي تشكل وقائع مادية أو غير مادية... والتي لا بد من توفّر معلومات سابقة عنها، تجتمع مع العوامل الأخرى، حتى يصير بالإمكان الربط، وبالتالي التمييز بين شيء وآخر..

ولكنَّ العبرة ليست في إعطاء المعلومات أو الحصول عليها وحسب، بل العبرة بربطها حتى يمكن أن تتم العملية الفكريَّة، ويحصل بالتالي الفكر.... وإنَّ التدريب على الرَّبط منذ الصغر، هو الذي يجعل العوامل الأربعة تتضافر لإيجاد الفكر، أي الحُكم على الواقع. ولذلك فإن المعلومات السابقة إذا كانت صحيحة، يكون الحكم على الواقع صحيحاً، وإن كانت كاذبة ومشوهة، كان الحكم غير منطبق على واقعها، بل ربما جاءَ خلافه تماماً.

إن الرَّبط بين عوامل الفكر الأربعة التي ذكرناها يتأتَّى عنه التمييز بين الأشياء، وبهذا التمييز تتم العمليَّةُ الفكريَّةُ التي عنها تصدر الأحكام على الأشياء..

فما هي هذه العملية الفكرية؟

٢ ـ العملية الفكرية:

لا بد من أجل تمام العملية الفكرية من وجود الواقع والإحساس به، وتوفر المعلومات السابقة، كما لا بد من تمييز الواقع من غيره.

وأما ما قيل: من ان الإنسان الأول قد اصطدم

بالأشياء فانعكست عليه فصار بالحسِّ يعرف أن هذه الثمرة تؤْكلُ وهذه لا تؤكل، وصار يعرفُ أن هذا الحيوان يؤْذيه فيتجنبه وهذا لا يؤذيه فيستخدمه. وصار يعرفُ من الحسِّ والتجربة أن الخشب يطفو على الماء فأخذ يستعمله لقطع البحارِ والأنهارِ.. إلى غير ذلك، فغير صحيح، لأن الإنسان منذ خلقه الله تعالى كان مفكراً، وقد علم الله آدم الأسماء كلها، واكتسبت ذريته ذلك بالتعلم والبحث والتفكر.

نعم: يقال إنه قد يحصلُ أن يعطى شخص آلة معقدة، وليست لديه معلوماتٌ سابقةٌ عنها، ثم يُطْلَب منه حلُّها وتركيبُها، فيأخذها الشخصُ ويحاول إجراء تجارب متعددة عليها فيصل من هذه التجارب إلى حلّها ثم إلى تركيبها. وبذلك فإنه يكون قد وصل إلى فكر دون حاجة إلى معلومات سابقة. والجوابُ على ذلك هو أن هذا الشخص لديه معلوماتٌ متعددةٌ، فأخذ بتجاربه العديدة يربط المعلومات التي لديه بالواقعِ الذي بين يديهِ، وبالمعلومات مع بعضها البعض، حتى توصل إلى معلوماتٍ يفسر بواسطتها حلّ الآلة وتركيبها، أي أنه بهذه المعلومات التي استنتجها أمكنه التوصل إلى الفكر. ولكن

هذا الشخص لا يؤتى به مثالاً لأنه توجد لديه معلوماتٌ، وإنما المثال الذي يؤتى به هو الطفلُ الذي لا توجد لديهِ معلوماتٌ إطلاقاً، أو الرجل الذي ليس لديه معلومات يمكن أن يستعين بها على استنتاج معلومات يفسر بها الواقعَ، كأن تأتي بأعرابيٍّ وتدخله مختبراً وتتركه يجرِّب، أو أن تأتي بعالم من علماء الاقتصاد وتضعه في مختبر الذرَّة وتطلب منه الوصول إلى سر القنبلة الذرية، فمثل هؤلاء، وبدون معلومات لديهم، لا يمكنهم التوصل إلى الفكر. فالمثال هنا أسلم وأدق من ذلك الشخص الذي لديه معلوماتٌ وكان بإمكانه أن يستعمل هذه المعلومات حتى نشأ عنها الفكر.

والحاصل أن الحواسَّ تنقُلُ صورةً عن الواقع المادي إلى الدّماغ، وهذِهِ الصّورة تَتْبَع الحاسَّة التي نَقَلَتِ الواقعَ، فإن كانتْ بَصراً نَقَلَتْ صورَةَ الجسْمِ، وإنْ كانَتْ سَمْعاً نَقَلَتْ صُورَةَ صوتِهِ، وإنْ كانَتْ شَمّاً نَقَلَتْ صورَةَ رائِحَته، وهكذا فإنّ الواقع يرتسم، كما نقل، في الدماغِ، أي حَسَبَ الصّورَةِ التي نُقِلَتْ، وبذلِكَ يَتِمّ الإحساسُ بالواقع فَقَطْ، ولا يَنْشَأ عنْ ذلكَ تفكيرٌ بل تَمَيّزٌ غَريزي فَقَطْ مِنْ

حَيْثُ كوْنه يُشْبِعُ أوْ لا يُشْبِعُ، يُؤلِمُ أوْ لا يُؤلِمُ، يُفرِحُ أوْ لا يُفْرِحُ، يَلَذّ أوْ لا يَلَذّ. ولا يَحْصُل أكثرُ منْ ذلكَ. فإن كانتْ هُنالِكَ معلوماتٌ سابقَةٌ ورَبَطَتْها قُوَّةُ الرّبطِ الدماغيّةُ بالواقعِ المحسوس الذي ارْتَسَمَ في الدماغِ، فعندئذٍ تتمّ العمليّةُ الفكريَّةُ، وينتجُ إدْرَاكُ الشّيء، ومعرفَةُ ما هو، وإلا يَبْقى الأمر عِنْدَ حَدّ الإحساسِ أو عندَ حد التّمييز الغريزيّ فقطْ. وأمَّا ما يتم من محاولات التّفكير مع عَدمِ توفّرِ الواقع المحسوسِ، ومع عدمِ توفّرِ المعلومات السّابقة، فلا يتعدّى تَخَيّلاتٍ فارغةً تُسيطر على صاحبها بعدَ بُعْدِه عن الواقعِ المحسوسِ، ممّا يؤدي إلى الوقوع في الأوهام والضلالِ، وربما أدّى إلى إجهادِ الدماغ، فيُصابُ بأمراض الخَلَلِ والصرعِ وما شاكل ذلكَ.

هذا هو تعريفُ الفِكر، وهذه العمليّةُ تحصُلُ للمفكّرِ الذي ينتجُ الفكرَ لا لمَنْ يُنْقَلُ إليه الفكرُ. أما مَن يُنْقَلُ إليه الفكرُ فلا تحصل لهُ هذه العمليّةُ، لأنّ الفِكْرَ نَتَجَ وانْتهى، فيعطيه مُنتجُهُ للنّاسِ، وينقلُهُ الناسُ لبعضِهِمْ، ثم يُعبّرونَ عنهُ باصطلاحات اللّغة. والفكرُ المنقولُ للآخرينَ يُنظرُ فيهِ، فإن صارَ له واقعٌ وتصوّرهُ المنقولُ له كما نقل،

كأنهُ أحسّهُ، وسلّمَ به، فَهُوَ، في هذه الحالة، قدْ أدرَكَهُ وأصبحَ هذا الفِكْرُ مفهوماً من مفاهيمه، كما لو نتجَ هذا الفكرُ عنه بالذّات. وإنْ لم يكن لهذا الفكر واقع عند الشخص الذي نُقِلَ إليه، بل فهِمَ الجُمْلَةَ، وفَهِمَ الفِكر والمراد منه، ولكنْ لمْ يتكوّنْ لهُ واقعٌ في ذهنِه، لا حِسّاً، ولا تصديقاً ولا تسليماً، كان معلوماتٍ فقط أي مجرّد معارف عن أشياء. ولذلك فإن المعلومات لا تؤثر في الأشخاص وإنما المفاهيمُ هي التي تؤثرُ، لأنها أفكارٌ لها واقعٌ في ذهنِ مَن أدركها. ولهذا السببِ لم يكن بُدّ مِنْ أن يعرف المفكر واقع ما يفكر به، وما هو تأثيره، وكيف يؤثر، حتى يمكنه أن ينقل فكره إلى غيره، وإلاّ فإنه لا يكون قد نقل فكره للناس، بل نقل إليهم معلومات جمعها فيصبحون بها متعلّمين لا مفكرين.

٣ ـ الفكري والادراك الغَريزي:

لا بد قبل التفريق بين الفكر والتمييز الغريزي من الإشارة إلى أن لدى الإنسان طاقة هي الطاقة الحيوية، وهي مكوّنة من الغرائز والحاجات العضوية.

الطاقة الحيوية[1]:

.. فللإنسان طبائعُ خاصةٌ عليه أن يفقهها، أو أن يعرفها، ولكنْ لا يكفي أن يعرفها بفطرته التي فطر عليها، وبما عنده من غرائز وحاجات عضوية، بل بشيءٍ من العمق والتفصيل اللّذَيْنِ يعطيانه عنها فكرة صحيحة تطلعه على ماهياتها وحقيقة وظائفها. وإنَّ من مقوّمات هذه الطبيعة، الطاقةَ الحيويةَ، التي تدفعه للبحث والتنقيب عن شتى الوسائل التي ترويها وتُشبعها..

أما الغرائز فهي ثلاث: غريزة النوع، وغريزة التدين، وغريزة حب البقاء.. في حين أن الحاجات العضوية تتمثل أكثر ما تتمثل في الإحساس بالجوع والعطش والنوم...

ومن مظاهر غريزة النوع: الحنان والعطف والميل الجنسي... ومن مظاهر غريزة التدين: التقديس، والخشوع، والتقرّب إلى الله تعالى أو أية قوة غيبيَّة، أو حتى أيِّ شيءٍ، يمكن أن يجعله الإنسان مصدراً لغريزة

---

(١) سميت الطاقة الحيوية لأنها هي الدافعة لحركة الإنسان واستمراريته في الحياة.

التديُّن. . ومن مظاهر غريزة حب البقاء: التملُّك، والحرص، والأمل والطمع الخ. . .

وتتبدّى مظاهر الحاجات العضوية بتناول الطعام والشراب والإغفاء. .

والغرائزُ والحاجاتُ العضويةُ كلُّها بحاجة إلى إشباع. . فالإحساس بالجوع يدفع الإنسانَ للبحث عن الطعام حتى يَشبع، والإحساسُ بالعطش يدفعه للتفتيش عن الماء حتى يَرتوي. . وكما أن مَيْلَ الإنسان إلى الاقتناء والإثراء أساسه حب التملك، كذلك فإن رغبته في تحقيق الأمان الذاتي أو السلام النفسي، هي التي تشدّه إلى التعبُّد والخشوع. . ومثل ذلك نزعتُه إلى الأنس والاجتماع، وإلى تحقيق قيمته الإنسانية، فهي التي تزيّن له الزواجَ والإنجاب. . وهكذا الحال في كل ما يتعلق بإشباع أيَّة غريزة من غرائز الإنسان أو أيَّة حاجة عضوية لديه. . وإنَّ السعيَ لتحقيق هذا الإشباع، واعتمادَ الوسائل والأساليب كافة في سبيله، إنَّما يؤلِّف السلوك الذي ينتهجه الإنسان إن بالفعل أو بالقول. . ومن هنا يمكن القول بأن السلوك هو التعبير عن الطاقة الحيوية الكامنة في الإنسان،

أي الطاقة التي تنبعث عن غرائزه وما لديه من حاجات عضوية. فالطاقة الحيوية هي التي تدفع إلى الحركة، والحركة تظهر غالباً بالسلوك، وهذا السلوك غايته الإشباع؛ ولذلك فإنَّ الذي يعيِّن السلوك عادةً هو المفهوم وليس الفكر فقط، وما ذلك إلَّا لأن الأفكار لها معانٍ، فإن أدرك الإنسان واقع هذه المعاني، وآمن بها، تصبح الأفكار مفاهيم بالنسبة إليه، في حين أنه إن لم يدرك أية معانٍ للأفكار، أو أنه أدرك معانيَها ولكن لم يؤمن بها أي لم يصدِّقْها تصديقاً جازماً، فإنَّ تلك الأفكار تكون بالنسبة إليه مجردَ معلومات، وهذه المعلومات لا تؤثِّر على السلوك بشيء.. فالذي يؤثر على السلوك إذاً هو المفاهيم، ولذا كان من الواجب علينا أن نُميِّز ما بين الأفكار والمعلومات والمفاهيم أثناء البحث عن سرٍّ وجودنا في هذه الحياة..

فالإنسان عندما يحمل أفكاراً معينة، فإنَّ بإمكانه أن ينقل هذه الأفكار إلى غيره، فإن أخذها الغيرُ منه وآمن بها وصدّقها، فإنها ترتبط بطاقته الحيوية، وتصبح مفهوماً لديه، أما إن لم يُصدِّقْها التصديق الجازم، فذلك يعني أنها لم ترتبط بطاقته الحيوية، ولذلك فهي تبقى مجرد معلومات، ولا تتخذ معنى المفاهيم. ولذا يمكن القول

بأن المفاهيم هي معاني الأفكار لا معاني الألفاظ، أي أنها المعاني التي يُدْرَكُ لها واقعٌ في الذِّهن، سواء كان واقعاً محسوساً، أو واقعاً مسلَّماً به على أنه موجود، ولذلك كانت المفاهيم هي التي تؤثر على السلوك، وكان القولُ بأن سلوك الإنسان يكون حسب مفاهيمه، هو قولٌ يقيني غير قابل للشك. ولما كانت المفاهيم نابعةً من التصديق الجازم بالفكر، فإنه يصبح ثابتاً أن هذا الفكر لا يؤثر على السلوك إلاَّ إذا ارتبط هذا بالطاقة الحيوية، أي أصبح مفهوماً، وبالتالي فإنَّ التصديق بالفكر المرتبط بالطاقة لا يمكن للسلوك إلاَّ أن يكون وفقاً له أو بحسبه...

ومن هنا كان التميز واضحاً ما بين السلوك والفكر، وكان التفكير هو غير الميل، والعقلية غير النفسية.. أي أنَّ هنالك عقلاً يفكر، وطاقةً تتطلب الإشباع، وهما شيئان مختلفان. فإن حصل الارتباط بينهما، وكان السلوك متوافقاً مع الفكر، كان نتاج ذلك تكوين الشخصية فنقول: هذه شخصية إسلامية، أو شخصية ديمقراطية، أو شخصية اشتراكية شيوعية. في حين أنَّ عدم ارتباطهما، وبقاءهما منفصلين، يجعل هنالك ميولاً مختلفة، كما يجعل هنالـك أفكاراً متناقضة، وبالتالي يكون انعدامُ السلوك المُمَيِّز، وانعدام

تكوين الشخصيَّة المميَّزة بحيث لا نستطيع أن نقول: هذه شخصية إسلامية سلوكها إسلامي، أو شخصية ديموقراطية أو اشتراكية شيوعية ـ إلخ . . .

وقد تكون الميولُ مخالفةً للأفكار، فيأتي السلوك مخالفاً للفكر فنقول: هذه شخصية فوضوية لأن سلوكها يكون مخالفاً لأفكارها؛ إلَّا أن مخالفة السلوك للفكر غالباً ما تكون في بعض الجزئيَّات، ولذا فإنَّ تأثيرها، يكون أحياناً، على بعض التصرفات ودون أن يؤثر ذلك على الشخصية المميَّزة . .

وتأثير السلوك يكون على الشخصية الفردية، ويكون أيضاً على الشخصية الجماعية، وإنْ كانت الآثار التي ينتجها في حياة الفرد هي غيرها في حياة الجماعة. إذاً فانفصال السلوك عن الفكر في بعض الأحيان ـ وهو ما يحصل في الجزئيات ـ لا يكون له تأثيره الكبير على الشخصية. ومن هنا فإنَّ القول بأنَّ للإنسان وجهتَي نظر في الحياة ـ واحدة تنبع من الفكر، وأخرى تتعلق بالسلوك ـ هو قولٌ خاطىء، لأنه لا يمكن أن يكون للإنسان في الحياة إلَّا فكر واحدٌ أساسي، وهو الذي

يتحوَّل إلى مفهومٍ، فإنْ وُجِدَ فِكرٌ غيره، فإنه يكـون ثانوياً، ولذا يبقى مجردَ فكرٍ، ولا يتحوَّل إلى مفهوم. فنستنتج مما تقدَّم أن السلوك مصدره الطاقة الحيوية، وهي لدى الإنسان الغرائز والحاجات العضوية. والغرائز تكون عادة أقل خطراً على حياة الإنسان من الحاجات العضوية، ورغم ذلك فإنَّ خطرها يبقى شديداً على هذه الحياة.. فالحاجات العضوية، تحتاج إلى إشباع، وإن لم يسارع الإنسان إلى تأمين هذا الإشباع، فإنها تؤدي به إلى الفناء. أما الغرائز فإنَّ عدم إشباعها قد لا يؤدي إلى الموت، وإنما قد يقذف بالإنسان في أحضان الشقاء. ولذا كان حتماً على الإنسان أن يسعى لإشباع غرائـزه وحاجـاته العضوية.. إلاَّ أن هذا الإشباع يجب ألاَّ يحصل بطريقة فوضوية غير منظَّمة، لئـلا تسيطر الغـرائز، والحـاجات العضوية عليه، وتضعفه، فكـان لا بدَّ إذاً من تنـظيم الإشباع، وهذا التنظيم يحتاج إلى فكرٍ... وهنا يظهر وجوب التفريق ما بين الفكر والتمييز الغريزي.

الفرق بين الفكر والتمييز الغريزي

كثيراً ما يَخْلطُ الناسُ الفِكرَ بالتّمييزِ الغريزيّ، ويَعْجِزُونَ عنِ التفريق بينهُما. ومن هُنا كان الوقوعُ في أخطاء

مضحكة حيناً ومُضلّلةٍ أحياناً، فمنهم مَنْ جَعَلَ للطفل منذُ ولادتِهِ عقلاً وفِكراً، ومنهم مَنْ جَعَلَ للحيوان فكراً، ولهذا كانت معرفةُ الاهتداء الغريزيّ مهمة كمعرفةِ الفكرِ، أو العقلِ، أو الإدراك.

يتمّ الإهتداءُ الغريزيّ عندَ الحَيَوانِ منْ تكرارِ إحساسه بالواقع، لأنّ لَدى الحيوان دماغاً، ولديه حواسّ كما هي الحال في الإنسان، ولكنّ دماغَ الحيوان عاجزٌ عنِ الرّبط، لأنّ كلّ ما فيه مَرْكزٌ للاحساسِ فَقَطْ، فليس لديه معلوماتٌ سابقةٌ يربطها بالواقعِ، أو بالإحساس، بل كلّ ما لديه انطباعاتٌ عنِ الواقعِ، ويستعيدُ هذه الانطباعات حينَ الإحساس بالواقع. وهذه الاستعادةُ ليست ربطاً وإنما هي تحرّكٌ لمركز الإحساس، وهي ناشئةٌ عن الإحساسِ بالواقعِ الأول أو بواقعٍ جديدٍ يتصل بالواقع الأول، فيحصلُ عندئذٍ للإحساس تمييزٌ غريزيّ، وهو الذي يُعيّنُ سلوكَ الحيوان، وتحَرُّكَهُ نحوَ إشباعِ الغريزة أو الحاجة العضويّةِ.

ويكونُ هذا السلوكُ فقطْ للإشباعِ، أو عدمِ الاشباع؛ فإذا قدِّمَ لهرٍّ ـ مثلاً ـ لحْمٌ وعنَبٌ، عَرَفَ بغريزته أيّهما يُؤكَلُ وأيهما لا يُؤْكَلُ، فيقبل على ما يُؤْكَل ويُعْرِضُ عمّا لا يؤكَلُ،

والأمرُ كذلِكَ إذ قُدّمَ لحصانٍ شعيرٌ وتُرابٌ . . إنّهُ يحاولُ أن يختبرَ أيّهما فيه إشباعٌ، فإذا وجدَ ذلكَ في الشعيرِ، لا في التّرابِ، تركّز عنده الإحساس بأنّ الشعيرَ يُشْبعُ حاجَتَهُ، والتّرابَ لا يُشبعُها، وعندئذٍ يَترُكُ التّرابَ لمجرّدِ الإحساس به، ويأخُذُ الشّعير لمجرّدِ الإحساسِ به إذا كانَ جائعاً، وهكذا بالنسبة لكلّ حيوانٍ. والطفلُ حينَ الولادةِ كالحيوان، فإنّ دماغَهُ وإنْ كانَ فيهِ قابليَّة الرّبطِ، إلا أنه ليسَ لديهِ معلوماتٌ يربطُها بالإحساس بالواقعِ الجديد حتى يميّزَهُ. ومن هنا لا يكونُ عنده فِكْرٌ، بَلْ فقط تمييز أو اهْتداءٌ غريزيّ للشيء من حيثُ كَونه يُشْبع أوْ لا يُشبع، وليستْ عندَهُ أيضاً معرفَةٌ عن حقيقة الشيء الذي مَيّزَ الإشباعَ به، فهوَ لا يعرفُ ما هو الشيء الذي أشبَعَ، ولا ما هو الشيء الذي لم يُشْبعْ، فإذا عُرِضَتْ على الطفلِ تمرةٌ وفحمةٌ جرّبَ إحداهُما فإن وجد فيها الإشباع أكلها ورمى الأخرى.

ولكن إذا كانت لديهِ المعلوماتُ السابقة فإنه يبادر إلى استعمالها طبيعيّاً، لأنّ الرّبطَ جُزْءٌ مِنْ تكوينِ دماغِهِ. وبناءً على ذلكَ فإنّ التمييزَ أوِ الاهتداءَ الغريزيّ لا يتعدّى الإحساس بالواقعِ الذي يؤدّي إلى كونِ الشّيء يُشبعُ، أوْ لا

يُشْبِعُ . . بخلاف الفِكرِ . . فالفكرُ إذاً هو الحكمُ على الشيء، والعملية التي يَتِم بها هي حتماً العملية الفكرية، وهذه العملية تحصل بإحدى طريقتين:

- الطريقة العقلية وهي تحتاج إلى ملاحظة واستنتاج.

- الطريقة العلمية وهي تحتاج إلى ملاحظة وتجربة واستنتاج. ولكي يصبح الفكر حقيقة علمية فإنه لا بد من أن يمر في ثلاث مراحل:

ويمكن أن نبيّن ذلك بالبحث التالي.

المرحلة الأولى: الفرض.

المرحلة الثانية: الملاحظة.

المرحلة الثالثة: التحقُّق.

أي: أن نفترض الحقيقة العلمية افتراضاً، ثم نشاهدها، ونلاحظها، ثم ندرس من خلال مظاهرها الخارجية خصائصها ومميزاتها لنتبين صدقها من كذبها، وهذا التَّبَيُّن هو التحقُّق المطلوب.

٤ ـ الطريقة العقلية والطريقة العلمية وصلاحيةُ كلٍّ منهما:

تُعرَّف الطريقة العقلية بأنها منهجٌ معيَّنٌ للبحث يُتَّبع للوصول إلى معرفة حقيقة الشيء الذي يُبحث عنه، عن طريق نقل الحس بالواقع ـ بواسطة الحواس ـ إلى الدماغ، الذي يفسر هذا الواقع بواسطة معلومات سابقة عنه موجودةٍ لديه، ثم يصدر الحكم عليه، وهذا الحكم هو الفكر أو الإدراك العقلي لهذا الواقع.. وتصلح الطريقة العقلية في بحث المواد المحسوسة، كالكيمياء والفيزياء، وفي بحث الأفكار، كالعقائد والتشريع، وفي فهم الكلام، كبحث الأدب والفقه.. وهذه الطريقة تعتبر طريقة طبيعية في الوصول إلى الإدراك العقليّ من حيث هو، وعمليتُها هي التي يتكوَّن بها «عقلُ الأشياء» أي إدراكها، وهي نفسها تعريف للعقل، وعلى منهجها يصل الإنسان، من حيث هو إنسان إلى إدراك أيِّ شيء، سبق أن أدركه، أو يريد أن يدركه.

وأما الطريقة العلمية فتعرّف بأنها منهجٌ معيَّن في البحث ـ أي مثل الطريقة العقلية ـ يُتَّبَعُ للوصول إلى معرفة حقيقة الشيء الذي يبحث عنه، ولكن عن طريق إجراء

التجارب على هذا الشيء. وهي بذلك لا تكون إلا في بحث المواد المحسوسة، لا في بحث الأفكار، ولا تكون إلّا بإخضاع المادة لظروف وعوامل غير ظروفها وعواملها الأصلية، وملاحظة المادة والظروف والعوامل الأصلية التي أُخضعت لها، ثم يستنتج من هذه العملية على المادة حقيقة مادية ملموسة، كما هي الحال في المختبرات.. وتفرض هذه الطريقة التخلّي عن جميع الآراء السابقة عن الشيء الذي يُبحث، لأنها تقتضي أن يمحوَ الباحث من رأسه كل رأي، وكل تصور سابق في هذا البحث، وأن يبدأ بالملاحظة والتجربة، ثم بالموازنة والترتيب، ثم بالاستنباط القائم على هذه المقدمات العلمية؛ فإذا وصل إلى نتيجة من ذلك، كانت نتيجة علمية أي حقيقة علمية خاضعة للبحث والتمحيص، ولكنها تظل حقيقة علمية، ما لم يثبت البحث العلمي تسرّب الخطأ إلى ناحية من نواحيها.

وبناء على هذا التعريف للطريقة العلمية، وعلى ما سبق من تعريف للطريقة العقلية، تكون الطريقة العقلية هي الطريقة الوحيدة التي يجري عليها الإنسان، من حيث هو إنسان، في تفكيره، وحكمه على الأشياء وإدراكه لحقيقتها وصفاتها، كما وأنَّ المنهج المباشر هو الأسلم للسير عليه،

وذلك حتى يكون التفكير صحيحاً، وتكون نتيجة التفكير قريبةً إلى الصواب فيما هو ظنيّ، وقاطعةً بشكل جازم فيما هو قطعي، لأن المسألة كلها متعلقة بالتفكير، وهو أثمن ما لدى الإنسان، بل أثمن شيء في الحياة..

٥ ـ أقسام الفكر

يكون الفكر إما فكراً سطحيًا، أو فكراً عميقاً، أو فكراً مستنيراً:

(أ) فالفكر السطحيُّ هو النظر إلى الشيء، والحكم عليه بدون فهم.

(ب) والفكر العميق هو النظر إلى الشيء، وفهمه، ثم الحكم عليه.

(ج) أما الفكر المستنير فهو النظر إلى الشيء، وفهمه، وفهم ما يتعلق به، ثم الحكم عليه.

ويمكن التدليل على هذه الأقسام الثلاثة للفكر بمثال معين، كأن ينظر الإنسان إلى شجرة من المشمش مورقة مثمرة، فإنه يجدها تتألف من ثمر وورق وخشب، ثم يعيد النظر إلى الورق الأخضر الذي يكسو الشجرة فيحكم بأنَّ

النفع الورقيّ محصور بالزينة.. إنّ هذه النظرة العابرة الخالية من التأمل إلى الورق، أدت إلى إعطاء حكم سريع، كان بالتأكيد حكماً سطحياً.

أما إذا أتى بورقة المشمش، وأخذها إلى المختبر، وأجرى عليها الاختبارات اللازمة، فسيرى أنّها تحتوي على رئة تنفسيّة تأخذ الكربون من الهواء، وعلى حبيبات صغيرة ـ تدعى اليخضور ـ تدور ضمن الورقة كما يدور محرِّك السيارة، وعلى عروق صغيرة تصل الورقة بالغصون، كي تستمدَّ منها نموًّا.. ثم إنه سيجد بنتيجة تفاعل العوامل المتحدة في الورقة، والدائبة في تأدية وظيفتها، ما يزوِّد حبة المشمش بالسكر والنشاء.. فإجراء مثل هذا الاختبار الدقيق على الورقة، أدَّى إلى إعطاء حكم عميق عنها... فهذا، إذاً، هو الحكم العميق.

ولكن إذا قام الباحث، بعد إجراء العمل المخبري على ورقة المشمش، بالبحث عن علاقتها بما يحيط بها، بحيث لا يترك ناحية من نواحي هذه العلاقة إلاَّ وأجرى عليها الاختبار وعرفها، فإنه ينتهي إلى حكم آخر، يظهر له دقة صنع هذه الورقة، وكم فيه من إتقان وإحكام وتنظيم،

حتى استوت هذه الورقة على النحو الذي هي فيه، وأدّت الوظيفة المعهودة إليها. . ومثل هذا الحكم لم يكن ليصدر إلاّ عن التفكير المستنير. .

أما إذا توقف الإنسان عند الإعجاب بجمال الورقة، وما تبديه من زينة على أمها الشجرة، فإنه بذلك لا يصل إلى ما توجبه النظرة العميقة، ولذلك يبقى عند حدود التفكير السطحي، ومن الطبيعي ألاّ يكون لديه فكرٌ مستنيرٌ، لأنَّ هذا الفكر المستنير يجب أن تسبقه النظرة العميقة أو الفكر العميق.

والتفكيرُ السطحيُّ: يجري بنقل الواقع فقط إلى الدماغ دون محاولة إدراك ما يتصل به، وربط هذا الإدراك بالمعلومات المتعلقة به، دون محاولة البحث عن معلومات أخرى تتعلق به. وهذا ما يغلب على الجماعات المتخلفة، وعلى الأغبياء، وعلى غير الأذكياء من المتعلمين والمثقفين.

ويمكن معالجة السطحيَّة أو إزالتها أو تخفيفها، أو جعلها نادرة، من خلال معالجة الأفراد، وذلك:

أولاً: بإزالة عادة التفكير السطحي الموجودة لديهم،

وبتعليمهم أو تثقيفهم، ولفت نظرهم إلى سخافة تفكيرهم، وإلى سطحية أحكامهم..

وثانياً: بإكثار التجارب لديهم أو أمامهم، وبجعلهم يعيشون في وقائع كثيرة، ويحسّون بواقع متعدّد، ومتجدّد ومتغيّر..

وثالثاً: بجعلهم يعيشون مع الحياة، ويسايرون الحياة.. وهؤلاء الأفراد الواعون، كلما كثروا في الأمة، كان الأخذ بيدها إلى النهوض أسهل وأقرب للتحقيق، لأنهم يتصورون وقائع الحياة الراقية تصوراً واقعياً، وذلك عن طريق تقبل الأفكار الصادقة، وقبول الآراء الصحيحة، واعتناق الأفكار القطعيّة، والتمييز بين مختلف الآراء، فيكونون أكثر إدراكاً للأمور، أي يكون تفكيرهم تفكيراً متميّزاً عن غيرهم، فيتكوّن لديهم الإحساس الفكري. ولذلك كان علاج السطحية، من خلال معالجة الأفراد، حتى يكون لدى الأمة مفكرون تعتمد عليهم، وتأخذ ما وصلوا إليه من فكر في سبيل تقدمها وعزّتها.

والتفكيرُ العميق: هو التعمُّق في التفكير، أي التعمُّق بالإحساس بالواقع، والتعمق بالمعلومات التي تُربَط

بهذا الإحساس لإدراك الواقع. فصاحب الفكر العميق لا يكتفي بمجرد الإحساس، وبمجرد المعلومات الأولية لربط الإحساس، كما هي الحال عند صاحب التفكير السطحيّ، بل يعاود الإحساسَ بالواقع، ويحاول أن يحسَّ به أكثر مما أحسَّ، إما عن طريق التجربة، وإما بإعادة الإحساس.. ويعاود البحث عن معلومات أخرى مع المعلومات الأوليَّة، ويعاود ربط المعلومات بالواقع، أكثر مما جرى ربطُه، إمَّا بالملاحظة وتكرارها، وإمَّا بإعادة الرَّبط مرة أخرى، فيخرج من هذا النوع من الإحساس، وهذا النوع من الربط، وهذا النوع من المعلومات، بأفكار عميقة، سواء كانت حقائق أو لم تكن حقائق. وبتكرار ذلك وتعوّده يوجد التفكير العميق.. وعلى هذا، فالتفكير العميق هو عدم الاكتفاء بالإحساس الأوليّ، وعدم الاكتفاء بالمعلومات الأولية، وعدم الاكتفاء بالرَّبط الأَوَّلِيِّ.. هو إذاً الخطوة الثانية أو المرتبة التي تعلو التفكير السطحيّ.. وهذا هو تفكير العلماء، والموصوفين بالمفكرين.

وهكذا: التفكير العميق هو التعمُّق في الحسِّ والمعلومات والربط.

أما التفكير المستنير: فهو التفكير العميق نفسه،

مضافاً إليه التفكير بما حَوْل الواقع وما يتعلق به للوصول إلى النتائج الصادقة.. وينشأ التفكير العميق من التعمق بالفكر، في حين أن التفكير المستنير هو أن يكون إلى جانب التعمق بالفكر، التفكير بما حوله، وما يتعلّق به، من أجل غاية مقصودة، وهي الوصول إلى النتائج الصادقة.. ولذلك فإن كل فكرٍ مستنير هو تفكير عميق، وبالتالي لا يمكن أبداً أن يأتي التفكير المستنير من التفكير السطحي..

على أنه ليس كل تفكير عميق تفكيراً مستنيراً، إذ إن التفكير العميق عندما يظل في إطاره من حيث هو تفكير عميق، ولا يحاول أن يربط الموضوع، الذي فيه يبحث، بكل ما يتعلق به، فإنه يحافظ على كيانه كتفكير عميق، ولا يكون تفكيراً مستنيراً.

فعالم الذرة حين يبحث عن شطر الذرة، وعالم الكيمياء حين يبحث عن تركيب الأشياء، فإنهما وأمثالهما حين يبحثون الأشياء والأمور، يبحثونها بعمق، وعن طريق هذا التفكير العميق استطاعوا الوصول إلى النتائج الباهرة، التي وصلوا إليها.. ولكِنْ لو أن عالم الذرة لا يكتفي

بالبحث في شطر الذرة أو تفتيتها، بل أخذَه العجب حين البحث، وقادَهُ فكره إلى معرفة علاقة هذه الذرة بالكون، وبتكوين الأشياء، وما ينتج عن تلك العلاقة وهذا التكوين، وما يترتب عليهما من مفاعيل، هنا في هذا الوضع، يصبح عالم الذرة صاحب تفكير مستنير، ولم يعد فقط صاحب تفكير عميق. . ومن هنا فإنه ليس كل تفكير عميق تفكيراً مستنيراً. . كما أن التفكير العميق لا يكفي وحده لإنهاض الإنسان ورفع مستواه الفكري، بل لا بدَّ حتى يحصل ذلك من الاستنارة في الفكر، وهي التي توجد الارتفاع الفكري الذي يؤدي بدوره إلى النهوض.

والاستنارة، وإن كانت ليست ضرورية في الوصول إلى نتائج صحيحة في الفكر، كالعلم التجريبي، والقانون، والطب، ونحو ذلك، إلا أنها ضرورية لرفع مستوى الفكر لدى المفكرين. ولذلك فإنه لا يكفي لنهوض الأمة وجود العلماء في العلم التجريبي، ولا وجود الفقهاء والقانونيين، ولا وجود الأطباء والمهندسين. . . بل لا بد، في الأساس، من أن تكون لديها استنارة في التفكير، أي أن يكون لديها المفكرون المستنيرون.

وبناء على ذلك، نستطيع القول بشكل جازم ويقينيّ: إن الطريق القويم المستقيم الذي يجب أن يسير عليه الإنسان، والذي يجب أن ينطلق من قاعدته، هو طريق الفكر المستنير، وهو وحده الذي يحقق النهضة الفكرية الصحيحة.

جَوْلة فكريَّة على أساس الفكر العميق

١ـ الحياة على الأرض
٢ ـ الماء والحياة
٣ ـ الهواء والحياة
٤ ـ عالم النبات
٥ ـ سر الورقة الخضراء
٦ ـ عالم الحيوان
٧ ـ تكامل نظام الحياة على الأرض
٨ ـ صورة الكون
٩ ـ تأملات في الإنسان

جولة فكرية تأملية
على أساس الفكر العميق

أول واجب على الانسان المكلف، كما بيّنا آنفاً، هو الإيمان بالخالق عز وجل، وعدم الاشراك به، وأن يعرفه معرفةً تليق بشأنه سبحانه وتعالى.

ولمساعدة الإنسان على ذلك أرسل الله تعالى المرسلين مبشرين ومنذرين، ونصب الدلائل والآيات البينات في مخلوقاته لتكون عبرة لأولى الألباب، وأمر هؤلاء بالتفكر والتأمل ليعلموا أن الله هو الحق فيؤمنوا به إيماناً صحيحاً لا يشوبه شرك.

وها نحن نقوم بجولة فكرية تأملية في خلق السماوات والأرض، لنرى ما فيها من عجائب الصنع، وبديع التكوين. فتعالَ معنا أيها القارىء، نَقُمْ بجولة مفيدة، نتأمل فيها ونتفكر، من خلال نظرة عميقة إلى الحياة والإنسان والكون، لنتعرف على بعض ما وصَلَ إليه العلم

من اكتشاف، حيث نجد أن العلم والاكتشاف لا ينيران لنا مُعميات الوجود، وخفايا الكون وحسب، بل يدلاننا على مدى الإحكام في الخلق، والحكمة في التدبير، بحيث لا يمكن للإنسان ـ مهما بلغ علماً ومعرفة ـ أن يحاكيها، أو أن يَقْدِرَ على مثلها.. وعلى هذا فالعلم الذي يبحث في نزول المطر وحركته، وإنبات النبات ومراحل نموّه... وعلومُ الفيزياء والكيمياء، وعلمُ الفلك.. وعلومُ الطب، والطير والحيوان.. كلها ـ إذا ما درسَها الإنسانُ أو عَرَف بعض جوانبها ـ أظهرتْ له العجائب، وأنبأت بالغرائب، ودلَّت على وجود الخالق العظيم المستحق وحده للألوهية وهو الله عز وجل.

وإنه لمن الثّوابت التي لم تعد تقبل الجدَلَ، توافق الاكتشافات العلمية مع الإيمان، وتلازمهما في إدراك الحقاَئق. وانطلاقاً من هذه الحقيقة كانت دعوتنا إلى جولة في بطون كتب العلم، نستقي منها نظرتنا العميقة، لتكون سبيلَنا إلى الهدى، والإيمان بالله تعالى عن طريق الفكر المستنير.. وسوف يكون تركيزُنا على بعض الجوانب التي رأينا أنها توصل إلى الغاية المرجوة، باعتبار أنه لا يمكن احتواء كل ما وصلت إليه البحوث

والاكتشافات، طالما أنها تستغرق ملايين المجلدات، وتغصُّ بها الدور والمكتبات على تعددها وتنوعها.. فإلى النظرة العميقة المستنيرة هيّا بنا أيها القارىء الكريم...

١ ـ الحياة على الأرض:

إن الإنسان ـ مهما بلغ من دقة الفهم وسعة العلم، أو مهما كان عنده من صلابة الإرادة وحسن النية، وأياً كانت نظراته إلى البعيد ـ يظلُّ مرتبطاً بالأرض، ولا حياة له أو استقرار على غيرها ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[(١)].

فالأرض هي وحدها، في النظام الشمسي، صالحة للحياة، بينما الكواكب الأخرى في ذلك النظام، وهي: الزهرة، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأورانوس، ونبتون وبلوتو، لا تصلح لحياة كائنات حية.. وقد أثبتت البحوث التي وضعت، والأرصاد التي أجريت، حتى الآن، أن الأحوال المؤاتية للحياة التي نعرفها على سطح كوكب الأرض، من حرارة وبرودة، ورطوبة وجو مناسب، غير متوافرة على الكواكب الأخرى في النظام الشمسي،

(١) طه: ٥٥.

باستثناء المريخ الذي كان موضوع نقاش علمي مستفيض منذ أواخر القرن الماضي، ولا يزال، بين القائلين بوجود أحياء عاقلين على سطحه، وبين الذاهبين إلى احتمال وجود أحياء، ولكن من طبقة الأحياء النباتية الدنيا وحسب.. وإذا كان هذا الموضوع لم يحسم بعد، فإنَّ الاستقصاء بالمراقب الكبيرة والتصوير، والحلّ الطيفي والسوابر الفضائية ما زال مستمراً.. على أن رأي المحققين من العلماء يميل إلى الاعتقاد الجازم بأن المريخ لا يصلح للحياة، وبراهينهم على ذلك ما عرفوا من أحواله.. فهو يدور حول الشمس مرةً كل ٦٨٧ يوماً، ويبعد عنها ١٤٢ مليون ميل، وحرارته في النهار هي بضع درجات فوق الصفر، بينما تنزل في الليل إلى سبعين (٧٠) درجة تحت الصفر، وسطحه بَرٌّ لا بحرَ فيه، ولا وجود للماء فيه على الرأي الأرجح، وهواؤه مؤلف من غاز من الأوكسيجين، وجاذبيته ثلث ($\frac{1}{3}$) جاذبية الأرض فلا تكفي لحفظ الأوكسيجين في هوائه... ولهذه الأسباب رأوا أنه لا يصلح للحياة أبداً.

أما الخصائص التي جعلت الأرض ـ وحدها في النظام الشمسي ـ صالحة للحياة، فأبرزها أنها أكثف

السيارات في هذا النظام، بل وأكثف من الشمس نفسها، إذ تبلغ كثافة الشمس ربع ($\frac{1}{4}$) كثافة الأرض، بما يجعل الثقل النوعي للحجم في الشمس أخف من الثقل النوعي للجسم نفسه وهو على الأرض.. كما أنها تدور حول نفسها لتولّد ليلاً ونهاراً في مدة متقاربة أو متوازية، وهي المدة الصالحة لراحة الإنسان وقيامه بالسعي، وأن دورتها حول الشمس التي تتم خلال مدة تبلغ ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع اليوم في العادة، يتأتّى عنها تولُّد الفصول الأربعة: الشتاء، والربيع، والصيف، والخريف، وما يكون لكل فصلٍ منها من خصائص تساعد على استمـرارية الحياة..

ويقول العلماء: لو كان حجم الأرض (الذي هو أصغر من حجم الشمس بمليون و٣٠٠ ألف مرة) أكبر مما هو أو أصغر، أو كان وزنها (الذي هو أقل من وزن الشمس بـ ٣٣٢ ألف مرة تقريباً)، أو كانت كثافتها، أقل أو أكثر، لأختلَّ أمرُ الحياة أو تغيَّر وتشوَّه.. فحجمها متناسب مع سرعتها ومع دورانها، وثقلها متناسب مع قوة جذبها، ولو زاد الحجم أو نقص لكانت السرعة أو المدة

قد تغيَّرت، كما أنه لـو قلَّ جـذبها لكـان أُفْلَتَ منها الأوكسيجين، ولو زادت سرعة دورانها حول نفسها عن ألف ميل في الساعة أو قلَّت عن ذلك، بحيث كانت مثلاً مئة ميل في الساعة، لأصبح طول النهار مئة وعشرين ساعة، واحترقت معه زروعنا في لهيب النهار، وذوت في زمهرير الليل. إنَّ هذه السرعة، ما تزال ثابتة، لم يطرأ عليها تبديل، ولو في ثانية واحدة، منذ آلاف السنين. وما يقال عن السرعة، يمكن أن يقال عن الجاذبية، إذ لولا الجاذبية التي تربطنا بالأرض، والتعـادل ما بين هـذه الجاذبية وقوة البعد في مركز الأرض لما كان لنا وجود، ولطار كل شيء موجودٍ على ظهرها، ولذهب كل أثر فوقها لإنسانٍ، أو لجبلٍ، ولكانت بحارنا قد زحلت من وسط الأرض إلى القطبين.

ومجمل القول: إن الإنسان إذا تأمل ملياً في شكل هذا الكوكب الـذي نعيش عليه، وفي تـركيب أجزائـه وعناصره، وكان تأمله عميقاً وبصيرته صافية، فإنه سيقتنع حتماً بأن هذه الدلائل الواضحة تُثبت أن كل ذلك كان بإرادة خالق عظيم هو الله سبحانه وتعالى..

٢ ـ الماء والحياة

إن قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1].. حقيقة ثابتة، لا شك فيها، فالكائنات الحية من أدقها وأصغرها، إلى أضخمها وأكبرها، خلقت من الماء.

وليس أدلَّ على ذلك من مراقبة خلية حية بالمجهر الضوئي، فإننا نرى فيها مادة في حركة دائمة وتغيُّر لا يكفَّان، ففي داخل جدار هذه الخلية أو غشائها، نجد مادة مائعة، شفيفة، هي الجِبِلَّةُ، أو المادة الحية الأساسية.. ولقد أفضت بحوث الكيمياء الحياتية إلى أنَّ في الجبلَّة عناصر كيماوية كثيرة ومتعددة، بحيث تكوِّن هذه العناصر مزيجاً يعطي موادَّ معقدةً ومتفاعلةً للبناء، وأن الماء هو أكثر هذه المواد نسبة في الجبلة، لأنه يؤلِّف، ما بين (٧٠٪) إلى (٩٠٪) من وزن المادة الأساسية كلها.. ومن هنا فإنه لا حياة لأي كائن حي بدون مادة الماء، التي تشكل العنصر الأهم، من بين سائر العناصر الأخرى، التي يتألف منها الجسم..

هذا بالنسبة إلى تكوين الخلايا الحية، أما بالنسبة

(١) الأنبياء: ٣٠.

إلى سائر مظاهر الحياة الأخرى على الأرض، فإنَّ جميعها يُنبىء بضرورة الماء لاستمرار الحياة.. فالماء يتبخر بفعل طاقة الإشعاع الشمسي، ويرتفع بخاراً مائياً في الهواء ثم يهطل على شكل مطرٍ أو بَرَد أو ثلج، ويعود معظمه إلى مصادره الأولى الرئيسة، أي الاقسام التي تغطيها المياه من الكرة الأرضية والتي تشكل ثلثي مساحة الأرض.. وما يتساقط منه على اليابسة يتسرب بعضه إلى طبقات الأرض كي يُغَذِّيَ الخزانات الجوفيَّة التي تتفجر على شكل ينابيع أو آبار أرتوازية؛ وبعد أن يأخذ الإنسان حاجاته المتنوعة من الماء، يعود الباقي إلى البحار والمحيطات.. وهكذا فإنَّهُ ما بين التبخُّر والعودة، تحصل الدورة المائية على سطح الأرض بفعل الشمس.. ولولا توزيع سطح الماء بين القارات، وعلى تلك المساحة الشاسعة، لما حدثت عملية التبخّر، ولما كان للأرض ماؤها الذي يمدُّها بالحياة.

وبالإضافة إلى عملية التبخر هذه، هناك مصدر آخر لتوليد الماء، وهو النبات.. فالنباتات عامل مائي هام بما تُطلِق من مقادير كبيرة من بخار الماء في الهواء. ومثال ذلك نبات الذرة في مساحة فدان (أيكر)، فإنه يُطلق

حوالى أربعة آلاف غالون من الماء في اليوم الواحد..

ومن الخصائص التي عُرف بها الماء أنه عندما يسقط مطراً، أو ينبع من تجاويف الأرض، فإنه يكون عذباً، حلواً.. ولكنْ ما إن يعود إلى البحار والمحيطات حتى يختلط بمياهها وتصبح كلها مالحة، فما الحكمة من هذه الملوحة؟ إنها الحكمة التي تدهش حقاً عقول الناس. فلو أنَّ مياه البحار والمحيطات جُعِلتْ عذبة، لكان الفسادُ قد دبَّ إليها، بفعل ما يعيش فيها من حيوانات، وما يصب فيها من سواقط اليابسة.. ولكي لا يحصل هذا الفسادُ، ولكي تكون البحار مليئة بالأسماك، ولكي تكون هذه الأسماك من أعظم الأغذية للإنسان، بل ومن أعظم مخازن طعامه وأبقاها على الدهر، من أجل ذلك كله جعلت مياه البحار والمحيطات مالحة... فلنتأملْ...

وليس هذا وحسب، بل إنَّ جريان الفلك على سطح المياه، وسبح الأسماك والحيوانات فيها، قد دلَّ العلماء، على أنهما يحدثان بمقتضى القانون المعروف (بقانون أرخميدس). وهو القانون الذي يقول بأنَّ كل جسم يغطس في الماء، يتلقى من أسفل إلى أعلى، دفعاً عمودياً،

يعادل وزن الماء الذي حل الجسم محله، فإذا رجح وزن الجسم على وزن الماء المعادل له غرق الجسم، وإن نقص عنه طفا.

وعلى هذا الأساس تسير السفن الضخمة الناقلة لآلاف الأطنان من الأثقال على سطح البحر بإذن الله تعالى، والتي إليها يشير قوله عز وجل ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾[1]، فالجواري جمع «جارية» وهي السفن التي تمخر عباب البحر، والأعلام جمع «عَلَم» وهي الجبال، وهذا بيان لضخامتها وكبر حجمها الذي يدل على ثقل وزنها.

وإنَّ من العوامل أيضاً التي تؤثر في توزيع المياه على سطح الأرض، وجود الجبال، التي يقول العلماء إنهُ لولاها لما كانت الينابيع الدائمة، والأنهار الدائبة، التي نستقي منها ونسقي زروعنا.. إذ لو كان سطح الأرض كله عبارة عن مهادٍ منخفضة أو مبسوطة، لسقط المطر من الغمام، وتجمَّع في المنخفض من الأرض، أو تفرق مبدَّداً مشتتاً في المبسوط منها.. فلا سبيل له إلى أن يجري فيها

(١) الرحمن : ٢٤.

ينابيع وأنهاراً تصب في البحر، وإذ ذاك يختل سقي الأرض، بل ربما اختلت عملية المطر من أساسها... ولكن الذي يحول، دون ذلك، انتصابُ الجبال، وانخفاض الوهاد، وانبساط السهول... فأي تكوين عجيب، إذاً، لهذه الأرض، فلا تكون جبالاً كلها، ولا سهولاً كلها، ولا أودية كلها؟...

٣ ـ الهواء والحياة

ما قدّمناه عن السرِّ في كيفية تركيب الماء، يقال هو نفسه، بالنسبة إلى تركيب الهواء..

فالهواء يتألف من الأوكسيجين بنسبة (٢١٪) ومن النيتروجين بنسبة (٧٨٪) ومن بعض الغازات الأخرى بنسبة (١٪). والأوكسيجين عنصر طيار، سريع الانفلات والانتشار، فمن شأنه أن ينفلت من الهواء أو أن تمتصه الأرض.. فلماذا لم ينفلت كله كما انفلت من كواكب أخرى؟ ولماذا لم تمتصه الأرضُ كلَّه؟.. وكيف اتفق أن بقي منه في الهواء نسبة (٢١٪) فقط، لا أكثر ولا أقلّ؟ إنه بلا شك تقدير الله العزيز العليم، ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾(١).

---

(١) السجدة: ٧.

ثم إن أي اختلال في تلك النِّسب يسبب، فيما لو حصل، اختلالاً في نظام حياة البشر والبهائم والنبات.

ومع أن الإنسان ليس وحدَه الذي يحتاج إلى الهواء في حياته، بل كل الأحياء الأخرى على الأرض من نبات وحيوان هي بحاجة إليه... فكيف لا ينفد هذا الهواء، وكيف يتجدد بعناصره نفسها، برغم ما نستهلكه منه نحن وجميع الأحياء والنباتات كافة؟.. هذا ما سوف نراه عندما نبحث في «سرِّ الورقة الخضراء» فيما بعد.

٤ ـ عالم النبات

لقد ثَبَتَ بأن الكائنات النامية على الأرض تمثلت في النبات، ثم تبعه الحيوان.. ولقد كانت الحكمة من هذا الخلق، على هذا النحو، أن الكائن الحي لا يمكن أن يعيش بلا غذاء، ولما كان هذا الغذاء في النبات، كان خلقُه بداية...

والنباتات كائنات نامية تتألف من وحدات أساسية هي الخلايا، وقد تكون النبتة مكونة من خلية واحدة أو من عدة خلايا..

وتحتوي معظم النباتات على (بلاستيدات) فيها مادة خضراء هي (الكلوروفيل)، وبذلك يستطيع النبات، بوجود الطاقة الضوئية من الشمس، أن يبني غذاءَه الكربوهيدراتي ثم البروتيني والدهني بنفسه من مواد أقلَّ تعقيداً (الماء وثاني أوكسيد الكربون).

ولقد قسم العلماء عالم النبات ـ وفق النظام الحديث ـ إلى تسعة أقسام. وبعض هذه الأقسام ينقسم بدوره إلى طائفتين أو أكثر، والطائفة قد تنقسم إلى طُوَيئفة وهكذا.. وتحتوي الطائفة على مئات أو آلاف الأجناس، وعلى آلاف الأنواع.

ويمكن أن نأخذ بعض النباتات كأمثلة، حتى نتبين بعض الخصائص التي تتمتع بها.. فأصغر أنواع النباتات تلك المسماة بالفيروسات أو البكتيريا، إذ يتراوح قطر الفيروس بين ٠,٠٢-٠,٣ ميكرون (الميكرون يساوي جزءاً من ألف من المليمتر)، ومع ذلك فإنَّ للفيروس قدرة على المرور خلال أدق المرشحات المعروفة، وعلى التبلور (من مميزات الجماد)، هذا بالإضافة إلى قدرته على التكاثر داخل الخلايا الحية..

ومن البكتيريا هنالك أنواع عديدة، وأحدها بكتيريا الأزوتوباكتر الذي بإمكانه تحويل نيتروجين الجو إلى مواد عضوية مفيدة. وكان لويس باستور (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥) أول من اكتشف أن البكتيريا الضارة تُقتل بالحرارة..

ومن أنواع الفطريات ما يُدعى الفطريات الزقية، وأحد هذه الفطريات هو العفن الأخضر (البنسيليوم) الذي استخلص منه «الكسندر فلمنج» مادة البنسلين.

ومن النباتات الوعائية، التي منها طائفة مغطاة البذور، كما أطلقوا عليها، طائفة تُدعى طائفة السراخس.. وقد كانت السراخس تغمر الأرض بكثرة في العصور الجيولوجية السحيقة ومعظمها من النوع الشجري الضخم الذي انقرض، ومنه تكوَّن معظمُ الفحم الحجري المعروف.

ومن خصائص بعض النباتات قدرتها على التحور بما يجعلها قادرة على جذب الحشرات واصطيادها كي تمتص موادها وتؤمن لنفسها العيش. ومثال ذلك نبات (صائد الذباب) فهو يعيش في وسط لا يستطيع الحصول فيه على المواد النيتروجينية للبناء البروتيني، ولذلك يلجأ

إلى اصطياد الحشرات، وتوجد في السطح العلوي لأوراقه غدد خاصة تفرز عصارات هاضمة، تقوم بهضم الحشرة التي تصطادها أوراقُه.

ولقد توصلت الأبحاث العلمية، عن طريق ما أمكن تسجيله بالأجهزة القياسية، إلى إثبات انفعال النبات بالوسط الذي يوجد فيه، وتجاوبه مع ما حوله.

وإذا كان عالمُ النبات قد أدهش العقل البشري لكثرة ما أظهرت الاكتشافات من عجائبه، فإنَّ هناك سراً ما زال يحيّرُ الإنسان، ويعجز حتى الآن عن إدراكه، هو السر الذي يكمن في الورقة الخضراء.. الورقة الصغيرة، الطريةَ، التي لا نكاد نلامسها حتى نتبيَّن مقدار رقتها، ولا نكاد ننظر إليها حتى نجدها شيئاً زهيداً لا يثير فينا أية دهشة، ولا يحملنا على أي تفكير.. ومع ذلك فقد أثبت العلماء بأنَّ هذه الورقة الخضراء تحدث فيها تفاعلات عجيبة، تدل على دقة الخلق وعظمة الخالق تعالى. فما هو سر الورقة الخضراء هذه؟

٥ ـ سرُّ الورقة الخضراء

لقد أشرنا في نهاية بحثنا في «الهواء والحياة» إلى ما في الورقة الخضراء من أسرار.

وها نحن الآن نتوسع فيما دلَّت عليه الأبحاث في الفحص المخبري، فنرى أنَّ الورقة الخضراء الرقيقة الحواشي تقوم بتفاعل عجيب، وأن هذا التفاعل تترتَّب عليه آثارٌ هامة بالنسبة إلى الحياة كلها...

ففي الورقة الخضراء طبقتان من الخلايا، إحداهما على سطحها والثانية في أسفلها. وهذه الطبقة في الأسفل فيها فتحات أو أفواه دقيقة، تحيط بكل فتحة أو فم خليتان حارستان، وتنفتح الفتحة أو تنغلق بتغيّر شكل الخليتين الحارستين، وإنَّ التبادل الذي يجري ما بين داخل الورقة والهواء الخارجي، يتم عبر هذه الفتحات، إذ منها يدخل ثاني أوكسيد الكربون، ومنها أيضا يخرج الأوكسيجين.. وأما نسيج الخلية الخلوي بين سطحَي الورقة الأعلى والأسفل فطبقتان:

- عُلياهما مُؤلفةٌ من خلايا مرصوفة طولاً، كحجارة مستطيلة في جدار، وهذه الحجارة هي التي تمنح الورقة الخضراء القوة والقدرة على إحداث التفاعل.

- وسُفلاهما مُكوَّنة من خلايا إسفنجية مجمعة، وغير محتشدة إلى جانب بعضها البعض كخلايا الطبقة العُليا..

ومن هاتين الطبقتين تتألف جميع الخلايا التي تحرس الفتحات.

وفي داخل هذه الخلايا التي تتكوّن منها طبقات الورقة وأنسجتها، يحدث التمثيل الضوئي أو التركيب الضوئي. وحدوث هذا التركيب الضوئي ناتج عن تفاعل كيماوي عجيب بين مادة خضراء في خلايا الورقة، تُدعى اليخضور أو الكلوروفيل، وبين ضوء الشمس.. ولولا وجود هذا اليخضور في الورقة لما حصل ذلك التفاعل الكيماوي.. وقد سمي ذلك التفاعل بالتركيب الضوئي، أي التفاعل الطبيعي الذي ينتهي إلى تركيب مواد الطعام الأساسية في النباتات الخضراء، وعامله هو اليخضور ـ الذي يُطلق على صبغين أخضرين يعرفان بيخضور (أ) ويخضور (ب) ـ وفي هذا اليخضور قابلية امتصاص طاقة الشمس وبالتالي استحداث سلسلة من التفاعلات، يشترك فيها الماء، وثاني أوكسيد الكربون، وتنتهي هذه التفاعلات إلى تكون سكر الكلوكوز، وإطلاق ست جزئيات من الأوكسيجين...

وفي الورق الأخضر أيضاً عروق تحتوي أنساجاً موصلة، تتخلل مادة الورقة بين سطحيها الأعلى

والأسفل.. وهذه العروق منها مـا ينقل المـاء والمواد المحلولة إلى أجزاء الورقة أو النبات، ومنها ما ينقل المواد الغذائيَة التي تولَّدت بفعل التركيب الضوئي.. ففي النهار يدخل ثاني أوكسيد الكـربون إلى الـورقة من فتحـاتها ويشترك في تفاعل التركيب الضـوئي، أما الأوكسيجين الناتج عن هذا التفاعل فيستعمل بعضه في النبات نفسه للتنفس، والبعض الآخر يخرج من الفتحات إلى الهواء كي يجدِّده.. وإذاً فالنبات الأخضر يأخذ في النهار ثاني أوكسيد الكربون ويطلق الأوكسيجين، بينما في الليل - وعندما يـذهب ضوء الشمس - يتـوقف تفاعـل التركيب الضـوئي، ولكنَّ فعل التنفس يستمـر، فيـأخـذ النبـات الأوكسيجين ويطلق ثاني أوكسيد الكربون، أي بعكس ما كان يفعله في النهار..

وعند علماء التركيب الضوئي، أن النباتات تُدْخِلُ كلَّ عام في هذا التركيب حوالى (١٥٠) ألف مليون طن من الكربون و (٢٥) ألف مليون طن من الهيدروجين، وتُطلق (٤٠٠) ألف مليون طن من الأوكسيجين..، وهكذا فإن حياة النبات وغذاءه يقومان على الكربون الذي يتناوله من ثاني أوكسيد الكربون. ويتكوّن ثاني أوكسيد الكربون

عن طريق اتحاد الكربون مع الأوكسيجين على أثر كل احتراق.. والإنسان هو الذي يقوم بعملية الاحتراق إما عن طريق تنفُّسه، وإما عن طريق ما تنفُثُ أدواتُ ووسائلُ صناعاته من أبخرة أو غازات تحتوي عليه، فيأخذه النباتُ ويحلُّه حتى يأخذ منه الكربون، ثم يطلق لنا الأوكسيجين كي نتنشق به هواءً نقياً. وبهذه المبادلة التي ما بين عالم الإنسان وعالم النبات، يتجددُّ استمرار أسباب الحياة في كل لحظة على الأرض..

هذا ولا بد من الإشارة إلى أن ثاني أوكسيد الكربون هو في الحقيقة مصدر غذاء النبات، فأية غرابة هي في هذا التكوين الذي يحوي نقيضَين: في حال هو مصدر الحياة، وفي حالٍ أخرى هو مصدر الموت!... وأية أسرارٍ في هذا الكون؟ فتأملْ!...

٦ ـ عالم الحيوان

إن تاريخَ الحياة على الأرض كان في لبابه تاريخَ التفاعل بين الأحياء على تنوُّعها، وبين ما يحيط بها، أي البيئة التي تعيش فيها..

وللتدليل على جماعة من الأحياء المتباينة وعلى

كيفية علاقاتها بعضها ببعض، وعلاقاتها ببيئتها غير الحية، يَضرب العلماءُ مثال غابة الصنوبر. فشجرة الصنوبر هي فردٌ في جماعة الغابة الصنوبرية؛ وجذورُها حتماً مثبتة في التراب (الأرض)، تتعايش مع أنواع خاصة من الفطريات؛ وانَّ رؤوس هذه الجذور كالشعيرات الدقيقة، تعمل، على تفتيت صفحات الصخور التي تلامسها، ثم تموت، فتأتيها أحياءٌ دقيقة وتحلّها إلى موادها الأولى، وتحدث بذلك أنابيب شعرية دقيقة في التراب، يسلكها الهواء، فتهوَّى وتُسقى.. هذا في داخل التربة.. أما فوق الأرض، فجذع شجرة الصنوبر مسرح لأنواع دقيقة من النبات والحيوان التي تطلب الغذاء في شقوق القشرة.. أما الأغصان والورق (إبر الصنوبر) فجزء آخر من عالم الشجرة: تبني العقاب فيها عشها، ويفتح الطائر المصلب بمنقاره كيزانها لاستخراج البذور، وتأتي إليها طيور أخرى للستر أو الفيء، وتأتيها السناجيب من أجل أكل الكيزان على نحو يختلف عن الطائر المصلب، وتسقط إبر الصنوبر على الأرض، وتتراكم حتى تصير كالفراش الوثير، لتحمي التربة من الانجراف، ولتحفظ حرارتها وبعض رطوبتها..

وهكذا فإن لشجرة الصنوبر، التي هي جزء من

الغابة، نظامها الخاص. والغابة في مجموع أفرادها، تؤلف نظاماً أكبر. ويطلق على النظامين، في الحالَين، تعبير: «وحدة بيئية». . ومن الوحدات البيئية يتألف «الغلاف الحياتي» كنظام أرضي النطاق، يحتوي على أنواع لا تحصى من الأحياء النباتية والحيوانية، المتباينة تبايناً لا يكاد يُحَدّ، في أحجامها وخصائصها، ومنازلها ووظائفها في وحداتها البيئية. . وإنه لَنِظامٌ محكمُ التوازن والتناسق والتماسك، في تفاعل هذه الأحياء بعضها مع بعض، وفي تلك المظاهر من تجاذب وتنافر، وتركيب وحَلٍّ، وحياة وموت، واندثار وانبثاق. . حتى إذا فقدت إحدى حلقاته، اضطرب توازنه واختلّ. . إلاَّ أن الله تعالى يعوضه عن كل قديم مندثر بجديد منبثق.

ويعيش الحيوان في تلك الوحدات البيئية، بأنواعه الكثيرة العدد، وبأشكاله البالغة التنوع، متوزعاً ما بين المياه واليابسة، وما بين المناطق الحارة والباردة والمعتدلة، فضلاً عن عالمه القائم بذاته في أعماق المياه بمحيطها وبحرها وأنهارها الكبيرة. .

وتعيش الحيوانات في عالمها، وهي تخضع في وجودها، وحياتها، لأنظمة غاية في الدقة، تدلُّ كل حيوان

على طريقة عيشه، وحماية وجوده، والائتلاف مع جنسه..

وليس الولوج إلى عـالم الحيوان، واستخـراج ما احتوته دوائر المعارف الخاصة بالحيوان، هو هدفنا هنا.. ولن نستفيض أيضـاً في غـرائب أجنـاس الحيـوانـات وأشكالها، ولا في كيفية تشكيل أنواعها وتركيب خلاياها وأعضائها، أو في طرق عيشها، وما تتميز به أجناسها عن بعضهـا البعض.. إلّا أننـا نكتفي بـإيـراد أمثلة، عن خصائص معينة عند بعض الحيوانات، تثير الاهتمام فعلاً، وتستدعي العجب حقاً...

فالفهد هو أسرع حيوان على الأرض، وقد تصل سرعته إلى (١١٢) كيلومتراً في الساعة الواحدة. ولكنه لا يستطيع الاستمرار على هذه السرعة لمدة طويلة، لأنها تتعبه وتؤدي إلى تلاشيه، وربما إلى موته..

وللذئب حِسٌّ عائليٌّ يضرب به المثل، فأفراد العائلة الواحدة تشدها علاقات متينة جداً فيما بينها، ومن مظاهر هذه العلاقات الدفاع عن بعضها البعض، والمشاركة في تأمين الطعام والغذاء..

والدب الأسمر يقضي فصل الشتاء خدِراً، متغذياً بما

اختزنه جسمه من شحوم غذائية خلال فصل الصيف..

والكركدن يبتلع كمية من الطعام تصل إلى (٢٠) كيلوغراماً من الأعشاب والجذوع، وكمية من الماء تبلغ مائة ليتر، وذلك كله في اليوم الواحد... وأحد أنواعه (وحيد القرن) الذي يصل وزنه إلى أربعة أطنان، وارتفاعه حتى الكتف إلى مترين، يستحم بالمستنقعات الموحلة لساعات عدة يومياً، وتضع أنثاه صغيراً واحداً بعد حمل يدوم (١٩) شهراً.

ويمتاز الجمل بخصائص جسدية وفسيولوجية تجعله متوافقاً للعيش مع بيئته الصحراوية، إذ يختزن المواد الدهنية في سنامه، ويحتفظ بالماء في أنسجة جسمه وفي عدد من الأكياس الموجودة في معدته، بحيث يستطيع، من جراء ذلك، السير طويلاً، دون أكل أو شرب؛ ولا يفرز جسمه إلاَّ كمية قليلة من الملح، بحيث يبقى مقداره في دمه ثابتاً... وهو يتحمل فقدان أربعين بالماية (٤٠٪) من ماء جسمه، في حين لا يتحمل الإنسان أن يفقد أكثر من نسبة (١٢٪) من ماء جسمه، وإلاَّ تعرض للهلاك..

أما الخنزير البري فمن خصائصه المميزة ضعف

نظره، وقوة حاسة الشم عنده؛ ولكنَّ أهم خصائصه على الإطلاق تكمن في قوة دفاعه.. وسلاحه في الهجـوم والدفاع أنياب حادَّة. وليس في ذوات الأنياب والأذناب حيوانٌ ذو قوة تبلغ قوة الخنزير في نابه. وربما طال ناباه فيلتقيان، وعند ذلك يموت جوعاً، لأنَّ هذا الالتقاء يمنعه عن الأكل.. ومن أنواع طعامه الثعابين، يأكل منها كثيراً دون أن تؤثر فيه سمومها.. وإذا جاع ثلاثة أيام ثم أكل، سَمِنَ في يومين، وهذا ما يفعله الذين يقومون بتـربية الخنازير؛ وإذا مرض وأكل السرطان زال مرضه.. ومن عجيب أمره أنه مراوغ حتى ليفوق في مراوغته الثعلب.. وإذا قلعت إحدى عينَيه مات سريعاً..

ولعلَّ أكبر الحيوانات على الاطـلاق الحوت، إذ يصل طول بعض أنواع الحيتان إلى (٣٣) متراً ووزنها حتى (١٣٠) طناً.. ومن خصَائص الحيتان أنه ليس لها أسنان، بل صفائح قرنية متصلة بـالفك العلوي. وهي تعتمد في غذائها على القشريات الهائمة التي تدخل الفم مع ماء البحر، وتبقى وحدها بعد أن يتسرب الماء من الصفائح القرنية.. وقد وجد في معدة حوت كبير طوله (٢٦) متراً، حوالى (٥) ملايين حيوان قشري يبلغ وزنها

طنين تقريباً. . تضع الأنثى مرة واحدة كل عامين، مولوداً وحيداً، يبلغ عند الأنواع الكبيرة ستة أمتار، وتفرز الأم حليباً غنيا بالمواد الدهنية يساعد الحوت الصغير على النمو بسرعة. .

وإذا تركنا عالم الحيوانات التي تتصف بكبر الجسم أو ثقل الوزن، ودخلنا في عالم الطيور أو الحشرات، فإنَّ عجبنا سيزداد لما تتميز به هذه الأنواع من خصَائص ذاتية، لا يمكن معرفتها بدون إجراء دراسات دقيقة عليها. .

ولقد أثبتت تلك الدراسات أن الخفافيش، التي يوجد منها حوالى ألف نوع، كلها قادرة على الطيران بلا استثناء، وأنها ذات طبائع ليلية، تقضي النهار معلقة بأرجلها، وبعض أنواعها في المناطق الشمالية، تبقى بهذا الوضع طيلة الشتاء، داخل الكهوف أو المباني. . لقد عَشِيتْ أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها، فهي مسدلة الجفون بالنهار على حِدَاقِهَا، وجاعلة الليل سبيلَها الذي تلتمس به أرزاقها. . وإن أجنحتها من لحمها تعرُج بها عند الحاجة إلى الطيران، كأنها شظايا الآذان، غير ذوات ريشٍ ولا قصب؛ ولها جناحان لم يَرِقَّا فينشقَّا، ولم يغلُظا فيثقُلا،

تطير وولدها لاصق بها، لاجىء إليها، يقع إذا وقعت، ويرتفع إذا ارتفعت، ولا يفارقها حتى تشتد أركانُه، ويحمله للنهوض جناحُه، ويعرفَ مذاهبَ عيشه ومصالح نفسه..

ومن أعجب الطيور خلقاً الطاووس، فهو إن شبّهتَهُ بما أنبتت الأرض قلتَ: جَنىً جُنِيَ من زهرة كلِّ ربيع، وإن ضاهيتَهُ بالحُلِيِّ فهو كفصوصٍ ذات ألوانٍ قد نُطِّقت باللجين المكلّل (المزين) بالجوهر. يمشي مشي المرح المختال، ويتصفّح ذنبه وجناحيه، فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله وأصابيغ وشاحه.. ومع هذا الجمال بألوانه الزاهية، فإنَّ ريشه يسقط، ثم يتلاحق نامياً حتى يعود كهيئته قبل سقوطه، لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع لون في غير مكانه..

وإنَّ أكبر الطيور الحية، على الإطلاق، النعامة، إذ يبلغ ارتفاع رأسها عن الأرض ثلاثة (٣) أمتار، ويصل وزنها إلى مئة (١٠٠) كيلوغرام. وسرعتها عند الركض تبلغ ما بين أربعين وخمسين (٤٠ ـ ٥٠) كيلومتراً في الساعة، بفضل قائمتَيها العاليتَين اللّتين تحركهما عضلات قوية، واللّتين تنتهي كل منهما بإصبعين اثنَتين فقط. تزن

بيضة النعامة حوالى (١٦٠٠ غرام)، ويتناوب الذكر والانثى حضن البيض، ويخرج الصغار بعد (٤٠) يوماً قادرين على السير..

أما في عالم الحشرات، فحدّث ولا حرج، إذ يجد الإنسان من مقومات الاجتماع والتنظيم ما عجزت المجتمعات البشرية فعلاً عن الإتيانِ بمثل دقته وإحكامه... وأبرز مثال على ذلك مجتمعات النمل.. فالنمل تزيد أنواعه على ستة آلاف. وهي تؤلف مجتمعات (قُرى النمل وبيوته) شديدة الغرابة في التدبير والتنظيم. فالمجتمع الواحد يتألف من ملكة واحدة ـ وقد تكون فيه عدة ملكات ـ ومن بضع عشرات إلى نيفٍ ومليون عاملة.. وجود الذكور في مجتمع النمل آنيٌّ، إذ سرعان ما تموت هذه الذكور بعد الإفراق. ويحصل الإفراق عادة عند بدء الخريف، حيث تخرج الذكور والإناث (كلها مجنَّحة) من قريتها، وتطير في الهواء، ثم تهبط على الأرض ويبدأ التلاقح..

في أغلب الأحيان تكون الأنثى الواحدة المخصبة منتجة لمجتمع جديد. فهي بعد أن تُقتلع أجنحتها،

تنزوي داخل فجوة، أو تحت إحدى الحجارة، وتبدأ بوضع البيض، ثم تقوم بعد ذلك بتغذية أولى اليرقات التي تخرج من البيض، والتي تصبح كلها، بلا استثناء، من العاملات. . ولا يبدأ ظهور الذكور والإناث في هذه القُرى إلَّا بعد السنة الثالثة أو الرابعة لتأسيسها. تعمِّر أوكارُ النمل طويلاً، وبعضها تبقى في حالة ازدهار أكثر من أربعين عاماً.

ومن أعمال النمل أن العاملات بعد أن تقوم بتوسيع القرية من الداخل، تخرج لتأمين الطعام للملكة واليرقات، وكل ما يتعلق باستمرار الحياة داخل المجتمع الجديد. وعندما تضع الملكة البيضة تكون إحدى العاملات بانتظارها، فتتلقف هذه البيضة وتحملها إلى غرفة خاصة في القرية، في حين تتولى بعض العاملات رعاية اليرقات، وذلك عن طريق لعقها وتنظيفها ثم التنقل بها من مكان إلى آخر أكثر ملاءمة، والقيام بتغذيتها. . ومن رعاية النمل أيضاً ما تحظى به العذارى، إذ تتولى العاملات نقلها إلى الطوابق السفلى من القرية في المساء، أو عندما ينزل المطر، ثم تعود وتصعد بها إلى الطوابق العليا في الأوقات الجميلة، وعند سطوع الشمس. .

ومن أجل توفير الغذاء، فإنَّ أنواعا عديدة من النمل تعتمد في ذلك على السائل الذي تفرزه مختلف حشرات المنّ، التي تؤمن منها حاجتها من المواد السكَّرية، ولذلك فهي لا تحمي هذه الحشرات الضارة وحسب، بل إنَّ بعض أنواع النمل يعمل على تربيتها، وذلك بنقل العشرات منها إلى القرى والبيوت النملية عندما تكون شروط البيئة غير ملائمة، وإعادتها بعد ذلك إلى أماكنها.

وقد نستغرب، إذا علمنا، أنَّ بعض أنواع النمل تشن الحروب فيما بينها، وهي تستعمل أسلحة ذاتية، عبارة عن فكَّين قويين عند النملة، وسم تفرزه غدة في البطن.. وقد يحدث، أن تعود العاملات، أثناء الحرب، بأسيراتٍ من الأعداء تحتفظ بها في قريتها كرقيقات.. ومن الغريب أن هناك نمالاً ـ عندما يكون القتال على أشدّه ـ لا تستطيع مقاومة تضرعات العدو الجائع، فتمدُّه بحاجته من الطعام، حتى يشبع، ثم يُستأنف القتال من جديد..

أما عن مشاعر النمل، فقد قررت دراسات بعض العلماء، أن الحُبَّ عند النمل يفوق بدرجات حرارة الحب عند البشر. يقول «موريس ماترلينك» في كتابه (عالم

النمل) ما نصه: «يجدر ألّا يغيب عن بالنا أن جميع الأعمال تُؤَدّى في دنيا النمل في ظل الحب.. إنَّ سر الحب كامنٌ في حب النمل المشترك ليرقاته، وتفانيه في رعايتها والمحافظة عليها.. فإنَّ النملة الأم تحب يرقاتها حباً لا يوجد له مثيل في العالم.. ولهذا فإنَّ الأم قد تضحّي بأي من أعضاء جسمها، ولكنها لا تتخلى عن يرقتها، ومن ثم فهي تتابع طريقها محرومةً من بعض أعضائها، من أجل المحافظة على يرقتها أو حوريتها».

لقد دعا الإمام علي سلام الله عليه الناسَ للتَّأَمُّلِ والتفكرِ بالنملة فقال: «انظروا إلى النملةِ في صِغَر جثتها ولطافةِ هَيْئَتِها، كيف دبَّتْ على أرضها وَصَبَتْ على رزقها، تنقل الحبة إلى جحرها، وتُعِدُّهَا في مُسْتَقَرِّهَا. ولو فكّرت في مجاري أكلها، في علوها وسفلها، وما في الجوف من شراسيف بطنها، وما في الرأس من عينها وأذنها، لقضيت من خلقها عجباً، ولقيت في وصفها تعباً»..

فتلك هي النملة، الدؤوب في سعيها، الحكيمة في تدبُّرها، الطيبة الطاهرة القلب في عدائها، المحبة القوية العاطفة في مشاعرها، تعيش في ممالك خاصة، تنظِّمها،

وتُقيم دعائمها، حتى تبني مجتمعاً سويّاً، لا وجود فيه للفوضى والتنافر، بل تنظيم وتنسيق غاية في الإتقان والإحكام.. فأين هذه الحشرة الضئيلة منك أيها الإنسان؟.. أين تنظيمها من فَوْضَاك، وتفانيها من أثرتك، وقناعتها من مطامعك؟!..

وعلى عكس النملة الطيبة، نجد الجرادة المضرة.. فهي حشرة ذات عينين حمراوَين، وحدقتين مضيئتين.. سمعها خفيٌّ، وفمها سويٌّ، وحسُّها قويٌّ.. وإنَّ لها نابين، بهما تقرض، ومنجلَين بهما تقص.

وإنَّ الجراد لمن أشدِّ الحشرات ضرراً للإنسان.. فهو يعيش عادة أفراداً منعزلة عن بعضها البعض، غير أنها ـ لأسباب لا تزال مجهولة ـ تتجمع بعشرات الملايين، بل وربما المليارات، في بعض السنين، وتنتقل طيراناً بأسراب تحجب أشعة الشمس، فلا تحط على البراري والحقول، إلَّا وتأتي على كل ما فيها من أخضر العشب والشجر، ومن الحبّ والثمر، مخلِّفة وراءها الجوعَ والغلاء...

تلك بعض اللمحات الخاطفة عن عالم الحيوان،

في أنواعٍ منه، مما توصَّل الإنسان إلى معرفته.. وإنه لجدير بالإنسان أن يتأمل في دقائق صنع هذه المخلوقات، وفي كيفية سعيها إلى رزقها وحمايـة وجودهـا، وكيف تتفاعل مع بيئاتها، لتشيع الجمالَ والسرور حيناً، ولتنشر الخوف والرعب من حولها، حيناً آخر.. ويسأل: هل من خالق غير الله؟..

٧ ـ تكامل نظام الحياة على الأرض

لم يعد خافياً لدينا، بعد تلك الجولة التي قمنا بها، أن كل ما يحيط بالحياة على الأرض من أحوال وعوامل، وكل ما أنشىء عليها من كائنات حية، ومن جوامد، إنما يقوم وفق أنظمة دقيقة، وموازين مقدَّرة، وقوانين خاصة، تأتي جميعها لتوجد نوعاً من التكامل في نـظام الحياة الشامل على الأرض، وفي بقاء هذه الحياة.. فقد رأينا أن نسبة الأوكسيجين في الهواء، البالغة (٢١٪) هي النسبة اللازمة لحيـاة كـل حي.. ورأينـا كيف أن التفـاعـل الكيمياوي العجيب ما بين المادة الخضراء في خـلايا الأوراق، المسماة الكلوروفيل أو اليخضور، وما بين ضوء الشمس، هو عامل رئيسي من مقومات تلك الحياة.. ورأينا كذلك كيف أن مياه البحار وحدها مالحة، وما عداها

مياه عذبـة، لاستمرار حيـاة الكائنـات التي تعيش في البحار. .

وهكذا فإنَّ كل ما على الأرض يتفاعل وفق القوانين التي حددت له، ويؤدي الدور الذي رسم له، وكأنه يعرف ما يقوم به، حتى ولو لم يكن من ذوي الإدراك والتمييز. . وما ذلك إلّا لكي تتحقق في النتيجـة، الإرادة لإنشاء الحياة. .

وإذا كان دور النبات أن يبادل الإنسان نسمة الحياة، فإنَّ الحيوان أيضاً يأخذ من النبات، ومن الهواء والماء، مقومات حياته، حتى يمدَّ الإنسان بمصادر الغذاء التي تحفظ له الحياة. . وعلى ذلك نجد أنَّ الحيوانات اللبونة (آكلة الأعشاب) هي الأكثر نفعاً للإنسان، بل ويأتي نفعها هذا في المرتبة العظمى. .فهي تعطي الإنسان الحليب، واللحم، والصوف، والوبر، والشعر، فضلاً عن انتفاعه بجلدها، وعظمها، وقرنها. . ويقول العلماء إن الإنسان يحتاج ـ من أجل حفظ حياته ـ إلى أغذية تتألف من المواد البـروتينية، والمـواد الكربـوهيدراتيـة، والمواد الـدهنية، والأملاح المعدنية والفيتامينات. . وذكروا أن البروتينات، منها الكاملة ومنهاالناقصة، وأن أعظم مصدر للبروتينات

الكاملة هو اللحم واللبن، وأن المواد الدهنية هي أغنى الأغذية في إنتاج الحرارة، وأن من أعظم مصادرها: السمن، والزبدة، واللبن واللحم. وأما المواد المعدنية فأول مصدر يذكرونه لها هو اللبن.. وكذلك أهم أنواع الفيتامينات توجد في اللحم واللبن والخضار والفواكه.. ويقول العلماء: إن الأنعام، هي وحدها، من بين جميع الحيوانات اللبونة، تنتج اللبن باستمرار، وبكثرة عظيمة، ولو قُطع عنها رضيعُها. وهي وحدها التي تجمع بين هذه الخصائص، وبين القدرة على الحرث والحمل والجرّ...

وهكذا فإنَّ الأنعام قد جعلت آكلةً للأعشاب، حتى تكون مخزناً دائماً، ومصنعاً دائباً للحليب والسمن واللحم، وكلها من المواد البروتينية.. وقد كان المتوقَّع، عقلاً، أن تنتج هذه الأنعام، التي كلُّ غذائها من العشب (وهو عبارة عن كربون) مادة كربوهيدراتية، نشوية، سكَّرية، لا أن تنتج مادة كلها بروتينات... أو ليس في ذلك أسرار لا يستطيع الإنسان أن يتحكم بها، مثلما أنه لا يستطيع أن يتحكم في تركيب الماء والهواء، ولا في التمثيل الكلوروفيلي، ولا في عذوبة مياه اليابسة أو ملوحة

مياه البحر؟. ولقد فرضت عليه هذه الأشياء بقوانينها فرضاً، ولكن لمصلحته ومصلحة الكائنات الحية الأخرى. ولذا كان جلُّ اهتمامه أن يكتشف وجودها، وتراكيبها.. أما أن يغيِّر من نظامها الذي وجدت فيه، فإنه عاجزٌ عن ذلك، لأنَّ في خلقها على النحو الذي هي فيه، إرادةً فوق إرادة الإنسان، وقدرة فوق قدرته، هما إرادة الله تعالى وقدرته.

٨ ـ صورة الكون

كان روجر بيكون، قد بيَّن، منذ القرن الثالث عشر، أن صناعة أداة تمدُّ في قوة العين البشرية، تمكِّن من تقريب النجوم إلينا، وتُرينا إيَّاها بشكل واضحٍ ودقيق.. ذلك أن الإنسان يعتمد على حواسه الخمس في استكشاف العالم. فإحساس الضياء والظلام أداته العين، وإحساس الحرارة والبرودة أداته أطراف الأعصاب المبثوثة في الجلد، وإحساس الصوت أداته الأذن، وإحساس الشم والذوق في أعصاب الأنف واللسان.. وإنَّ طريقة العين في الإبصار تقوم على تأثرها بطائفة من أمواج الضوء، تنعكس عن سطوح الأجسام وعلى الأجهزة العجيبة في

العين، وبعض مراكز المخ التي تتبين الصور المرتسمة وتدركها. .

وباستعمال الأجهزة المتطوّرة أمكن تمييز تكتلات من المجرات، كبيرة العدد إلى حد عجيب، كما أمكن تمييز مجرات منعزلة تقع على مسافات هي من البعد بحيث استلزم لها إيجاد وحدة خاصة تتكون من عدة سنوات ضوئية، وهي الوحدة التي سميت «فرسخ نجمي»، والتي تتكون من المسافة التي يقطعها الضوء في (٣,٢٦) سنوات. . .

وقد بدَّلت هذه الأجهزة النظريات القديمة كافة، تلك التي كانت تعتبر مركزاً للكون، وأحلت محلّها حقيقة وجود الأرض، وهي أنها لا تعدو جزءاً صغيراً من نظام شمسي كبير، وأن هذا النظام كله لا يزيد على نقطة صغيرة ضائعة في وسط كونٍ فسيحٍ، واسع الآفاق.

وقد حَصَلَ ذلك عندما أثبتت اكتشافات (جاليليو وكيبلر ونيوتن) كم هي كبيرة قوة الشمس بالنسبة إلى الأرض، وما أعلنه (جيوردانو برونو) من أن النجوم التي نراها في القبة التي تظلنا إن هي إلاَّ أجرام تشبه الأرض

والقمر والكواكب الأخرى.. أما عن مواقع النجوم فقد ظن العلماء في البدء أنها ثوابت، ولكنهم عادوا وأكدوا أنها كلها تدور وتجري لمستقرٍ لها، في مجريين مختلفين، متداخل أحدهما في الآخر كأنهما فوجان من النحل مختلطان. ولكن هذا الجري يتم ويستمر في مواقع ومدارات لا تتبدل ولا تتغير بنسبة بعضها إلى بعض، وقد كان على هذا منذ خلقه الله وسيبقى كذلك على كرّ الدهور...

وبفعل تطور آلات الرصد، لم تعد الشمس إلاّ مجرد وحدة بسيطة في الفلك الكبير.. ثم جاءَ دور اكتشاف المجرَّات، وبانت «مجرة درب التبان» التي ينتمي إليها النظام الشمسي، وكأنها هي الكون، نظراً لكبرها واتِّساعها، إلاَّ أنه لم يمرَّ على اكتشافها إلاَّ بضع سنوات، حتى ظهرت حقيقة صغرها بالنسبة إلى الكون، وظهر كم هو صغير «درب التبان» في مملكة المجرات الهائلة..

ولكي نقف على ماهية مجرة من المجرات، يمكن أن نلجأ إلى التصوُّر، فنتخيَّل أننا في غابة كثيفة من الأشجار، شاسعة المساحة، ولا يستطيع النظر أن يحدَّ

أطرافها. وهكذا فإننا ونحن نتجوَّل في الغابة، نرى أشجاراً في كل اتجاه، ومهما كانت قوة المنظار الذي نستعمله، فإنَّ الأشجار تبدو لنا أكبر وأكبر ولكنّ عددها لا يزيد.. ويجد العلماء أنفسهم في حالة متشابهة، فالنجوم تؤلف غابة كثيفة. وإذا نظرنا إلى السماء من فوقنا أمكننا أن نرى بالعين المجردة أكثر من خمسة آلاف نجمة في فلك نصفَي الكرة.. بينما لو استعملنا المنظار، فإنَّ أبسط نوع منه يكشف لنا عن مليونين ومئتين وسبعين ألف نجمة.. وآخر التقديرات تعطي للغابة أكثر من أربعين مليار نجمة.. وهكذا وبمثل هذا التشبيه، اعتبرنا أن المجرة هي غابة الأشجار، وأن كل نجمة فيها شجرة.. وأن شمسنا تعتبر بمثابة شجرة في هذه الغابة، وهي ليست شجرة عملاقة، ولا شجرة متواضعة.. كما أنها ليست موجودة في وسط الغابة تماماً، بل في منتصف الطريق بين الحافة والوسط، وعلى بعد عشرين ألف سنة ضوئية من هذا الوسط..

ولكي ندرك ما نحن بصدده، علينا أن نتفحص السماء في إحدى الأمسيات الصافية، ولكن قبل أن يظهر القمر، وعندها سوف نرى شيئاً يشبه سحابة رقيقة بيضاء،

تمتد من طرف إلى طرف آخر، وهذه السحابة ليست سوى جزء من مجرة «درب التبان»، المجرة التي تنتمي إليها شمسنا..

وإنَّ من يتفحّص مجرّة «درب التبان» هذه، يلاحظ أن هناك سُحُباً نجميةً متتاليةً تتألف منها هذه المجرَّة، وتبدو تلك السّحب متلاصقة بعضها ببعض. وقد كشفت آلات الرصد الضخمة أنَّها تأخذ شكل كتلة هائلة من غبار دقيق، كل «ذرة» منها بمثابة شمس.. فلنتصوَّر إذاً كم يجب أن يكون عدد هذه النجوم هائلاً، وبُعدها سحيقاً، حتى تظهر لنا مجموعاتها على شكل سحبٍ غير واضحة المعالم.. إنَّ ذلك الاتساع الهائل لمجرَّة درب التبان، قد دلَّت عليه الحسابات الضوئية، ورغم ذلك تبقى علامة استفهام حول مجرتنا هذه، بملياراتها الأربعين من النجوم الساطعة، وملياراتها العديدة الأخرى من النجوم التي انطفأت، ومليارات مليارات الأطنان من الغبار والفضلات الكونية.. والحقيقة أنه ليس هناك شيء ثابت وأخير بالنسبة إليها، وإن كان العلماء يقدِّرون بأن حجم كتلتها أكبر بما يقدّر بين ١٥٠ ملياراً و٣٠٠ مليار مرة من حجم كتلة الشمس..

إن هذه الاكتشافات في علم الفلك، قد تمّت كما قلنا، بفعل آلات الرصد، التي تَمَّ صنعها وتطورها منذ قرون..

ولقد أظهرت الصور الفوتوغرافية التي التقطها مرصد «جبل بالومار» في كاليفورنيا، أن هنالك عدداً من المجرَّات تختلف بين بعيدة وأكثر بُعداً، وكبيرة وأكثر كِبَراً؛ بعضها ذو فروع حلزونية، وبعضها بدون فروع.. أما القريبة منها فقد استطاع العلماء درسها بفضل النجوم النابضة الموجودة فيها، وهذه تبدو كنجوم ضئيلة جداً، لا تضيء إلاَّ كشمعة على بعد عدة آلاف من الكيلومترات، مع أنها أكثر تألُّقاً من الشمس بآلاف وآلاف المرات..

وعندما تضيع معالم هذه النجوم النابضة أثناء التوغل في أعماق السماء، يمكن العلماء، لحسن الحظ، الاعتماد على نجوم أخرى هائلة التألُّق، تعمل كمنارات في السماء تهديهم، وتجعلهم يتحسسون طريقهم إلى المجرَّات... ومع ذلك فحين يزداد التوغل في السماء، فإن معالم هذه المنارات تضيع بدورها، وتتحول المجرَّات نفسُها إلى مجرد غمامة رقيقة بيضاء..

وليست مجرتنا «درب التبان» التي تنتمي إليها شمسنا

سوى جزء صغير جدّاً في محيط الفضاء الكوني الهائل، ذلك المحيط الذي لا يحده في الاتساع شيء، إلى درجة تبدو معها المسافة من مجرة إلى أخرى شيئاً لا يذكر.. وفي هذا المحيط المترامي الأطراف تنتشر المجرّات كبقع ضئيلة لا تكاد ترى، من خلال آلات الرصد الضخمة، إلاّ بصعوبة.

أما عدد المجرات التي أمكن الحصول على صور فوتوغرافية لها فقد بلغ حوالى (٦٠) مليون مجرة منتشرة في كل مكان تحت قبة الفلك. ولقد تمكن العلماء من سبر غور الكون حتى مسافة مليار سنة ضوئية. بل إنهم نجحوا في الحصول على صور فوتوغرافية توسع حدود الكون المنظور إلى ملياري سنة ضوئية.. وحتى الآن يقول علماء الفلك بأنه لا يمكنهم إعطاء أرقام نهائية عن أبعاد الكون الحقيقية، وعن كتلته، وعن عمره. وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1].

٩ ـ تأملات في الإنسان

إنَّ الإنسان، كان ولا يزال، هو المحور، وهو رأس

(١) الذاريات: ٤٧.

المال الأكبر والأوفر... فكل العلوم، والفنون، وكل الأهداف التي رُسمت، والمؤسسات التي أُوجدت، قال العلماءُ إنها يجب أن تكون في خدمة الإنسان، وفي سبيل رقيه، وتوفير السعادة له..

ولسنا في معرض مناقشة هذه «الأخلاقية»، في مدى مطابقتها للواقع أو انعدام هذه المطابقة، ولكنّنا ننظر إلى الإنسان، من حيث هو كائن حي، ونتأمَّل في خَلْقه فنجد ما يبعث لدى أهل العلم الدهشة..

وعلى هذا فإنَّ من يتابع، تحت المجهر، الخلية وتكوينها، وحركتها وانقسامها، يرى في أي أدوار عجيبة تمرُّ.. إنه يرى تطور الجنين داخل الرحم... ويتابع نموَّه وتحوُّره وتغيره إلى مراحل مختلفة.. من خلية ملقحة لا تُرى، إلى بعض خلايا انقسمت، إلى مضغة غير واضحة، كالعلق شكلاً تكون عالقةً بالرحم، ثم إلى شكل لا يمت إلى الإنسان بصلة.. ولكنَّ هذا الشكل يعود ويعتدل حتى يصير كائناً بشرياً.. ويأخذ العجبُ مَنْ يتابع خلْقَ هذا الكائن البشريّ في مراحله المختلفة، مما يراه، أثناء المرور في تلك المراحل، من مصادر تغذيته، وتنفسه،

وتخلّق أعضائه وأجهزته، حتى تكون له العين والأذن، والأنف والفم، والقلب والرئتان، والكليتان والكبد والأمعاء، واللحم والعظم، بل وسائر الأعضاء والأجهزة الأخرى العديدة..

ومما يستوقف المدقِّق، أن الأجنَّة وهي في الرحم تكون متشابهة، ثم يبدأ الاختلاف يظهر، فتحدد صورة كل مخلوق؛ فإذا بكل الملايين السابقة والحالية واللاحقة، لا يماثل أحدها الآخر، شكلاً ونفساً على الإطلاق، بل تظل هنالك فوارق كثيرة تنبىء عن شخصية كل فرد، خاصةً به، وتبقى سماتٌ مميزة له عن باقي أبناء جنسه... وفي سير حياة هذا الكائن البشري، تظهر أعظم الروائع في دقة الأنظمة المتعلقة بكيفية تنفسه، وكيفية أكله ومضغه وبلْعه، وكيفية هضمه وامتصاص غذائه، ثم إخراج فضلاته، وكيفية تدفئة جسده، والمقايضة عليها بوقود جديد كلما نفد... أما العظمة في الإحكام فتكمن في تدفق الدم في الشرايين والأوردة والأوعية الشعرية بواسطة القلب، حتى ليخال الإنسانُ أن هذا القلب مضخةٌ عجيبة، ذات بيوت مقسمة، وصمامات محكمة، تعمر دهراً كاملاً وهي تنبض بدورة دموية مستمرة، تذهب فيها الجداول الحمراء بالدم

النظيف المصفَّى إلى أقصى أطراف الجسد، وترجع الجداول الزرقاء به، مملوءة بالسواقط والنفايات والأشلاء لتقذفها في مصفاة، بل في محرقة هائلة (الرئتين) تنقّيه وتطهّره، وتحمّله الوقود الجديد، ليرجع إلى المضخّة التي تدفعه ثانية في الجسد، وهكذا دواليك، لتستمر الحياة طوال العمر لا تقف فيه لحظة واحدة...

وإنَّ التأمل لجدير أيضاً في تحويل الإنسان غذاءه في كبده، وفي تعديله وخزنه.. أما الغدد الهرمونية ذات الافرازات الكيماوية السريّة التي تتحكم بالأعصاب والعضلات والعظام والعقل والقلب والشرايين والجنس، فحدث عنها ولا حرج.. وليس أقل منها تلك الخلايا في جسم الإنسان التي لا ترى بالعين المجردة، والتي تزيد على الملايين، وكيف أنها تنتظم جماعات، لتصنع كل جماعة جانباً من الجسم، وكأنها تعرف الدور الذي يجب عليها أن تقوم به في رواية الحياة...

وهلاَّ تفكَّرنا بماهية العقل عند الكائن البشري، الذي حارت كل العقول، وما زالت حائرة، في أسراره؟... كيف يدرك، كيف يحفظ، كيف يختزن ملايين وملايين المعارف، وأين يختزنها، وكيف يستخرجها

من مخازنها عند الحاجة، وكيف يتذكر، وكيف يقارن، وكيف يعلِّل، وكيف يستنتج، وكيف يحكم؟!... بل وما هي المادة المخية الصغيرة المحتوية على أكثر من (١٢) مليون خلية تتصل إحداها بالأخرى بليف عصبي، ذي فروع لا تُعدُّ ولا تحصى، فتعمل بدقة عجيبة، وتناسق مدهش، كأنها خلية واحدة؟!...

والجهاز العصبي، والتنسيق الآلي الكيمياوي العصبي، إنهما أكبر من أن يحدُّهما وصف، في كل ما يقومان به لتسيير آلة الجسم، بل وكل عضو أو غدة أو خلية أو شعيرة في هذا الجسم...

تأملات وتأملات، في تكوين هذا الكائن البشري، وفي حياته البشرية والإنسانية، فهل أدركنا بأنَّ الغاية من هذه التأملات، هي الوصول إلى المعرفة اليقينية بأن الخلق لم يكن عبثاً؟!...

صفوة القول

إن الجولة في مسار الاكتشافات العلمية، التي قمنا بها، قد أثبتت أن الإنسان حقق كثيراً من الإنجازات العظيمة من خلال نظرته العميقة إلى الأشياء، والتي تمكن

بسببها من إعطاء أحكام عميقة على هذه الأشياء...

فالانجازات التي حققتها تلك النظرة العميقة إلى النبات لا يمكن أن تُعدَّ، فمنها على سبيل المثال:

- العقاقير والأدوية لحماية الصحة وتلافي الآلام.

- الصباغات الزاهية، والألوان المتنوعة والعديدة..

- إنتاج السكريات والنشويات وغيرها من المواد الغذائية.

- معرفة خصائص النباتات وأنواعها وأجناسها.

ومثل ذلك فيما يتعلق بالحيوانات، فقد مكّنت النظرة العميقة الانسان من معرفة ما طبعت عليه من غرائز وقدرات وخاصيات... كما مكّنته من معرقة حياة هذه الحيوانات، وبالتالي الإفادة منها في شتى الطرق إنْ بالنسبة للترفيه والتعرف عليها عن كثب بإقامة السيرك وبناء حديقة للحيوانات، وإنْ بالنسبة للتغذية، أو للزراعة والصناعة أو إجراء الاختبارات، أو للتعلُّم، في ميادين شتى كبناء الجسور، أو الغوص في البحار، أو الطيران في الهواء، إلى غير ذلك من الأساليب والوسائل التي يصعب على الإنسان حصرها.

أما أهمية الاكتشافات العلمية في الفضاء والكون، فتجلَّت نتائجُها بما قدَّمت للإنسان من معلومات وافرة عن طاقة الشمس والجاذبية، ومعرفة الأحوال الجوية، وتركيب الماء والهواء، والتي من خلالها أمكنه أن يهبط على سطح القمر، وأن يرسل مركبات إلى الكواكب السيارة، وأن يبث الأقمار الصناعية لنقل الصور والأصوات من شتى بقاع الأرض، مع ما في ذلك من تسهيل للمبادلات والمعاملات، وتقريب للمسافات، واختصار للوقت...

هذا فضلاً عما كشفت عنه الأبحاث الجيولوجية في باطن الأرض، أو في أعماق البحار والمحيطات، وما أعطت الإنسان من معارف حول التغيرات التي قد تطرأ على سطح الأرض وما يترتب عليها من نتائج تؤثر في سير الحياة...

وهكذا فإنه انطلاقاً من النظرة العميقة إلى الأشياء أمكننا أن نحقق منافع جمة وهامة جدّاً لشؤوننا الحياتية، وتسهيل تسيير هذه الشؤون، فضلاً عما عوّدتنا عليه، وقادتنا إليه من عمق التفكير المؤدي إلى سلامة التصور.

الإيمان بالله عن طريق الفكر المستنير

١ - الخلق والخالق
٢ - أصحاب العقول المنحرفة يحبون التعقيد
٣ - التغير يثبت أن العالم ليس أزليًا
٤ - الماديون أو ما قاله الشيوعيون .

الايمان بالله
عن طريق الفكر المستنير

إن الأشياء التي يُدركها العقل هي الإنسان والحياة والكون، وهذه الأشياء محدودة فهي إذن مخلوقة. فالإنسان محدود، لأنه ينمو في كل شيء إلى حدٍّ لا يتجاوزه، ومن هنا كانت محدوديته.. ولأن الإنسان جنس متمثل في كل فرد من أفراده، فكل فرد إنسان، ولا يوجد أي فرق بين فرد وفرد في الخواص الإنسانية. فما يصدق على فرد من الإنسان يصدق على الآخر، كأي جنس من الأجناس، مثل الذهب بين المعادن، والأسد في الحيوان، وحبَّة التفاح في جنسها من الفواكه.. وهكذا، فأي جنس ينطبق عليه كلٌّ ما ينطبق على كلٍّ فرد من أفراده. ولذا يشاهد أن الفرد من الإنسان أو الكائنات الحية يموت، وهذا يعني أن هذا الجنس محدود قطعاً. ومجرد التسليم بأن الإنسان يموت، معناه التسليم بأن الإنسان محدود.

والحياة محدودة لأن مظهرها فردي فقط، والمشاهد بالحس أنها تنتهي في الفرد فهي محدودة. والحياة في الإنسان هي عينُ الحياة في الحيوان، وهي ليست خارج هذا الفرد بل فيه، وهي شيء يُحَسُّ وإن كان لا يُلْمَس، ويُفَرَّق بالحسّ بين الحي والميت.

فهذا الشيء المحسوس، والذي هو موجود في الكائن الحي، والذي من مظاهره النموّ والحركة، هو ممثل كلياً وجزئياً في الفرد الواحد لا يرتبط بأي شيء غيره مطلقاً. وهو في كل فرد من أفراد الاحياء كالفرد الآخر سواء بسواء. فهو جنس متمثل بأفراد كالإنسان، وما دامت تنتهي هذه الحياة في الفرد الواحد فمعناه أن جنس الحياة ينتهي، فهي محدودة.

«والكون محدود لأنه مجموع أجرام، وكل جرم منها محدود، ومجموع المحدودات محدود بداهة. وذلك لأن كلَّ جُرم منها له أولٌ وله آخر، فمهما تعددت هذه الأجرام فإنها تظل تنتهي بمحدود. فالمحدودية محتَّمة للأجرام بدليل كونها لها أول ولها آخر، بل تثبت محدوديتها بمجرد وجود الأول. ولمجرد أن يقال في الشيء أو الكائن، أكثر

من واحد، تتحتّم حينئذ المحدودية، لأن الذي يزيد هو شيء محدود، فتكون الزيادة حاصلة، بمحدود لمحدود، ويكون الجمع محدوداً. وعليه فالكون محدود. وعلى ذلك فالإنسان والحياة والكون كلُّها محدودة قطعاً.

«وحين ننظر إلى المحدود نجده ليس أزليّاً، وإلا لما كان محدوداً. وقد ثبت أن المحدود له أول ولذلك لا يكون أزليّاً، لأن مدلول الأزلي أنه لا أولَ له، وما لا أولَ له لا آخِرَ له قطعاً، إذ إن وجود آخِرٍ يقتضي وجود أول، كما أن مجرد البدء لا يكون إلا من نقطة، وهذا يعني أن النهاية لا بد منها ما دام قد حصل البدء من نقطة، سواء أكان ذلك في الزمان أم المكان أم الأشياء الحادثة أم غير ذلك.

فالمحدود ليس أزليّاً. وكونُ الكون والحياة والإنسان محدودة معناه أنها ليست أزلية، وإلا لما كانت محدودة. وما دامت ليست أزلية فهي، إذاً، مخلوقة لغيرها.

فالكون والانسان والحياة لا بد أن تكون مخلوقة لغيرها. وهذا الغير هو خالقها، أي هو خالق الكون والحياة والإنسان. وعليه فإن العالم مخلوق لخالق، أزليٍّ هو الله تعالى.

وهنا يجب أن نلفت النظر إلى أمرين:

أحدهما: عندما نقول بأن الوجود لا يخرج عن خالق ومخلوق فهذا ليس أمراً فرضياً وإنما هو حقيقة قطعية. وقد تناول كلامُنا السابقُ الأشياء المدركة المحسوسة، وأقام البرهان الحسيَّ على أنها مخلوقة لخالق، فأدركنا إدراكاً حسيّاً وجود مخلوقات لخالق، وتوصلنا بالبرهان الحسي إلى هذا القول، فكان القول نتيجة البرهان وليس فرضاً. أي أننا لم نُقم الفرضية أولاً ثم رتَّبنا عليها البرهان حتى نحتاج إلى إثبات الفرضية ليصحَّ البرهان، وإنما وضعنا الأشياء المدركة المحسوسة موضع البحث، فلفتنا النظر إلى أنها موجودة قطعاً كما هو مشاهَد ملموس، وأقمنا البرهان على أنها محتاجة[1] قطعاً، وهذا يعني أنها محتاجة إلى من يوجِدُها، فهي مخلوقة.

وهذا يثبت وجود الخالق: لأن المخلوق إما أن يكون مخلوقاً لنفسه أو مخلوقاً لغيره ولا ثالث لهذين الفرضَين قطعاً. وهذا بالحقيقة ليس فرضاً وإنما الواقع

---

(١) مفهوم الاحتياج هنا معناه: عدم الاستغناء. وأما مفهوم الاشتراط الماركسي فمتعلق بعدم فصل الأشياء بعضها عن بعض.

المحسوس للمخلوق يدل عليه. أما كونه مخلوقاً لنفسه فباطل، لأنه يكون مخلوقاً لنفسه وخالقاً لنفسه في آن واحد وهذا غير معقول، فلا بد أن يكون مخلوقاً لغيره، وهذا الغير هو الخالق. وبهذا يَثبت وجود خالق..

ثانيهما: ما قيل عن كون الكون محدوداً وليس أزليّاً، فهذا القول ليس مبنيّاً على التعاريف وليس بحثاً لغويّاً، بل هو شرح لواقع محسوس. فليست المحدودية والأزلية اصطلاحاً وُضع له تعريف اصطلاحي، ولا مدلولاً لكلمة وُضع لها من اللغة لفظٌ يدل عليها، وإنما هما واقع معيَّن كالبحث في الفكر سواء بسواء. فنحن حين نقول إن الكون محدود إنما نُشير إلى واقع معيَّن وهو كونه «له بداية وله نهاية»، فالبحث كان في هذا الواقع وليس في كلمة محدود.

وكونه «له بداية وله نهاية» قد قام البرهان الحسي عليه، فيكون البرهان على واقع معيَّن لا على معنى الكلمة لغويّاً. أي أنه حين يقال إن الكون مجموع أجرام مهما تعدَّدت، فالكون يتكوَّن من هذه الأجرام، وكل جرم منها مهما بلغ عددها محدود، ومجموع المحدودات

محدود بداهة، فالكون محدود. حين يقال ذلك لا يقام البرهان على كلمة محدود، وإنما يقام البرهان على أن الكون له أول وله آخر، فهو يبتدىء من نقطة وينتهي إلى نقطة، ولذلك كان القول بالمحدودية للكون وإقامة البرهان عليه ليس مبنيّاً على تعاريف ولم يكن بحثاً لغوياً. بل هو بيان لواقع وإقامة برهان على واقع. وكذلك القول بأن الكون ليس أزليّاً، وأن الأشياء المدركة المحسوسة ليست أزلية، هو بيان لواقع، وإقامة برهان على واقع. وكذلك القول بأن هذا أزليٌّ ليس بياناً لكلمة الأزليّ بوصفها لفظة، بل هو بيان لواقع، وإقامة برهان على واقع، فهو بيان لما لا أولَ له، أي لما ليس له نقطة ابتدأ منها. . وهذا الواقع هو الأزلي.

فيكون واقع المحدود غير واقع الأزلي. وهذا هو معنى قولنا إن المحدود ليس أزليّاً، فيكون الكلام عن واقع لا عن مدلولِ كلمةٍ لغويّاً.

هذان هما أمران لا بد من لفت النظر إليهما عند دراسة البرهان على وجود الخالق عزَّ وعلا.

الخلق والخالق

قد يلجأ بعضهم إلى القول إن كون العالم مخلوقاً لا يعني أن هناك خالقاً، فإن كون الوجود كله لا يخرج عن خالق ومخلوق فرض نظري، فلا يصح أن يكون برهاناً على وجود الخالق. لذلك كان لا بد من بيان أن كون الوجود لا يخرج عن خالق ومخلوق ليس فرضية وإنما هو حقيقة قطعية.

وليس معنى هذا أن الخالق محسوس ملموس، بل وجود ما يدل على هذا الخالق هو المحسوس الملموس. والبرهان عليه في منتهى البساطة، وإن كان أيضاً في منتهى التعقيد. أما كونه في منتهى البساطة فإن الإنسان يحيا في الكون فهو يشاهِدُ في نفسه، وفي الحياة التي يحياها الأحياء، وفي كل شيء في الكون، تغيُّراً دائماً وانتقالاً من حال إلى حال، ويشاهِدُ وجودَ أشياء وانعدام أشياء، ويشاهِدُ دقةً وتنظيماً في كل ما يرى ويلمس، فيصل من هذا عن طريق الإدراك الحسي إلى أن هناك مدبِّراً لهذا التنظيم في الوجود المدرَك المحسوس. وهذا أمر طبيعي جدّاً، فإن الإنسان يسمع دويّاً، فيظن أنه دوي

طائرة أو سيارة أو مطحنة أو أي شيء. وهو - في كل حال - يوقن أنه دويٌّ ناتج عن شيء، فيوقن بوجود شيء خرج منه هذا الدويُّ، فكان وجود الشيء الذي نتج عنه الدويُّ أمراً قطعيّاً ما دام البرهان الحسيُّ قد قام عليه. وكذلك فإن الإنسان يشاهِدُ التغيُّر في الأشياء، ويشاهد انعدام بعضها ووجود غيرها، ويشاهد الدقة والتنظيم فيها، ويشاهِدُ أن كل ذلك ليس منها، وأنها عاجزة عن إيجاده وعاجزة عن دفعه، فيوقن أن هذا كله صادر عن غير هذه الأشياء، ويوقن بوجود خالق خلق هذه الأشياء فهو الذي يغيِّرها ويُعدمها ويُنظِّمها، فكان وجود هذا الخالق الذي دل عليه وجودُ الأشياء وتغيُّرها وتنظيمُها أمراً قطعيّاً عند مَن شاهد تغيُّرَها ووجودَها وانعدامَها ودقةَ تنظيمها. وقد قام البرهان الحسيُّ بالحس المباشِر على وجوده، وهو برهان في منتهى البساطة. فيكون الاعتقاد بوجود خالق لهذه الأشياء المخلوقة - والتي تُعدم وتتغيَّر ولا تملك إيجاد ذلك لها ولا دفعَه عنها - اعتقاداً جازماً قام البرهان القطعيُّ عليه. ولذلك كان من الطبيعي جدّاً أن مَن يشاهد الأشياء المدرَكة المحسوسة وما يحصل لها وفيها - مما لا تستطيع هي إيجاده لها ولا دفعه عنها - أن يصل من هذه المشاهدة

عن طريق الإدراك الحسيّ إلى أن هناك موجداً لهـذا الوجود المدرَك المحسوس.

وقد جاءت أكثر براهين القرآن الكريم لافتةً النظرَ إلى ما يقع عليه حِسُّ الإنسان للاستدلال بذلك على وجود الخالق ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾(١)، ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾(٢)، ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾(٣) ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾(٤) ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾(٥)، ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا

(١) الغاشية: ١٧ ـ ١٩.
(٢) الطارق ٥ ـ ٧.
(٣) الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩.
(٤) الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤.
(٥) الواقعة: ٧١ ـ ٧٢.

﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[1].

فهذه براهين قاطعة على وجود الخالق. فلينظر الإنسان إلى كيفية خلق الإبل، ورفع السماء، ونَصب الجبال على أديم هذه الأرض السابحة في الفضاء، ليُدرك وجودَ الله. ولذلك فإن تيتوف رائدَ الفضاء الروسيَّ حين قام برحلته الفضائية حول الأرض قال إنه رأى الأرض في الفضاء لا يمسكها شيء، لا من فوقها ولا من تحتها ولا عن جوانبها، فهي قائمة بنفسها هكذا في الفضاء دون أن يمسكها شيء، وإنه تذكَّر ما تقولُه الدِّيانات. أي أنه استدل من هذه المشاهدة أنه لا يمكن للأرض أن تبقى هكذا في الفضاء لا يُمسكها شيء، وهو يدور حولها ولا يجد شيئاً يمسكها ومع ذلك فهي قائمة لا تسقط، فاستدل من ذلك على أنه لا بد من شيء يُمسكها ويمنعها من السقوط. ولكنه قد هزمه الشيطانُ حين أتمَّ كلامه بأنه لم يرَ الله أثناء رحلته!! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ

---

(1) البقرة: ١٦٤.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾[1]. أيْ أنـه لا يُمْسِكُهما أحـدٌ غيـرُه جلَّ وعلا. فهذا برهان حسي بالنسبة للأرض شاهده تيتوف، وكل رواد الفضاء غيره، وهو من أصدق البراهين مع كونه في منتهى البساطة. ومنه كذلك سؤال الإنسان عن خلقه من الماء الدَّافق، ومنه سؤال الناس عمَّا يُمنون وعما يَحرقون وعما يُوقِدون، فمن الذي خَلق الأولادَ من هذا الذي يُمْنُون، والزرعَ من هذا الذي يزرعون، والشجر من هذا الذي يغرسون؟ فجوابهم القطعيُّ أنهم ليسـوا هم الموجِدين بل إن لها خالقاً خلقها غيرهم هو الله سبحانه وتعالى. ومنه ـ أي من البرهان الحسي ـ لفتُ نظرِ العقول إلى خلق السموات والأرض، وإلى اختلاف الليل والنهار، وإلى الفُلْكِ التي تَجري في البحر، وإلى المطَر، وإلى ما بثَّ في الأرض من كل دابَّة، وإلى تصريفِ الرياح، وإلى السحاب، لتدرك العقول من هذه المحسوسات أن هناك خالقاً. فوجود الخالق تعالى ثابت بهذه البراهين القاطعة المحسوسة الملموسة.

---

(١) فاطر: ٤١.

أصحاب العقول المنحرفة يحبون التعقيد

وأما كون البرهان على وجـود الخالق في منتهى التعقيد فذلك أن هناك أناساً من البشر يأبَون البساطـة ويعقِّدون على أنفسهم الأمورَ فيبحثـون في هذا الأمـر البسيط بشكل معقَّد، فيصلون إلى أشياء جديدة تُعمي عليهم الأمور.

مِنْ ذلك أن بعض الناس في العصر القديم رأوا أن العالم متغيِّر بالمشاهدة والحس، وهذا أمر لا يستطيع أحدٌ إنكارَه، وهو يعني أن العالم حادث لأن كلَّ متغيِّر حادث، وما دام حادثاً فهو مخلوق، أي أنه وُجِدَ بعد أن لم يكن، ولكنهم رأوا أن تغيُّره إنما هو في أجزائه التي يتكوَّن منها. أما هو ككلٍّ فرأوه كما هو، فالكواكب لا تزال كما هي كواكب لم تتغيَّر، والحياة لا تزال في الأحياء هي الحياة لم تتغيَّر، والإنسان لا يزال هو الإنسان لم يتغيَّر، فتوصَّلوا من ذلك إلى أن العالم ليس حادثاً، وإنما هو قديم أزليٌّ لا أول له فهو إذن ليس مخلوقاً لخالق، فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً.

ومن ذلك أن بعض الناس في العصر الحديث رأوا

أن حوادث العالم متبدلة متغيرة كما يشاهَدُ ذلك بالحس، فهي تنتقل من حال إلى حال، ونقلُها هذا من حال إلى حال، وجعلُها في حركة دائمة، ليس ناتجاً منها، فإنها بذاتها ومفردها لا تستطيع ذلك ولا تملك دفعه عنها. وكان بديهياً أن يتوصلوا بذلك إلى وجود قدرة تنقلها من حال إلى حال وتحرِّكها، أي أن يتوصَّلوا إلى معرفة وجود خالق للعالم، ولكنهم توصلوا إلى عكس ذلك تماماً، إذ قالوا: إن العالم بطبيعته مادي، وإن حوادث العالم المتعدِّدة هي مظاهر مختلفة للمادة المتحركة، وإن العلاقات المتبادَلة بين الحوادث، وتكييف بعضها بعضاً بصورة متبادلة، هي قوانينُ ضرورية لتطوُّر المادة المتحرِّكة، وإن العالم يتطوَّر تبعاً لقوانين حركة المادة، فليس بحاجة إلى خالق يخلقه، لأنه مستغنٍ بنفسه.

ومن هذا يتبيَّن أنه، في القديم والحديث، لم يأت إنكار وجود الخالق طبيعيّاً. وإنما جاء مبنيّاً على مخالفةٍ للأمرِ الطبيعي، بتفسيرِ ما يُلْزِمُ بالاعتراف بوجود الخالق تفسيراً مغلوطاً يؤدي إلى إنكار وجوده. فبالنسبة للقديم نجد أن تغيُّر العالم أمرٌ لا يمكن انكاره، والتغيُّر ليس في أجزائه فحسب بل فيه أيضاً ككل. غير أن التغيُّر لا يَعني

أن حقيقته قد تغيَّرت، وإنما وضعُه هو الذي يكون في تغيُّرٍ دائم، فالبرتقالةُ ونبتةُ الزرع والحجرُ والحديدُ والإنسانُ والحيوانُ وغيرُ ذلك تتغيَّر من حال إلى حال بالمشاهدة، ولكن تغيُّرها لا يَعني أن البرتقالة تصبح حجراً والحجر يصبح حديداً والحديد يصبح نبتة زرع. . وهكذا. . . وإنما التغيُّر يكون بالصِّفات ويكون بالأحوال، وأما التغيّر من شيء إلى شيء آخر فهو تبدُّل، والتبدُّلُ ليس هو البرهان، وإنما البرهان هو وجود التغيُّر. وبناء على هذا ليس صحيحاً أن العالم ككل لم يتغير، وليس صحيحاً أن الكواكب لا تزال كما هي لم تتغير، وليس صحيحاً أن الإنسان كما هو لم يتغيَّر، وليس صحيحاً أن الحياة كما هي لم تتغير. فالعالم في مجموعه بكل ما فيه من كون وإنسان وحياة يتغيَّر، فالكواكب متغيِّرة بالمشاهدة ومجرد حركتها هو تغيُّر، والإنسان متغيِّر بالمشاهدة وانتقاله من طفل إلى شاب إلى هرم هو تغير، والحياة متغيِّرة بالمشاهدة، وكونُها تظهر في الإنسان والحيوان والنبتة والشجرة دليل على وجود التغيُّر فيها، فهي متغيرة حتماً، وبذلك يُنقَض ما ذهبوا إليه من أن العالم ليس حادثاً لأنه متغيِّر ككل وكأجزاء بل هو دائم التغير. وكل متغير حادث، فالعالم حادث، وإذاً فهو ليس

أزليّاً، وما دام ليس أزليّاً فهو مخلوق لخالق لأن غير الأزليِّ مخلوق.

التغير يثبت أن العالم ليس أزليّاً

إن كون العالم ليس أزليّاً يكفي لإثباته ما يشاهَدُ فيه من ربيع وصيف وشتاء وخريف، ومن تلبد غيوم وصفاء أجواء، ومن برق ورعود وريح عاصف ونسيم عليل، ومن موت وحياة، ومن انتقال الحبة إلى زرع فإلى هشيم، والغرسة إلى شجرة فإلى خشب وحُطام، والماء إلى بخار أو جليد، ومن انتقال النُّطفة إلى جنين فإلى طفل فإلى شاب فإلى شيخ هرم، إلى غير ذلك مما يحدث في العالم ككل، وما يحدث في كل جزء من أجزائه.

إن هذا كافٍ للبرهان على أن العالم حادث بوصفهِ كلًّا، وأنه حادث بكل جزء من أجزائه. وكونه حادثاً يَعني أنه ليس أزليّاً، أي أن له أولاً قد ابتدأ منه، وهذا يعني أنه مخلوق لخالق. فكونه له ابتداء معناه أنه كان معدوماً وَوُجد. وكونه قد وُجد من عدم يحتِّم أن له موجِداً أوجده. وهذا كاف لإثبات وجود الخالق، لأن وجود

مخلوق لم يوجِدْ نفسه يَعني حتماً وجود خالق أوجده من العدم، وبذلك يُنقض ما ذهب إليه بعض الناس في العصر القديم من أن العالم أزليٌّ قديم، ويَثبت أن العالم مخلوقٌ لخالق، وبذلك يثبت وجود الخالق جل وعلا.

ما قاله الشيوعيون

وأما بالنسبة لما قال به الماديّون في العصر الحديث فإننا نجد أن موضع الإنكار عندهم هو أنهم يقولون إن العلاقات المتبادلة بين الحوادث، وتكييف بعضها بعضاً بصورة متقابلة، هي قوانينُ ضرورية لتطوُّر المادة المتحرِّكة، وأن العالم يتطور تبعاً لقوانين حركة المادة. هذا هو موضع إنكار وجود الخالق عندهم. فالتعقيد جاءهم من تفسير ما في العالم من تغيُّرٍ وانتقالٍ من حال إلى حال، وما فيه من وجود بعض الأشياء بعد أن لم تكن، وانعدام بعض الأشياء بعد أن كانت». أو على حدِّ تعبيرهم من تشكُّل المادة بأشكالٍ مختلفة، ومن تفسير ذلك بأنه إنما يحدث من قوانين المادة وليس من شيء غيرها، فقوانين حركة المادة هي التي تؤثِّر في العالم، وهو يتطور تبعاً لقوانين حركة المادة.

هذا هو موضع الإنكار، ولذلك كان المطلوب حلَّ هذه العقدة عندهم، أي أن يكون محلُّ البحث هو قوانين المادة وليس تغيُّر العالم.

فإذا ثبتَ أن هذه القوانين لم تأت من المادة، ولا هي خاصَّة من خواصّها، وإنما هي مفروضة على المادة فرضاً من غيرها ومن خارجها، فإنه يكون هناك غير المادة ممَّا يؤثر فيها، وبذلك تبطُل نظريتهم وتُحل العقدة عندهم، إذ لا يكون العالم سائراً تبعاً لقوانين حركة المادة، بل هو سائرٌ بتسيير مَن أُوجد له هذه القوانين وفرضها عليه فرضاً، وسخَّره ليسير بحسبها.

أما كون هذه القوانين لم تأت من المادة فلأن القوانين هي عبارة عن جعل المادة في نسبة معيَّنة أو وضع معيَّن، فالماء حتى يتحول إلى بخار أو إلى جليد إنما يتحول حسب قوانين معيَّنة، أي حسب نسبةٍ معيَّنة من الحرارة. فإن حرارة الماء ليس لها في بادىء الأمر تأثير في حالته من حيث هو سائل، لكن إذا زيدت أو أُنقصت حرارة الماء، جاء لحظة، تعدَّلت فيها حالة التماسك التي هو فيها، وتحوَّل الماء إلى بخار في حالةٍ، وإلى جليد في

حالة أخرى. فهذه النسبة المعيَّنة من الحرارة هي القانون الذي بحسبه يجري تحوُّل الماء إلى بخار أو إلى جليد، وهذه النسبة، أي كون الحرارة بمقدار معيَّن لمقدار معيَّن من الماء لم تأتِ من الماء، لأنه لو كانت منه لكان بإمكانه أن يغيِّرها وأن يخرج عنها، لكن الواقع أنه لا يستطيع تغييرها ولا الخروج عنها، وإنما هي مفروضة عليه فرضاً فدل ذلك على أنها ليست منه قطعاً، وكذلك لم تأتِ من الحرارة، بدليل أنها لا تستطيع أن تغيِّر هذه النسبة أو أن تخرج عنها، بل إنها مفروضة عليها فرضاً، فهي ليست منها قطعاً فتكون هذه القوانين ليست من المادة.

وأما كون هذه القوانين ليست خاصِّية من خواص المادة، فلأن القوانين ليست أثراً من أثار المادة الناتجة عنها حتى يقال إنها من خواصِّها، وإنما هي شيءٌ مفروض عليها من خارجها. ففي تحوُّل الماء ليست القوانين فيه من خواص الماء ولا من خواص الحرارة، لأن القانون ليس تحوُّل الماء إلى بخار أو إلى جليد، بل القانون تحوله بنسبة معيَّنة من الحرارة لنسبة معيَّنة من الماء. فالموضوع ليس التحوُّل، وإنما هو التحوُّل بنسبة معيَّنة من الحرارة لنسبة معيَّنة من الماء، فهو ليس كالرؤية في العين

من خواصها، بل هو كون الرؤية لا تكون إلا بوضع مخصوص. هذا هو القانون. فكونُ العين ترى خاصية من خواصها، ولكن كونها لا ترى إلا في وضع مخصوص ليس خاصية من خواصها وإنما هو أمر خارج عنها، وكذلك النار فإنّ من خواصها الإحراق، ولكن كونها لا تحرق إلا بأحوال مخصوصة ليس خاصية من خواصها بل هو أمر خارج عنها. فخاصية الشيء هي غيرُ القوانين التي تسيِّره، إذ الخاصية هي ما يعطيه الشيء نفسه وينتج عنه كالرؤية في العين وكالإحراق في النار وما شاكل ذلك. ولكن القوانين التي تسيِّر الأشياء هي كون الرؤية لا تحصل من العين إلا بأحوال مخصوصة، وكون الإحراق لا يحصل من النار إلا بأحوال مخصوصة، وكون الماء لا يتحوَّل إلى بخار أو جليد إلا بأحوال مخصوصة وهكذا...

وبهذا ثبت أن هذه القوانين ليست من المادة ولا هي خاصِّية من خواصِّها، بل هي آتية من غيرها ومفروضة عليها فرضاً من خارجها، وبذلك يَثبت أن غيرَ المادة هو الذي يؤثِّر فيها، وبذلك يَثبت بطلانُ نظرية الشيوعيين، لأنه ثبتَ أن العالم ليس سائراً تبعاً لقوانين حركة المادة، بل هو سائر بتسيير مَن أوجد هذه القوانين وفرضها عليه

فرضاً، وهو بحاجة لمن وضع له هذه القوانين وفرضها عليه. وما دام بحاجة إلى مَن فرض عليه هـذه القـوانين فهو ـ أي العالم ـ ليس أزليّاً، وما دام ليس أزليّـاً فهو مخلوق. ذاك أن كونَه ليس أزليّاً يَعني أنه وُجِدَ بعد أنْ لم يكن، فهو مخلوق لخالق. ومجرّدُ ثبوت وجود المخلوقات لخالق يَثبت وجود الخالق.

هذه هي البراهين لأولئك الذين عقّدوا الأمور على أنفسهم فتعقدت نظرتهم إلى العالم، وهي براهين مُسكتة كافية لَنقضِ نظريتهم وإثبات حقيقة وجود الله سبحانه.. تَعَالَى الله عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبيراً..

التطوّر والارتقاء

١ ـ الديالكتيك
٢ ـ المادية الديالكتيكية والاشتراكية الماركسية
٣ ـ البحث في الفكر
٤ ـ البحث في الطبيعة

نظرية التطور والارتقاء

وهيَ النظرية التي تبنّـاها داروين، وتقـول: «إن الإنسان من سلالةِ القرودِ أوْ على الأقلّ من سلالةِ حيوانٍ شبيهٍ بالقردِ. ومنذُ مليونِ سنةٍ بدأتْ إحدى سلالاتِ القردةِ تتطوّر تطوّراً بطيئاً وئيداً، انتهى بإنجابِ (الإنسان الشبيه بالقردِ) الذي ظَهَرَ منذُ نحو (مائتي ألف سنة) وامتازَ عنْ أجـدادِهِ بقدْرتِـهِ على التفكير والابتكـارِ، وعلى النـطقِ والكلامِ، وعلى المشي مُنْتصباً على قدميهِ. وبناءُ القرودِ العُليا يُشبِه بناء الإنسانِ، في كثيرٍ منَ الأمورِ التشريحيّةِ».

هيَ استنتاجاتٌ وافتراضات استخلصوها من خلالِ مشاهدتهم للحفريّات والتجاربِ التي أجروها. وهي نظرية غير صحيحة يردها الواقع الذي أخبر الله تعالى به عن خلق آدم أبي البشرية الذي خلقه من تراب ثم نفخ فيه

الروح فصار إنساناً حياً عاقلاً مدركاً، وعلمه الله أسماء الأشياء وألهمه معرفة الأعمال والنطق وغير ذلك.

وهـذا يعودُ لعـدم تمييزهم بينَ الـطريقةِ العلميّـةِ والـطريقةِ العقليّـةِ. فكانَ الخـطأ أنهم بنـوا نـظريـاتهم وأحكامهم، وأخيراً عقائدهم، على أساسٍ من الطريقة العلميّةِ وَحْدَهـا، التي تقوم على المـلاحظة والتجـربة والاستنتاج.

١ ـ الدّيالكتيك والتطور

الديالكتيك: كلمةٌ مأخوذةٌ من الكلِمَـةِ اليونـانيّةِ، (ديالیغو) ومعناها «المحادثةُ والمجادلةُ والحوارُ».

والتطوّرُ لغة: التحوّلُ من طورٍ إلى طورٍ، أو من حالٍ إلى حال. قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾[1] أي خلقكم طوراً نطفةً، وطوراً علقةً، إلى آخرِهِ.

وكانَ الديالكتيك يعني في عهدِ الأولينَ، الوصولَ إلى الحقيقةِ، باكتشافِ المُتناقضاتِ التي يتضمّنها استدلال الخَصْمِ، وكـانَ بعضُ الفـلاسفـةِ الأولينَ يعتبـرونَ أنَّ

---

(١) نوح: ١٤.

اكتشافَ تناقضاتِ الفكرِ، والمُصادمَةَ بينَ الآراءِ، همَا خَيرُ وسيلةٍ لاكتشافِ الحقيقةِ.

أما الفلاسفة المحدثون فإنهم يقولون إنَّ العـالَمَ بطبيعته ماديّ، وإنّ حوادثَ العالمِ المُتعدِّدَةَ هي مظاهرُ مختلفة للمادّةِ المُتحرّكة. والعلاقاتُ المتبادلةُ بينَ الحوادثِ وتكييفُ بعضها بعضاً، كما تُقرّرُ الطريقةُ الديالكتيكيّةُ، هي قوانينُ ضروريةٌ لتطوّرِ المادّةِ المُتحركَةِ، والعالمُ يتطوّرُ تبعاً لقوانينِ حركةِ المادّةِ، ولا يحتاج إلى خالق.

ولمّا أنكروا وجودَ خالقٍ مدبّرٍ، لهذه الحياةِ على اختلافِ مظاهرها، بدأوا بالتكهن القائِلِ: «فمن المحتملِ أنَّ أولى الكائناتِ الحيّةِ التي عاشتْ على الأرْضِ كانتْ عبارةً عن جزئيات بسيطةٍ من مادّةِ البروتين»، وهي المادّةُ الأساسيّةُ في تكوينِ أجسامِ الكائناتِ الحيّةِ كافّةً.

ثمّ أخذوا يتساءلونَ: «أليسَ منَ الممكنِ أنْ تكونَ جرثومةُ الحياةِ الأولى قد وصلتْ إلى عالمنا الأرضيّ مِن بعضِ الأجْرامِ الفلكيّةِ البعيدة؟» فاللورد كالفني الإنكليزيّ المَشهور قالَ: «يُحْتَمَلُ كثيراً أنْ تكونَ الحياة قد وصلتْ إلى عالمنا الأرضي منْ عوالمَ أخرى» ومثل هذا القولِ،

من مثلِ هذا الإنسان المشهور، لم يَدَعْ أيّ لبس عند أيّ مفكر بأنّ كلّ ما وضعوهُ وركزوا عليهِ سيرَهُم في حياتهم الدنيا منْ عقائدَ وآراء ومفاهيمَ، كانَ احتمالاتٍ وتكهّناتٍ فقطْ، ولا أساس له في الواقع.

٢ ـ المادية الديالكتيكية والاشتراكية الماركسية

الاشتراكية الماركسية كانت في أول النصف الثاني من القرن التاسع عشر ـ أيام حياة كارل ماركس الذي توفي سنة ١٨٨٣ م ـ مجـرَّد فكرة فلسفيـة عن الحياة. ولكنّها اليوم ـ في آخر النصف الثاني من القرن العشرين ـ تحتلُّ وجوداً ضخماً في العالم، وتقوم على أساسها دولة كبرى هي روسيا، وإلى جانبها عدةُ دول تعد بمئـات الملايين من البشر تحاول السير في تطبيق هذه الاشتراكية الماركسية، ثم لها دَعاية عالمية واسعة، وأتباعٌ منتشرون، حتى أنه لا تكاد توجد دولة تخلو من اشتراكيين ماركسيين.

وفي البلاد الإسلامية كلها لها دعاةٌ ومحبِّذون، ولا سيمـا في أندونيسيـا والهند، فقـد استهوت الاشتـراكية الشعبَ فكرياً، واتّخذها النزرُ القليل عقائدياً، وأكثرهم ـ للأسف ـ من أبناء المسلمين. فكان لا بد من النقاش مع

هذه الاشتراكية المدَّعاة، ولا بد من الوقوف معها في عروضٍ علمية، لنكشف فيها عن وجه الحق، ولنعرض إلى صواب الرأي، باحثين بعمق وتوضيح، ومناقشين بهدوءٍ وصدق، حتى تنجليَ الحقائقُ ويبرزَ زيفُ الباطل، آملين من محبِّذي ومعتنقي هذه الفكرة البالغة الخطر على الإنسان، أن يبصروا النور، ويثوبوا إلى الحق، ويسيروا في طريق الهدى، ويدركوا مدى ما كانوا فيه من ضلال ما بعده ضلال، وليروا أن واجبهم الحقَّ كان ينبغي أن يكون حربَ هذا الكفر والإلحاد.

فالاشتراكية الماركسية ـ بحقيقتها ـ عقيدة إلحادية يقبلها من كان يعيش في فراغ من العقيدة، لأن فيها قابلية التطبيق لما فيها من أحكام وضعوها لمعالجة مشاكل الحياة، بشكل مثاليّ، كما يزعمُ دعاتها.

وهي أيضاً فكرة وطريقة، أي عقيدة لها أحكام لمعالجة مشاكل الحياة، تبين كيفية تنفيذ العقيدة، وكيفية تنفيذ معالجات الحياة. ولذلك كانت فيها قابلية جمع رأي عام من حولها، لما فيها من تزيين القول، ودغدغة آمال الفقراء والمساكين، وضِعافِ الحال.

ومن هنا كان خطرها أفظع من خطر الرأسمالية.

غير أن القول بوجود رأي عام لها، والقول بإمكانية تطبيقها، لا يعنيان أنها صحيحة، بل هي، في الحقيقة، مبدأ باطل في فكرته وطريقته. ولأجل إدراك ذلك إدراكاً كامل الوضوح، لا بد من إعطاء صورة واضحة عن واقع هذه الاشتراكية الماركسية كما وردت في الكتب الاشتراكية والشيوعية أولاً، ثم نقضها من أساسها بالنقاش العلميّ والبرهان الساطع ثانياً.

تقوم الفكرة الاشتراكية الماركسية على ما يسمى: بالمادية الديالكتيكية، والمادية التاريخية.

أما المادية الديالكتيكية فقد سميت كذلك لأنها تقوم على الأسلوب الجدلي في النظر إلى حوادث الطبيعة، أي أن طريقتها في البحث والمعرفة هي اكتشاف تناقضات الفكر والمصادمة بين الآراء بالنقاش، فهي جدلية. ولأن تعليلها لحوادث الطبيعة وتصوُّرها لهذه الحوادث ماديّ فقد كانت نظرتها إلى الكون والكائنات مادية بحتة، ولذلك جمعت الوصفين: المادية والديالكتيكية.

وأما المادية التاريخية، فهي توسع نطاق أفكار المادية الديالكتيكية حتى تشمل دراسة الحياة في

المجتمع، وتطبق هذه الأفكار على حوادث الحياة في المجتمع، أي أنها تطبِّق أفكار المادية الديالكتيكية على درس المجتمع ودرس تاريخ المجتمع.

وتقوم المادية الديالكتيكية على أن الحياة والإنسان والكون مادةٌ تتطور من نفسها تطوراً ذاتياً. وفي نظر أصحابها أنه لا يوجد خالق ولا مخلوق، وإنما التطور الذاتي في المادة هو الذي أوجد الكون والكائنات.

تلك هي النظرية المادية، التي قال بها كارل ماركس. وهو يفصّل قواعد نظريته هذه بشكل جدَلي، ولذلك سمِّيت بالـ «ديالكتيكية». والأساس الذي تقوم عليه هو أن اكتشاف تناقضات الفكر والمصادمة بين الآراء، هما خير وسيلة لاكتشاف الحقيقة. وعندما طبق هذا الأسلوب الديالكتيكي في التفكير فيما بعد على حوادث الطبيعة، أصبح هو الطريقة الديالكتيكية لمعرفة الطبيعة.. وبما أن حوادث الطبيعة تبدو دائماً متحركة ومتغيرة، فقد اعتَبرت هذه الفلسفةُ تطور الطبيعة ونتيجة تطوُّرِ تناقضاتها، نتيجةً للفعل المتبادل بين القوى المتضادة في الطبيعة.

وعلى هذا الأساس تقول المادية الديالكتيكية: إن

العالم يتطوَّر تبعاً لقوانين حركة المادة، وإنه ليس بحاجة لأيٍّ عقلٍ كلّي، وإنه واحد لم يخلقه إلّه!

إن تلك الفلسفة وكل ما تقوم عليه باطل قطعاً. . فكونُ الأشياء المدرَكة المحسوسة موجودةً أمرٌ قطعيّ، لأنها مشاهدة بالحس. وكونُ هذه الأشياء المدرَكة المحسوسة محتاجةً إلى غيرها، أي لها وصف الاحتياج أمرٌ قطعيّ أيضاً، لأنها بالمشاهدة لا تستطيع التصرُّف والانتقال من حال إلى حال إلّا بسبب خارج عنها، أو بشيء غيرها.

فالنار تُحرق أية مادة أخرى إذا كان في هذه المادة قابلية الاحتراق، وإذا لم تكن فيها قابلية الاحتراق لا تحرقها النار مع وجود خاصية الإحراق في النار.

وبعض الأحماض تذيب بعض العناصر ولا تذيب غيرها.

وبعض العناصر تتَّحد مع عناصر أخرى وتتفاعل معها ولا تتفاعل مع غيرها.

فالنار لا تستطيع الإحراق إلّا بوجود المادة القابلة للاحتراق. وهي من أجل أن تُحرق محتاجة إلى المادة القابلة للاحتراق.

والأحماض لا تستطيع أن تذيب إلاّ عناصر معينة فيها قابلية الذوبان، فهي محتاجة إلى العناصر التي فيها قابلية الذوبان حتى تستطيع الاتحاد والتفاعل بوجود تلك العناصر القابلة للتفاعل والاتحاد. ولا يقال لشيءٍ إنه محتاج إلى ما هو فيه، بل يكون محتاجاً حين يفتقر إلى زيادة كمية على ما هو فيه، ومن ثم فهو محتاج إلى من يوجد له هذه الكمية، أي أنه يكون محتاجاً له، ومفتقراً إليه..

وهذا دليلٌ قطعيٌّ على أن الأشياء المدرَكة المحسوسة محتاجة إلى غيرها، أي لها وصف الاحتياج.

والطريقة الديالكتيكية الماركسية من حيث هي، تأخذ ناحيتين في البحث:

إحداهما: ناحية البحث في الفكر.

والثانية: ناحية البحث في الطبيعة.

٣ ـ البحث في الفكر

يرى الماركسيون أن الفكر هو: انعكاس الواقع على الدماغ.

أي أن القضية في نظرهم هي قضية واقع، وليست قضية فكر. ويفسرون ذلك بالقول إن الواقع موجود أولاً، وهذا الواقع عندما ينعكس على الدماغ يولد الفكر.

هذا في نظر ماركس، بينما هيغل يناقضه في الرأي، عندما يعتبر بأن الفكر هو الذي يولّد الواقع. وفي هذا يقول ماركس: «إن طريقتي في التفكير لا تتفق مع الطريقة الهيغلية من حيث الأساس فحسب، بل هي ضدها تماماً. فحركة الفكر هي في نظر هيغل التي توجد الواقع وتصنعه، باعتبار أن الواقع ما هو إلا الشكل الحادثي للفكرة. أما في نظري فعلى العكس، إذ ليست حركة الفكر سوى انعكاس الحركة الواقعية منقولة إلى دماغ الإنسان ومستقرة فيه»..

هذا ما يقول به هيغل وكارل ماركس، أما ما يقول به الشيوعيون المحدثون فكل شيء يقوم على المادة. فالمادة هي الأصل للإحساس، وهي الأصل للتصورات، وهي الأصل للفكر، أي أنها منبع هذه الأمور الثلاثة. وفي هذا الصدد يقول أنجلز: «إن مسألة علاقة الفكر بالكائن، وعلاقة العقل بالطبيعة، هي المسألة العليا في كل فلسفة.

وكان الفلاسفة تبعاً لإجابتهم على هذه المسألة ينقسمون إلى معسكرين كبيرين: فالذين يؤكدون تقدم العقل على الطبيعة يؤلفون معسكر المثالية، والآخرون الذين كانوا يقررون تقدم الطبيعة ينتمون إلى مختلف المدارس المادية».

ويقول أنجلز أيضاً: «إن العالم المادي الذي تدركه حواسنا، والذي ننتمي إليه، هو الواقع الوحيد. أما إدراكنا وفكرنا فهما، مهما ظهرا رفيعين ساميين، فليسا سوى نتاج عضو مادي جسدي هو الدماغ. وإن المادة ليست من نتاج العقل، بل إن العقل ليس سوى نتاج المادة الأعلى».

ويقول لينين: «إن الإدراك ليس إلا انعكاس للكائن المادي الموضوعي، وهو في أحسن الحالات انعكاس صحيح تقريباً».

ويقول فيما بعد: «المادة هي ما ينتج الإحساسات بالتأثير في أعضاء حواسنا... والمادة هي واقع موضوعي تعطينا إياه الإحساسات... والمادة والطبيعة والكائن والموجود الفيزيائي هي العنصر الأول... بينما العقل والإدراك والإحساسات والموجود النفسي هي العنصر الثاني»...

هذه هي الناحية الأولى في الطريقة الديالكتيكية، وهي أن كل شيء مبني على المادة، وأن المادة والطبيعة والكائن والموجود الفيزيائي هي العنصر الأول، بينما العقل والإدراك والإحساسات والموجود النفسي هي العنصر الثاني.

ونحن لا يمكن أن نقرّ بصحة ما تقوم عليه الفلسفة المادية، لأن من المقطوع به أنه لا يمكن أن يحصل فكر إلا بوجود معلومات سابقة يمكن بواسطتها تفسير الواقع. لأن التعريف الصحيح للفكر هو: أنه نقل الواقع بواسطة الإحساس إلى الدماغ، وعقله بواسطة معلومات سابقة تفسّر هذا الواقع.

فالواقع وحده لا يمكن أن يحصل من الإحساس به أي فكر، وإن كان يمكن أن يحصل به إدراك شعوري يتعلق بالغرائز، وأن يحصل به استرجاع للحس، وأن تحصل به معرفة بما أُحسَّ به. أما أن يحصل حكم عليه، أي أن يحصل فكر، فلا يمكن ذلك مطلقاً.

ولا يَرِدُ هنا أن الواقع قبلَ الفكر، أو أن الفكر قبل الواقع، لأن البحث ليس مقصوداً فيه أيٌّ يسبق منهما

غيرَه. وإنما البحث محصورٌ في تعريف الفكر ما هو، فلا دخل للقبْلية والبَعْدية فيه. وإذا قيل إن الفكر موجود قبل الواقع، وإن الفكر هو خالقُ الواقع وصانعُه كما يقول هيغل، فإن ذلك خطأ، لأن الفكر هو الحكم على الواقع بما فيه، ولا يتأتى إصدار الحكم إلاّ على موجود حين الإصدار، فلا بد أن يكون الواقع موجوداً حين التفكير فيه.

فالواقع إذن ليس من خلقِ الفكر ولا من صُنعِه، بل كان موجوداً عندما وُجِدَ الفكر، أي عند التفكير به. ولا يتأتى وجود فكر إلا إذا كان واقعه موجوداً حين وجوده. وما لا واقع له ليس فكراً مطلقاً، وإنما هو تخيلات وتخريف. اما قول هيغل بأنّ الخالق للواقع، الموجد له من العدم، موجود قبل الواقع فصحيح، لأن الواقع حادث والخالق أزليّ، فالخالق موجود قبل الواقع حتماً.

والظاهر أنه - أي هيغل - لم يقصد ذلك، وإنما قصد من الفكر التفكير ولذلك كان قوله خطأ. ومثلُه القولَ: إن الواقع قبل الفكر، وإن العقل ليس سوى نتاج المادة الأعلى، كما يقول أنجلز، فإن ذلك أيضاً خطأ، من حيث إن

الفكر هو الحكم على الواقع، ولا يتأتّى الحكم إلا بوجود معلومات سابقة عن الواقع.

فالمعلومات جزء جوهري يستدعي وجودَ الفكر، ويكون وجوده متوقفاً على وجود المعلومات. فالبحث من حيث وجود الفكر قبل الواقع أو بعد الواقع لا بد أن يذهب إلى المعلومات السابقة التي بها أمكن أن يوجد فكر: هل هي قبل الواقع أو بعد الواقع؟ لأن هذه المعلومات نفسها هي تَفكُّر.

والبحث يجب أن ينصرف إلى المعلومات أولاً ما دام قد ثبت بأنه لا يوجد فكر إلاّ بمعلومات سابقة. والمعلومات ليس حتماً أن تكون بعد وجود الواقع، فقد تكون قبل وجوده وقد تكون بعد وجوده. لأنه إذا ثبت أن المادة أزليّة فيجب أن تكون المعلومات قد وجدت بعدها حتماً، وبالتالي يكون الفكر أو العقل من حيث وُجد بعد المادة. أما إذا ثبت أن المادة ليست أزلية، وأنها مخلوقة لخالق، فإنه حينئذ يجب أن تكون أول معلومات عن أول فكر، موجودة قبل المادة، لأنها تكون ممن خلق المادة. فالله الخالق هو الذي أنزل أول معلومات، وهي سابقة

لأول فكر حصل في الوجود. وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[1]... أي أن الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان الأول ـ أكرم مخلوقات الله عز وجل ـ المعلومات السابقة الأولى.

٤ ـ البحث في الطبيعة

يتلخص البحث في الطبيعة من زاوية النظرة الديالكتيكية، حسب آراء الشيوعيين في أربع نقاط:

النقطة الأولى: إن الطبيعة كلٌّ واحدٌ متماسكٌ ترتبط فيه الأشياء والحوادث فيما بينها ارتباطاً تاماً.

النقطة الثانية: إن الطبيعة ليست في حالة سكون، بل هي في حالة تطوّر وتغير دائمين.

النقطة الثالثة: إن حركة التطور تقوم على الانتقال من تغيرات ضئيلة وخفية إلى تغيرات كيفية بشكل سريع وفجائي.

النقطة الرابعة: إن كل الأشياء وحوادثها تحوي تناقضات داخلية.

---

(١) البقرة: ٣١.

وسوف نوضح كلًّا من هذه النقاط ونرد عليها.

النقطة الأولى:

ترى الديالكتيكية أن الطبيعة ليست تراكماً عرضياً للأشياء، وحوادثها ليست منفصلة بعضها عن بعض، أو مستقلة إحداها عن الأخرى ومنعزلة عنها. بل إن الطبيعة تراكم واحد متماسك، ترتبط فيه الأشياء والحوادث ارتباطاً عضوياً، ويتعلق أحدها بالآخر، ويكون بعضها شرطاً لبعض بصورة متقابلة.

لذلك يذهب الشيوعيون في اعتقادهم إلى أن أي حادث من حوادث الطبيعة لا يمكن فهمه إذا نظر إليه منفرداً أو بمعزل عن الحوادث المحيطة به، لأنه في حال عزله عن الشروط المحيطة به ينقلب إلى عبث فارغ، ولا معنى له. وعلى العكس من ذلك يمكن فهم أي حادث وفي أي ميدان من ميادين الطبيعة، وتبريره، إذا نظر إليه من حيث ارتباطه ارتباطاً لا ينفصم بالحوادث المحيطة به، أي إذا نظر إليه كما تحدده وتكيّفه الحوادث التي تحيط به.

وهذا يعني أن الشمس مرتبطة ارتباطاً لا ينفصم بحركتها وبحركة الكواكب المحيطة بها. ويعني أن الإنسان

مرتبط بالبلد الذي يعيش فيه ارتباطاً لا ينفصم. ويعني أن الحياة الموجودة في أي كائن حي، سواء كان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً، مرتبطة بحلولها في هذا الكائن ارتباطاً لا ينفصم.

وهكذا فإنه لا يمكن فهم الشيء إلا بالحادثة التي تكتنفه، ولا يمكن فهم الحادثة إلا بالشيء أو الأشياء التي تكتنفها. فيكون الشيء، بنظرهم، كما تحدده الحوادث أو الأشياء المحيطة به، وليس كما تحدده ماهيته.

الرد على النقطة الأولى

إن القول بأن الطبيعة كلٌّ واحدٌ متماسكٌ ترتبط فيه الأشياء والحوادث فيما بينها ارتباطاً تاماً ليس إلاَّ مجرد فروض.. ذلك بأن الطبيعة يمكن أن تشكل الكون كله، كما يمكن أن يطلق وصفها على أي جرم أو نجم أو كوكب في هذا الكون بصورة منفردة.

فإذا أخذنا مثلاً كوكب الأرض التي نعيش عليها نجد أنَّ لها قوانينها التي تسيِّرها من حيث ارتباطها بالكون من ناحية، ومن حيث ذاتيتها هي من ناحية ثانية. وهكذا الأمر بالنسبة إلى أي جرم أو أي كوكب أو أي شيء له ذاتية

خاصة به... فالأرض إذاً في أشيائها وقوانينها الخاصة بها، غير مرتبطة بغيرها، وهي تعيش في وسط يتعلق بها وحدها (وإن كان ذلك لا يجري إلا ضمن الإطار العام الجامع للكون). وحتى الأشياء التي على الأرض فإن لكل شيء قوانين خاصة به، وهو غير مرتبط بغيره، إلاّ أنه مع ذلك يبقى مرتبطاً بقوانين الأرض، ومن ثم بقوانين الكون.

إذاً فالقاعدة الثابتة هي أن لكل شيء من أشياء الطبيعة قوانينه الخاصة به التي تجعله يجري بذاتية معينة ومستقلة عن ذاتية الأشياء الأخرى، كما أنَّ له قوانين أخرى تجعله مرتبطاً بغيره من الأشياء التي تكوِّن الطبيعة ككل عام أي الكون بأسره. وقد ثبت وجود تلك القوانين بشكل ملموس بعد رحلات الفضاء، حيث ينعدم الوزن عند وصول القمر الصناعي إلى مكان تعادل الجاذبيات، إذ في هذا المكان لا يعود لجاذبية الأرض أي تأثير عليه، لأنه في النقاط التي تتعادل فيها جاذبية كوكبين أو أكثر تنعدم الجاذبية، وبخروج القمر الصناعي من جاذبية الأرض يكون قد خرج من حكم قانون جاذبيتها، وهذه الجاذبية هي المثال الحي على القوانين الخاصة بالأرض التي تقيم توازن الأشياء عليها، في حين أن لا وجود لهذه

الجاذبية على سطح القمر بالنسبة للإنسان مثلاً الذي ينزل على سطحه، إذ تحكمه عندئذٍ قوانين خاصة بالقمر.

إذاً فكل شيء في الطبيعة يكون مرتبطاً مع غيره بقوانين، ومنفصلاً عن غيره بقوانين خاصة به. وهذا الأمر يتعلق بالأشياء والحوادث على الأرض بالذات، فإذا أصاب زلزال مثلاً تركيا فإن هذا الزلزال لا يؤثر في لبنان أو في بلدان أخرى غيرها. والبراكين في جهة ما لا تتأثر بها جهة أخرى. وما يجري على الحيوان لا يجري على الإنسان، فالحيوان يمشي على أرجل متعددة، ويفقد الإدراك العقلي، ويعيش حسب الطاقةِ الحيويةِ من غرائز وحاجاتٍ عضويةٍ، أما الإنسان فيمشي على رجليه ويستعمل يديه على خلاف استعمال رجليه، ويملك الإدراك العقلي، وسلوكه في الحياة إنما هو حسب مفاهيمهِ وليس حسب غرائزهِ وحاجاتِهِ العضوية فقط. وما عليه الجمادات غير ما عليه الكائن الحيّ، فالجمادات لا تحتاج إلى غذاء والكائن الحي يحتاج إلى غذاء، والجمادات لا تحسّ، وبعض الكائنات الحيّة تحس، والجمادات ليس لديها طاقة حيوية من غرائز وحاجات عضوية. ثم إن الإنسان نفسه يسير في الحياة من حيثُ الخلقُ على قوانينَ واحدةٍ،

ولكنه يسير في معيشتِهِ وعلاقاتِهِ على أنظمةٍ مختلفةٍ، وهو يتمتّعُ بالاختيار التامّ لما يريدُ من نظامٍ، ومن تفكيرٍ، ومن عيش، وليس مرتبطاً بالطبيعةِ ارتباطاً جبرياً، وليست هي التي تسيّره في عيشِهِ، بل هو الذي يسير من نفسه مختاراً. ومن هنا كانت هذه النقطة مجرد فرض. فإنهم لما رأوا أن الكون متماسك الأجزاء من حيث سيرُهُ ضمن قوانين معينة، وأن كوكب الأرض متماسك الأجزاء من حيث سيره ضمن قوانين معينة، قالوا إن الطبيعة كلّ متماسك الأجزاء، ونسوا أن هذه الكلية إنما هي في الكلية أي من حيثُ الكونُ كلّهُ، أما من ناحية الأمور الخاصةِ بالأشياء فإن كل شيء متميّز عن غيره، ومنفرد عنه. فالأرض متميزة عن الزهرة، ومنفردة عنها، وغير مرتبطة ارتباطاً حتمياً بقوانينها الخاصة، والحديد متميّز عن الزئبق، ومنفرد عنه، وغير مرتبط به ارتباطاً حتمياً في قوانينه الخاصّةِ، مع أنّ كلاًّ منهما معدن، والإنسان متميز عن الحيوان وغير مرتبط به ارتباطاً حتمياً في قوانينه الخاصة، مع أنَّ كلاً منهما حيوان وهكذا.

فالارتباطُ الحتميّ في كلّ شيء بين أجزاء الكون وما يحويه غير موجود، بل الموجود هو الارتباط العام فقط.

وعلى هذا يكونُ من الخطأ القولُ بأنّ الشيء إنما يكون كما تحدّده الحوادثُ والأشياءُ التي تحيط به، بينما الأشياء والحوادث تحددها ماهيتها وليس الأشياء المحيطة بها. وبهذا كلّه يظهر خطأ النقطة الأولى.

النقطة الثانية:

أما النقطة الثانية فإنهم لا يعتبرون الطبيعةَ في حالةِ سكون واستقرار، بل يعتبرونها في حالة حركة وتغير دائمين. ففيها دائماً شيء يولد ويتطور، وشيء ينحلّ ويضمحلّ، ولهذا لا يصحّ أن يكتفى بالنّظر إلى الحوادثِ من حيث علاقاتُ بعضِها ببعض، ومن حيث تكييفُ بعضِها ببعض، بل يجب أن ينظر إليها أيضاً من حيثُ حركتها، من حيث تغيرها وتطورها، من حيث ظهورها واختفاؤها. يقول انجلز: «إنَّ الطبيعة بأجمعها، من أضأل الأجزاء إلى أكبرِ الأجسامِ، من حبّةِ الرّملِ إلى الشّمسِ، من الخلية الحيّةِ إلى الإنسانِ، هي في حركةٍ دائمةٍ من النشوء والاضمحلال، هي في مدّ لا ينقطع، في حركة وتغير مستمرين أبديين». ويقول أيضاً: «ينظر بالدرجة الأولى إلى الأشياء، وإلى انعكاسها العقلي من حيث

علاقاتها المتبادلة، من حيثُ تسلسُلها، من حيثُ حركتُها، من حيثُ نشوؤها واضمحلالُها». وهذا يعني أنه يجبُ أن ينظرَ إلى الشمس مرتبطةً بحركتها، وأن ينظر إليها بوصفها مادّة تتغير وتتطور فتفنى فيها ذرّات وتحيا فيها ذرات، وكذلك الإنسان فهو ليس مرتبطاً ببعضه ارتباطاً لا ينفصم فحسب، بل أنه إلى جانب هذا الارتباط يعيش في عملية حياة وفناء، بمعنى أن بعض ذراته تفنى، وتحيا فيه ذرات غيرها.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الحياة، بارتباطها بحركتها، وارتباطها بعملية الحياة والفناء الدائرة فيها.

الردّ على النقطة الثانية:

وأما النقطةُ الثانيةُ فصحيحٌ أن العالم في حالة تغيّر دائم، ولكنه ليس بصحيح أن كلّ شيء فيه يحوي أمرين معاً: هما الولادةُ والفناءُ، أي ليس بصحيح أنّ كلّ شيء فيه يتجدّد. ذلك لأن في العالم أشياء يكون في تغيرها حالة تجدد فعلاً وأشياء تولد وتموت، مثل الكائنات الحية ومنها الإنسان، وأشياء يكون في تطوّرها حالة فناء كالشجرةِ الآخذةِ بالاضمحلال وكالشيخ الهرم.

فالادعاءُ بأنّ كلَّ شيء في العالم فيه شيء يولد ويتطور، وشيء ينمو ويضمحل، ادعاء باطل يكذبه واقع الأشياء الموجودة في العالم. بل إن الشيوعيين أنفسَهُم يقولون: إن الشيء الذي يبدو في لحظة معينة ثابتاً مستقراً، وهو في الواقع آخذٌ في الفناء، ليس مهماً ولا جديراً بالاعتبار، بل المهمّ والجديرُ بالاعتبارِ هو الشيء الذي يولد ويتطور. ويرتبون على ذلك أنه لا يصحّ أن يؤسسوا عملهم على الفئات التي توقفت عن التطور، بل على الفئاتِ التي تتطور. ومن هذا يتبين أنَّ القول بأنَّ كلّ شيء في العالم هو في حركةٍ دائمةٍ من النشوء والاضمحلال قولٌ خاطىء مخالف للواقعِ، وبذلك يظهرُ فسادُ النقطةِ الثانية.

النقطَة الثالثة:

وأما النقطةُ الثالثةُ، فإنهم يعتبرون أن حركةَ التطورِ هي تطور ينتقل من تغيّرات كميّة ضئيلةٍ وخفيّةٍ إلى تغيّرات ظاهرةٍ أساسيّة، أي إلى تغيرات كيفيّة. وهذه التغيرات الكيفية ليست تدريجية، بل هي سريعةٌ، فجائيةٌ، وتحدثُ بقفزاتٍ من حالة إلى أخرى. وليست هذه التغيراتُ جائزةَ

الوقوعِ بل هي ضرورية، وهي نتيجة تراكم تغيرات كمية غير محسوسة وتدريجية. أي أن التغيرات الكمية التي تحدث في الماء من جرّاء الحرارة هي تغيرات كمية، وهي تغيرات غيرُ محسوسةٍ، وهي أيضاً تغيرات تدريجيّة، ولكنها حين تصلُ إلى نقطةِ الحرج أي إلى وضعٍ معيّن يحصل التغيرُ الكيفي بقفزةٍ، فيتحوّل المـاء إلى بخار وينتقل من حالة إلى أخرى، وهذا الانتقالُ ليس جائزاً بل هو ضروري. ولذلك يعتبر الشيوعيون أنَّ من الواجب فهمَ حركةِ التطورِ، لا من حيثُ هي حركة دائرية، أو تكرارٌ بسيطٌ من نفسه، بل من حيثُ هي حركةٌ تقدميّةٌ صاعدةٌ، وانتقال من الحالة الكيفيّةِ القديمةِ إلى حالةٍ كيفيّةٍ جديدةٍ وتطور ينتقل من البسيط إلى المركب، من الأدنى إلى الأعلى. أي لا يصحّ أن ينظر إلى حركةِ التطوّر بأنها عمليةُ حياةٍ وفناءٍ فحسب، أو عملية نشوء واضمحلال فقط، بـل يجب أن ينظر إلى أن الفنـاء والحياة، أو الاضمحلالَ والنشوء، إنما يحدث في طريق تصاعديّ فينقلُ المادةَ من حالٍ إلى حالٍ غير الحالة الأولى وأحسن منها، فحركتها تصاعديّةٌ وتطورها ارتقائيّ. . يقول انجلز: «إن الطبيعة هي محكّ الاختبار للديالكتيك، ولا بدّ من

القولِ إن علومَ الطبيعةِ الحديثة قد وفرت لهذا الاختبار موادّ غنيّة إلى أقصى حدّ، وهذه المواد تزداد كلّ يوم. هكذا برهنت هذه العلومُ أن الطبيعة تعمل في النتيجة، بصورةٍ ديالكتيكية لا بصورة ميتافيزيقية (علم ما وراء المادة أو العلم الغيبي)، وأنها لا تتحركُ في دائرةٍ تبقى هي ذاتها دائماً وتتكرّر إلى الأبد، بل إن لها تاريخاً واقعياً. وبهذه المناسبة ينبغي أن نذكر بالدرجةِ الأولى داروين الذي وجه ضربةً قاسيةً إلى الفهم الميتافيزيقي للطبيعة، بإثبات أن العالم العضويّ بأسرِه كما هو موجودٌ اليومَ، أي النباتات والحيوانات وبالتالي الإنسان أيضاً، هي كلّها نتاجُ تطورٍ يجري منذ ملايين السنين».

ويبين انجلز أن التغيرات الكمية تنقلب إلى تغيرات كيفيّة في التطوّر الديالكتيكي فيقول: «في الفيزياء، كل تغيرٍ هو انتقال من الكمية إلى الكيفية، هو نتيجةُ التغير الكلي لكمية الحركة ـ كيفما كان شكلها ـ سواء أكانت ملازمة للجسم من داخله أم مضافة إليه من خارجه. فإن حرارة الماء مثلاً ليس لها في بادىء الأمرِ تأثيرٌ في حالته من حيث هو سائل، ولكن إذا زيدت أو نقصت حرارةُ الماء جاءت لحظة تعدلت فيها حالةُ التماسكِ التي هو

فيها، وتحول الماء إلى بخار في إحدى الحالات، وإلى جليد في حالة أخرى. وكذلك نرى أن شريطاً من البلاتين يحتاجُ إلى تيار ذي قوة معينة لكي يصبح مضيئاً، ونرى أيضاً أن لكل معدن حرارة ذوبان، وأن لكل سائل موضوع تحت ضغط معين حدًّا معيّناً للتجمد والغليان، وذلك بمقدار ما تسمح لنا وسائلنا بالحصولِ على درجات الحرارةِ اللازمة، ونرى أخيراً أنّ لكلّ غازٍ نقطة حرارة حرجة يمكن فيها تحويله إلى سائل ضمن شروط معينة من الضغط والتبريد. فالنقاط الثابتة كما يُقالُ في الفيزياء ليست على الغالب سوى النقاط العقدية التي تؤدي فيها زيادةُ الحركةِ أو إنقاصُها إلى حدوثِ تغيّرٍ كيفيّ في جسم ما. أي أنها النقاط التي تتحولُ فيها الكميّةُ إلى كيفية». ويقول عن الكيمياء: «يمكن القولُ إن الكيمياء هي علمُ التغيّرات الكيفيّةِ الناشئة في الأجسام عن تغيرات كمية».

أي أن انجلز يبرهن بواسطة الفيزياء والكيمياء على التغيّر الذاتي الذي يحصل في الطبيعةِ من انتقال الأشياء من حالة إلى حالةٍ أخرى أحسنَ من الحالة الأولى. ويحصل الانتقال من كمّ إلى كيفٍ، ومن كيف إلى كيف بواسطة الكم، فزيادة الذرات في الجزئية من اثنتين إلى

ثلاث أعطت كيفية أخرى غير الأولى، تماماً كما هو الحال في الفيزياء من زيادة الحرارة في الماء التي جعلته بخاراً، وهذا يعني أن حركة التطور التي تحصلُ في الطبيعة ليست حركة بسيطةً تدورُ حولَ نفسها بل هي حركة تصاعدية تنتقل بزيادة الكم أو نقصانه إلى حالة أخرى.

الردّ على النقطة الثالثة:

وأما النقطةُ الثالثة، فليس بصحيح أن التغيّر الذي يحصل في الأشياء هو تغيرٌ من أدنى إلى أعلى ومن سيىء إلى حسنٍ، هذا مجرّدُ فرضٍ، إذ لا يُعد هذا التغير انتقالاً من حالٍ إلى حال أحسن، ولا من حال حسنة إلى حال سيئة، بل هو تغير ليس غير. ففي غير الكائن الحي ـ من الجمادات ـ تختلف التغيرات. فتعفّن الخبز، وتفتّت الأحجار، انتقال من حال حسنة إلى حال سيئة، وفي الكائن الحيّ، ينتقل الطفل في النمو من حال حسنة إلى حال أحسن، ومثله نبتة الزرع، وصغار الحيوان. ولكن انتقال الإنسان من الشباب إلى الهرم انتقال من حال حسنة إلى حال سيئة. فالتغيّر موجود في غير الكائن الحي وفي الكائن الحيّ، ولكنه مجرد انتقال من حال إلى حال،

بغض النظر عن الانتقال إلى الحسن أو إلى السيىء.

فالقولُ بأن الحركة تقدمية صاعدة، وأن التغير يكون صاعداً وإلى أحسن قول ظاهر البطلان. والماءُ نفسه الذي جاؤوا به للتدليل على نظريتهم هذه يكذب هذه النظرية، فإن الماء عندما يتحول إلى بخار يمكن أن يكثف ويبرد وبذلك يرجعُ إلى كيفيته الأولى. وهذا ليس تغيراً صاعداً، ولا إلى أحسن، بل رجوعٌ إلى الصورةِ الأصليةِ أي إلى الماء.

وعليه فإن الجديد لا يكون دائماً حسناً، كما لا يكون دائماً سيّئاً. والقديم لا يكون دائماً سيّئاً، كما لا يكون دائماً حسناً. فالهرمُ جديد والشبابُ قديم، والعجين قديم والخبز جديد، والنطفة قديمة والطفل جديد، وهكذا ملايين الأشياء المتغيرة ليست جميعها حركةً صاعدةً ولا حركة نازلة. بل قد تكون صاعدةً كالماء يتحول إلى بخارٍ والغرسة تصبح شجرة وما شاكل ذلك. وقد يكون تغيّر الأشياء حركة نازلة كالبخار حين يتحول إلى ماء، والشباب حين يصبح هرماً، والخبز حين يتعفّن، وما شاكل ذلك.

وعليه فإن التغير هو مجرد تغيرٍ لا يوصف بالصعودِ

ولا .بالنزولِ، لأن الصعودَ ليس خاصيّةً للحركةِ ولا خاصيّةً للتغير، وكذلك النزولُ ليس خاصيّةً للحركةِ ولا خاصيّةً للتغير، فلا يكون أيّ منهما ملازماً له.

ولذلك فإن التطور من حيث هـو بمعنى التجدد والانتقال إلى أحسن ليس هو الصفة الملازمة للأشياء في العالم. بل الصفة الملازمة للعالم ولكل شيء هو التغير فقط، سواء إلى الأمام أي إلى أحسن أم إلى الخلف كالانتكاس، أم إلى حالة أخرى سيئة لم تكن موجودة من قبل كالتغير من الشباب إلى الهرم.

ثم إنَّ التغير في الأشياء ليس حتمياً أن ينقلها إلى أشياء أخرى غير الأولى، بل هو قد ينقلها إلى أشياء غير الأولى، وقد تبقى، على الرغم من التغير، هي عينها الأشياء الأولى، لم تتغير ويستحيل أن تتغير، مهما حصل فيها من عوامل التغيير. فمثلاً يمكن في عملية كيميائية أن يُغيّر الشيء تغييراً كلياً فيصبح غير الشيء الأول. وقد ضرب أنجلز مثلاً على ذلك الأكسجين، فإذا جمعنا في جزئيته ثلاثَ ذرّات عوضاً عن اثنتين، كالعادة، حصلنا على جسمٍ جديد هو الأوزون الذي يختلف اختلافاً بيناً

برائحته وتأثيراته عن الأكسجين العادي.

أما الأشياء التي تبقى هي عينها ويستحيل أن تصبح أشياء أخرى غيرَ ما هي عليه ماهيتُها فلا تُعد ولا تحصى. فمثلاً الحديد لا يمكن لأية عملية أن تحوله إلى ذهب، والخروف إلى غزال، ونطفة الرجل إلى طفل إذا ما وضعت في القردة أو الناقة أو في أي كائن حي غير المرأة. والحجر لا يمكن لأي عملية أن تحوله إلى كائن حيّ.. وهكذا ملايين الأشياء التي يستحيل أن تتحول إلى شيء آخر غير ماهيتها. وعليه فإن القولَ بأن النباتات والحيوانات وبالتالي الإنسان هي كلّها نتاج تطوّرٍ يجري منذ ملايين السنين، هذا القولُ فاسدٌ يكذّبه الواقع. فإنه إذا كان تراكم الأتربة والهواء والماء على شجرة قد جعلها على مرّ السنين تتحجر، كما هو موجود حالياً في الولايات المتحدة الأمريكية في ولاية كاليفورنيا مثلاً، فإن نبتة القمح منذ عرف الإنسان القمح حتى الآن لم تتغيّر ماهيتُها، وإن الفَرَسَ منذ عرف الإنسان هذا الحيوان حتى الآن لم تتغير، وإن الإنسان من ذكر وأنثى لم يوجد فيه أدنى تغير في إنسانيته وفي حيوانيته؛ ولا في طاقته الحيويّةِ، ولا في خاصية دماغه التي هي الربط للحكم

على الأشياء. أما ما يحصل من صغر حبة القمح وكبرها، ومن صغر الفرس وكبرها، ومن صغر حجم الإنسان أو حجم عظامه وجمجمته أو كبرها أو شكلها، فإن هذه كلها تغيرات في الشكل لا في الماهية. فالتغير يحصلُ حتماً وقد يكون حصوله في الحجم أو في الشكل، أما التغير في الماهية فليس حتمياً. وعليه فإنّه من الخطأ القولُ إن هذه الأشياء التي هي موجودة في العالم اليوم هي غيرُ الأشياء التي كانت فيه من قبلُ، وبذلك يظهرُ فساد ما ذهب إليه داروين من أن العالم العضوي بأسره، كما هو موجودٌ اليوم، نتاجٌ تطوري يجري منذ ملايين السنين، أي هو غيرُ العالمِ الأول قبلَ ملايين السنين.

فإن الحديدَ والماء والترابَ والهواء وما شاكلها هي نفسها مهما تقادم عليها العهد، وإن الناقة والأسد والدجاجة وغيرها من الحيوان هي نفسها مهما تقادم عليها العهد، وإن الإنسان هو نفسه منذ أن عرف وجوده على وجه الأرض لم يحصل فيه أدنى تغيير في ماهيّتِهِ. فالعالم يتغير، ما في ذلك شك، ولكن لا يعني تغيره خروجه عن ماهيته، ولا يعني تغير الأشياء فيه خروجها عن ماهيتها التي وجدت عليها.

ومن هذا كلّه يتبين أن التطورَ الذي يعنونه من حيث كونه حركة تقدمية صاعدة، وانتقالاً من الأدنى إلى الأعلى، ومن سيىء إلى حسن أو من حسن إلى أحسن، ومن حيث كونه ينقل الشيء إلى شيء آخر، هذا التطوّر بهذا المعنى ليس خاصية من خواص التغير، وليس ضرورياً أن يحصل. فالعالمُ يتغيّرُ، لكنّ تغيّرُه هذا لا يعني التطورَ الذي يعنونه، وهذا التطور الذي يعنونه ليس حتمياً أن يحصل في الأشياء، وعلى هذا يكون الادعاء بأنه ملازم للتغيرِ لا ينفك عنه، والادعاء بحتميّة حصوله في الأشياء، ادعاءً باطلاً يكذّبه الواقع. وبذلك يظهر فسادُ النقطةِ الثالثةِ.

النقطة الرابعة:

وأما النقطةُ الرابعةُ: فهي أن كلّ أشياء الطبيعةِ وحوادثها تحوي تناقضاتٍ داخلية، لأن لها جميعها جانباً سلبياً وجانباً إيجابياً، ماضياً وحاضراً، وفيها جميعها عناصر تضمحل وعناصر تتطور، فنضال هذه المتضاداتِ، أي النضال بين القديم والجديد، بين ما يموت وما يولد، بين ما يفنى وما يتطور، هو المحتوى الداخلي لحركة التطور،

هو المحتوى الداخلي لتحول التغيرات الكمية إلى تغيرات كيفية. أي أن انتقال الماء بزيادةِ الحرارةِ إلى بخار، أو بنقصانها إلى جليد، لا يتم بواسطة تناسق الذرات في المادة، بل يتم بواسطة تشادّ هذه الذرات مع بعضها، وهذا يعني أنه يحصل بواسطة التناقضات. فالاصطدام الذي يحصل بين الذرات في المادة هو الذي يوجد هذا التحول، وهذا هو معنى قولهم: إن كلّ أشياء الطبيعةِ وحوادثها تحوي ذراتٍ سالبةً وموجبةً، فيحصل الاصطدام مع بعضها فينتج عن هذا الاصطدام التحول، وهذا هو ما يدعى التناقضات.. ولهذا تعتبرُ الطريقةُ الديالكتيكية أنّ حركةَ التطوّرِ من الأدنى إلى الأعلى لا تجري وفقاً لتطورِ الحوادث تطوراً تدريجياً متناسقاً، بل بظهورِ التناقضات الملازمة للأشياء والحوادث، وبنضال الاتجاهات المتضادة التي تعمل على أساس هذه التناقضات. يقول لينين: «إن الديالكتيك، بالمعنى الخاص للكلمة، هو درسُ التناقضات في ماهيةِ الأشياء نفسِها» ويقولُ: «التطورُ هو نضال المتضادات».

الرد على النقطة الرابعة:

وأما النقطةُ الرابعةُ، فليس بصحيحٍ أنّ كلّ أشياء الطبيعةِ وحوادثها تحوي تناقضات. إنَّ هذا مجرد فرض نظري. إذ ثبت أنه ليس كل شيء يوجد فيه حياة وفناء معاً، وهذا وحده يثبت أنه ليس كل شيء يحوي تناقضات. وأيضاً فإن كونَ الأشياءِ تولدُ وتموتُ، وتفنى وتوجد، لا يعني أن هذا تناقضٌ ملازمٌ لها. ففي الجسم الحيّ خلايا تولد وخلايا تموت، غيرّ أن ذلك لا يعني وجودَ تناقضٍ في الجسم الحي، ثمّ إن الأجسامَ غيرَ الحيّةِ يحصل فيها فناءٌ، ولكن لا تحصلُ ولادة، أي لا يحصلُ وجود.

ولهذا فإنّ ما يسمّى بالتناقضاتِ ليس ملازماً للأشياء والحوادثِ.

فأما بالنسبةِ للأشياء فعدم وجود التناقض ظاهر في هذه الأجسام غير الحية، والدليل على ذلك أن الماء إذا تُرك كما هو قد ينقص، ولكنه لا يزيد، ولا يحصل فيه لا سالبٌ ولا موجبٌ، ولا تحصل فيه تناقضات. والرمل إذا ترك كما هو لا يلاحظ عليه وجودُ تناقضات.

وأما بالنسبة للحوادث فإن عملياتِ البيع مثلاً تجري دونَ حصولِ أيّ تناقضٍ إذا كان في إجراء العقد إحكام ودقة. وعملية الصلاة تحصل دون أي تناقض فيها. فالادعاء بملازمة التناقضات للأشياء والحوادث ادعاء باطل. فإذا كانت الاتجاهاتُ متضادةً ولم يحصل بينها توفيقٌ فإنه حينئذٍ يحصل التصادم أو ما يسمى بالتناقضِ ويسري ذلك على الجسم الحيّ كما يمكن حصوله في المجتمع. ولكن الاتجاهات المتضادة إذا حصل بينها توفيق فإن من شأن ذلك أن يرفع التضادّ ويزيل التناقض. فالقولُ بحتميّةِ حصولِ التناقضاتِ قولٌ خاطىءٌ، لأنها ليست حتميّةً في جميعِ الأشياء وليست حتميّة في المجتمع.

فلو فرضنا أن حصل نضال المتضادات في أشياء أو في أجزاء من العالم، فإنه ليس حتمياً أن يحصلَ في أشياء أخرى أو في أجزاء أُخرى من العالم. وبهذا يثبت أن التطورَ، بالمعنى الذي يريدونه، وهو الانتقال إلى حال أحسن وإلى حال غير الأول، ليس حصولُهُ في العالم أمراً حتمياً.

وبنقضِ هذه النقاط الأربع يظهر فساد رأي الشيوعيين في الطبيعة.

أركان الإيمان

١ - الإيمان بالله عز وجل
٢ - الإيمان بالملائكة
٣ - الإيمان بالكتب السماوية "القرآن الكريم"
٤ - الإيمان بالرسل عليهم السلام
٥ - الإيمان باليوم الآخر
٦ - الإيمان بالقدر

أركان الايمان

لقد بينا في أول هذا الكتاب معنى الإيمان ووجوب معرفة الله سبحانه وتعالى على كل مكلَّف، وأتبعنا ذلك ببيان معنى الفكر وأقسامه، وقمنا بجولة فكرية على أساس الفكر العميق في بعض آيات الله تعالى في الكون، وفنَّدنا بعد ذلك مزاعم القائلين بالديالكتيكية والماركسية. وننتقل إلى بيان لب الموضوع وأساسه، نعني به تفاصيل الإيمان الذي قصدنا أن يكون هذا الكتاب، إنْ شاء الله اللطيف بعباده، طريقاً واضح المعالم يقود القارىء إليه.

المراد بـ «أركان الإيمان»: المسائل الاعتقادية التي يجب على الإنسان أن يؤمن بها جميعها والتي لا يتم الإيمان ولا يصح بدونها كلها. وهذه الأركان جاءت ملخصة في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن

عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ جواباً عن سؤال جبريل عليه السلام عن الإيمان حيث قال ﷺ: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقَدَر خيره وشرِّه». وهذا الإجمال لمعنى الإيمان من جوامع كَلِمِهِ ﷺ، وجاءت الأركان الأربعة الأولى في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(١).

وجاء الإيمان بالقدر في قوله تعالى حكاية لما يقال للكافرين وهم يعذبون في النار: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾(٢).

أما الإيمان باليوم الآخر فإن الآيات فيه كثيرة جداً.

ولما كان الإيمان واجباً عينياً على كل مكلف، فقد حدد الله تعالى على ألسنة رسله جميعاً معناه وأركانه ومفهومه الصحيح وتفاصيل مسائله، وخصوصاً على لسان

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) القمر: ٤٨.

سيدنا محمد خاتم الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام. لذا فالمكلَّف مأمور بالإيمان كما أمره الله تعالى لا كما يهوى هو ويتخيل. وها نحن نبين تفاصيل الإيمان الحق محاولين جمع أكثر مسائله ليكون القارىء على بينة من أمره.

أولاً: الإيمان بالله عز وجل:

لقد أمر الله تعالى عباده بأن يؤمنوا:

١ ـ أنه تعالى واحد لا شريك له، فهو الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، ليس كمثله شيء، منزه عن مشابهة الخلق، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1]. تعالى عن أن يكون له ولد.

٢ ـ وأنه تعالى خالق كل شيء ومالكه ومدبر أمره، فلا خالق غير الله تعالى، بل إن ما سواه تعالى عاجزون عما هو أهون من الخلق كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ

(١) الأنعام: ١٠٣.

مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[1].

٣ ـ وأنه تعالى قادر على كل شيء، يخلق ما يشاء بقدرته، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي خلق ويخلق، فخلق الناس من أبوين، وآدم بلا أب ولا أم، وعيسى من أم بلا أب، والكل عنده تعالى سواء في الخلق.

٤ ـ وأنه تعالى فعَّالٌ لما يريد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا رادَّ لما أراد، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.

٥ ـ وأنه تعالى الحي القيوم، السميع البصير، الرقيب على عباده، أنزل كلامه على رسله وحياً مباركاً ليرشدهم إلى الطريق القويم، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

٦ ـ وأنه تعالى أحاط بكل شيء علماً، ووسع علمه كل شيء، فهو العالم بما كان وما هو كائن وما سيكون،

---

(١) الحج: ٧٣.

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

٧ ـ وأنه تعالى متصف بسائر صفات الكمال، ومنزه عما لا يليق بذاته تعالى من صفات خلقه، سبحانه وتعالى عما يقول الكافرون علواً كبيراً.

ثانياً: الإيمان بالملائكة:

مجمل الإيمان بالملائكة هو: أن نعتقد جازمين بأن الله تعالى خلق من جملة مخلوقاته عالَماً أسماه «الملائكة» وهم: أرواح قائمة في أجسام نورانية لطيفة، تستطيع أن تتمثل في صور حسنة بإذن الله تعالى، لا يوصفون بذكورة ولا بأنوثة، لا يأكلون ولا ينامون، وليس فيهم طبائع البشر، ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2] عملهم التسبيح والطاعة وتنفيذ أمر الله تعالى. أفضلهم جبريل منزِّل الشرائع والوحي على الأنبياء والمرسلين، وميكائيل، وإسرافيل

---

(١) الأنعام: ٥٩.

(٢) التحريم: ٦.

النافخ في الصور يوم القيامة، وعزرائيل ملك الموت، عليهم السلام. هم جماعات وأصناف: فمنهم حملة العرش، وخزنة الجنة، وخزنة النار، والموكلون بكتابة أعمال بني آدم وأقوالهم، والموكلون بحفظ ابن آدم من المضار بإذن الله، ومنهم القرين الذي يدل الإنسان على الخير.

ونذكّر مرة أخرى بأن الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، فإنكار وجودهم كفر وضلال قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾[1]

عالَم الجن:

لا بد لنا ونحن نتكلم عن الملائكة ووجوب الإيمان بهم من أن نذكر عالماً آخر من عوالم الغيب هو عالم «الجن» أو «الجان». إن الإيمان بوجودهم واجب كذلك، لأن الله تعالى أثبت وجودهم في آيات متعددة، كما جاء ذكرهم في كثير من صحاح الأحاديث. قال تعالى: خَلَقَ الْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَآنَّ مِن

(١) النساء: ١٣٦.

﴿مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾(١) ومارج النار: هو اللهب المختلط بسواد النار، أو هو اللهب الخالص من الدخان.. بل إنَّ في القرآن الكريم سورة اسمها «سورة الجن» ذكر الله تعالى فيها استماع نفرٍ منهم القرآن، وإيمان أولئك النفر بالنبي ﷺ وبما جاء به فصاروا مسلمين. ومطلع تلك السورة قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾(٢) إلى آخر الآيات..

فلذلك وجب الاعتقاد الجازم بوجود الجن، وأنهم عالم حقيقي ليس وهمياً ولا تخييلياً، وأنهم ليسوا ضرباً من النفوس البشرية الشريرة أو القوى البشرية الخبيثة، ولا هم نوع من الجراثيم الضارة كما زعم البعض، فهذه التصورات والأوهام حول عالم الجن تعارض صريح القرآن الكريم والسنة الشريفة، والعاقل لا يترك قول الله تعالى ليتبع هواه فيضله عن سبيل الله.

ونحن يجب أن نؤمن بأن الجن أرواح قائمة في

---

(١) الرحمان: ١٤ ـ ١٥.
(٢) الجن: ١ ـ ٢.

أجسام لطيفة نارية، قادرة على التشكل بصور شتى بإذن الله تعالى، يأكلون ويشربون، وفيهم الذكر والأنثى، يتناكحون ويتناسلون ويموتون، ثم يوم القيامة يبعثون، منهم المؤمنون ومنهم الكافرون، لا نستطيع أن نراهم على صورتهم التي خلقهم الله عليها لقوله تعالى في الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾(1). وأما رؤيتهم إذا تشكلوا في غير صورهم فهي محققة الوقوع، وحاصلة بالفعل، ويمكن أن تحصل في أي وقت.

ثالثاً: الإيمان بالكتب السماوية

الإيمان بالكتب السماوية يشمل الإيمان بكل وحي أنزله الله تعالى على نبي من أنبيائه، سواء عرفنا عنه شيئاً أم لا. هذا على وجه العموم، أما على جهة التفصيل والتخصيص فنحن نؤمن بالكتب السماوية الأربعة وهي: التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزله على عيسى بن مريم عليهما السلام، والزَّبور الذي أنزله الله على داود عليه السلام، والقرآن

---

(1) الأعراف: ٢٧.

المنزَّل على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ. وكذلك نؤمن بصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

والإيمان بالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها ـ سوى القرآن الكريم ـ هو إيمان بها كما أنزلها الله تعالى قبل أن تمتد إليها يد التحريف والتبديل. فمما لا شك فيه أن التوراة والإنجيل المنزَّلين من عند الله تعالى قد دخل عليهما التحريف، وهذا معلوم من الناحية التاريخية ـ بالإضافة إلى النصوص القرآنية المثبتة له ـ حيث حرف اليهود التوراة حتى صارت على هواهم، تدعم عنصريتهم وتؤيد غرورهم وتَمَيُّزَهم عن سائر الناس. أما الإنجيل فيكفي للتدليل على تبديله صيرورته أناجيل بعضها مقبول لدى النصارى والبعض الآخر مرفوض. ولولا هذا التحريف في الكتابين المذكورين لما كان هذا التشتت في المعتقدات، ولما نفر كثير من اليهود والنصارى من الإسلام، وكفروا بما جاء به رسوله محمد ﷺ الذي هو دين موسى وعيسى وسائر النبيين عليهم الصلاة والسلام.

أما القرآن الكريم فقد جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، جامعاً لأحسن ما فيه، ومهيمناً على ما تقدمه. وهو كتاب حفظه الله تعالى من التحريف والتبديل. قال

تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(1) فكان بذلك كتاباً محفوظاً مصاناً ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾(2).

فإليك أيها القارىء نبذاً عن هذا الكتاب العزيز، عن: معناه، نزوله، كتابته، رسمه، إعجازه، بعض آياته.

١ ـ معنى القرآن:

«القرآن»، أو «الفرقان»، أو «الكتاب» أو غير ذلك من الأسماء التي أطلقت على هذا الكتاب العزيز يعني كل واحد منها عند استعماله أو إطلاقه المفهوم التالي: هو: وحي الله تعالى المنزل على رسوله محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا نقلاً متواتراً بلا شبهة.

٢ ـ نزول القرآن وكتابته:

نزلَ القرآنُ على النبيّ محمّدٍ ﷺ مُفرَّقاً في مُدّة ثلاث وعشرينَ سنةً.

---

(١) الحجر: ٩.

(٢) فصلت: ٤٢.

فالقرآن الكريم إذاً لم يُنْزَل دفعةً واحدةً بل نزل مُنجَّماً، أي في أوقات معينة لحكمة ذكرها الله تعالى في قوله العزيز: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾(١)، أي كذلِكَ أنزل مُفرّقاً نُقَوّي بتفريقه فؤادكَ حتى تعيَهُ وتحفظه.

وقالَ تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾(٢). أي على مهلٍ وتؤدَةٍ وتَثَبّتٍ نزلناهُ تنزيلاً أي حسب الحوادث.

وكانَ القرآنُ ينزلُ على رسولِ الله فيأمرُ بحفظهِ في الصّدورِ وكتابتِهِ في الرّقاعِ مِنْ جِلْدٍ أوْ رَقّ أو كاغدٍ، وفي الأكتاف والعسبِ واللخافِ، (أيّ على العَظْم العريض وعسب النّخْلِ والحجَارَةِ الرقيقةِ). وكان يقولُ كلما نزلتِ الآياتُ أوْ بعضُها: الحَقوا هذه الآيةَ في سورةِ كذا، بعد آيةِ كذا، فيضعونَهَا في السّورَةِ.

---

(١) الفرقان: ٣٢.
(٢) الإسراء: ١٠٦.

٣ ـ رسم القرآن الكريم:

رسم القرآن الكريم توقيفي لا تجوز مخالفته، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ كان له كُتّابٌ يكتبون الوحي، وقد كتبوا القرآن فعلاً بهذا الرسم وأقرّهم الرسول على كتابتهم. وانتقل الرسول الكريم إلى جوار ربه والقرآن على هذه الكتبة لم يحدث فيه تغيير أو تبديل ولم يُرْوَ عن أحد أنه خالف هذه الكتبة. وعندما جاء عثمان رضي الله عنه في خلافته استنتسخ الصحف المحفوظة عند حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها في مصاحف على تلك الكتبة، وأمر أن يُحرق ما عداها من المصاحف، وأقرّه الصحابة على ذلك رضوان الله عليهم جميعاً.

ولذلك لا يقال لماذا كتبت كلمة «الربا» في القرآن بالواو والألف «الربوا» ولم تكتب بالياء أو الألف. ولا يقال لماذا كتبت «بسطة» في سورة البقرة بالسين، و«بصطة» في سورة الأعراف بالصاد مع أن المعنى واحد. ولا يقال ما هو سبب زيادة الألف في «مائة» دون «مئة» وزيادة الألف في «سعوا» بالحج ونقصانها من «سعو» بسورة سبأ، وزيادتها في «عتوا» حيث كان ونقصانها من «عتو» في الفرقان وزيادتها في «آمنوا» واسقاطها من «باءو»

و«جاءو» و«فاءو»، وزيادتها في «يعفوا الذي» في البقرة ونقصانها من «يعفو عنهم» في النساء. ولا يقال كذلك ما هو وجه حذف بعض أحرف من كلمات متشابهة دون بعض: كحذف الألف من «قرءنا» بيوسف والزخرف، وإثباتها في سائر المواضع، وإثبات الألف بعد واو «سموات» في فصلت وحذفها من غيرها. فهذا الاختلاف في كتابة الكلمة الواحدة بين سورة وسورة، من حيث الرسم مع عدم اختلاف المعنى واللفظ، دليل على أنه فعل مرده إلى السماع لا إلى الاجتهاد والفهم، وكل ما كان مرده إلى السماع فهو توقيفي. ولم ينقل خلاف في رسم المصحف على هذه الكتبة، كما لم ينقل خلاف في ترتيب الآياتِ، مما يدل على أن الرسم توقيفي عن الله تعالى، ولا يكون بالرأي والاجتهاد. فإقرار الرسول على هذه الكتبة وإجماع الصحابة عليها، وواقع الاختلاف في رسم الكلمة الواحدة بين سورة وسورة مع اتحاد اللفظ والمعنى، كل ذلك دليل واضح على أن هذا الرسم الذي عليه المصحف هو رسم توقيفي يجب أن يُلتزم وحده. ويحرم أن يكتب المصحف على رسم غير هذا الرسم، فلا يجوز العدول عنه مطلقاً. ولا يقال إن الرسول ﷺ كان

أميًّا فلا يعتبر تقريره لها، لا يقال ذلك لأن الرسولﷺ كان له كتّابٌ يعرفون الخطوطَ فكانوا يصفونها له، وأحياناً كان يناقش في كتابة بعض أحرف القرآن الكريم، علاوة على أنه كان يعرف أشكال الحروف كما ورد في بعض الأحاديث. على أنَّ كِتابةَ كُتَّابه للرسائل التي كان يرسلها للملوك والرؤساء، كانت على رسم الكتابة العادية وعلى غير الرسم الذي كانوا يكتبون به الصحف التي يكتبون فيها القرآن حين نزوله، مع أن المُملي واحد والكتّاب هم هم. على أن التزام الرسم العثماني للقرآن إنما هو خاص بكتابة المصحف كله. أما كتابة القرآن استشهاداً، أو كتابته على اللوح للتعليم، أو غير ذلك مما يكتب في غير المصاحف، فهو جائز لأن الإقرار من الرسولﷺ والإجماع من الصحابة حصل في المصحف وحده دون غيره، ولا يقاس عليه غيره،لأنه أمر توقيفي عن الله تعالى كما تقدم.

٤ ـ إعجاز القرآن:

إن من أبرز مزايا القرآن الكريم إعجازَه.. فهو يختلف في واقعِه ووجودِه عن غيرِه، سواء من ناحية اللفظ، أو من ناحية المعنى، أو من ناحية الوقع على

النفس. وبهذا الاختلاف يظهر إعجازه، وأنه من عند الله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[1].. والاختلال لم يتطرَّق إليه قطّ منذ نزوله حتى اليوم، ولن يتطرَّق إليه أبداً.

ومما يدل على أنَّ القرآن من عند الله:

أولاً: القرآن واقع محسوس، وهو بين أيدينا وليس من الغيبيّات، إذاً فلا جَدَل حول واقعه ووجوده. وهو بهذا الواقع المحسوس كلام عربي في ألفاظِه وجُمله..

ولكنَّ العرب نَطقوا بكلامٍ منه الشعرُ بأنواعه، ومنه النثرُ بأنواعه، وكلامُهم مدوَّنٌ في الكتب، ومنقول عنهم استظهاراً (نقله الخلف عن السلف، ورواه بعضهم عن بعض).. وبقياس كلام العرب على القرآن الكريم، ومقارنته به، لا بدَّ أن يكون إمَّا من طراز كلامهم، فيكون الذي قاله عربي بليغ، وإمَّا أن يكون من غير طراز كلام العرب، فيكون الَّذي قاله من غير العرب.. وهو إمَّا أن يَقْدِرَ العربُ على قول مثله، وإمَّا أن يعجزوا عن أن يقولوا مثله، وفي كل من الحالتين نظر.. فإن قَدِرُوا وقالوا

(١) النساء: ٨٢.

مثله، فيكون كلامَ بشرٍ مثلهم، وإن عجزوا عن الإتيان بمثله، مع أنه كلام عربي عند العرب ـ فصحائهم وبلغائهم ـ لم يكن كلام بشر. . والناظرُ في القرآن، وفي كلام العرب، مع قدرته على التبصُّر والتدقيق، يجد أن القرآنَ طرازٌ خاص من القول لم يسبق للعرب أن قالوا مثله، ولا أتَوا على هذا النمط الذي هو فيه من القول بشيء، لا قبل نزول القرآن ولا بعدَه، فإنْ كان العرب لم يقولوا قولَ القرآن، فهو إذاً كلام غيرهم. . وقد ثبت بالتواتر الذي يفيد القطع واليقين، أن العرب عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن مع أنهم حاولوا مراراً، وجرّبوا كثيراً، وعقدوا لذلك الندوات والاجتماعات، وجمعوا أهل البلاغة والنظم والنثر. وكان عجز العرب ثابتاً، وهذا العجز أكده وواجهه القرآن الكريم نفسه بتحديه لهم، وهو التحدّي الذي كان، وما زال قائماً بقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1]. . وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ

(١) البقرة: ٢٣.

﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

وبقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2] إنه التحدي الصارخ من الله سبحانه وتعالى، وإنه العجز الفاضح من العرب أمام التحدي.. وقد عجزوا حقاً عن أن يأتوا بمثله..

وكانوا إذا سَمِعوا القرآنَ أقبلُوا عليهِ مأخوذين بسموِّ بلاغَتِهِ، حتى أنّ الوليدَ بنَ المُغيرةِ قالَ للناسِ، وقدْ سمعَ النبيّ ﷺ يقرأ القرآنَ: «والله ما مِنْكُم رجلٌ أعْرَفُ بالشعر مني، ولا أعْلَمُ برجَزِهِ وقصيدِهِ مني، والله ما يُشْبِهُ الذي يقُولُهُ شيئاً منْ هذا. والله إنّ لقولِهِ الذي يقولُهُ لحلاوةً، وإنّ عليهِ لَطلاوةً، وإنّهُ لمورقٌ أعلاه، مغدِقٌ أسْفَلُهُ، وإنّهُ ليعلو ولا يُعْلى عليه». معَ أنّ الوليدَ لمْ يؤمنْ وأصرّ على كُفرِهِ.

وإذاً لقد ثبت أن القرآنَ لم يَقُلْهُ العرب، وأنهم لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله.. فمن أين هو إذاً؟ إنه من عند

---

(١) يونس: ٣٨.
(٢) هود: ١٣.

الله تعالى، ولا أحد، كائناً من كان، سواء من أهل الإنس أو الجن، قادر على أن يثبت عكس ذلك!

ثانياً: القرآنُ هو كلامُ الله، وقد استحالَ على العرب أن يقولوا مثله مع أنه كلام عربي، فيستحيل على غير العرب أن يقولوا مثله كذلك. ولا يقال إنه كلام محمد ﷺ، لأنَّ محمداً عربيٌّ ومن العرب، فإذا ثبت العجز على جنس العرب، فقد ثبت العجز على محمد نفسه ﷺ، لأنه فردٌ من الجنس، وما يسري عليهم يسري عليه، خاصة وأنه ﷺ كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وقومُهُ يعرفون ذلك عنه ولا يشكون فيه، لأن أمية الحرف، أي أمية القراءة والكتابة، كانت منتشرة في العرب ذلك الحين، فلا يتأتى لأميٍّ أن يأتي بكلام بليغ فصيح، يعجز عن مثله الشعراء والخطباء من مشاهير العرب. فما كان يتلوه محمد رسول الله ﷺ، قرآناً، إن هو إلَّا وحيه تعالى إليه.

يضاف إلى ذلك، أن جميع الشعراء والكتّاب والفلاسفة والمفكرين في العالم، يكون لكل منهم نمطٌ أو منهجٌ، أو أسلوبٌ معيّن، في التفكير والتعبير. . وهم عادة

يتقلبون في أفكارهم وتعابيرهم بين القوة والضعف، فلا يكون نتاج أحدهم على الوتيرة ذاتها، بل لا بدَّ من أن يكون فيه ضعف وقوة، ولا بدَّ من أن تمرَّ في كتاباتهم بعض الأفكار السخيفة، وبعض التعابير الركيكة.. هذا، في حين نجد القرآن من أول يوم نزلت فيه أول آية: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1]، إلى آخر يوم نزلت فيه آخر آية، نجده في الذروة من البلاغة، والفصاحة، وسمُوّ المعاني، وقوة التعبير، حتى أننا لا نجد فيه تعبيراً واحداً ركيكاً، بل هو قطعة واحدة، وكله في الأسلوب، جملةً وتفصيلاً، كالجملة الواحدة.. فهل بعدُ، أكبر وأبعد دليلاً، على أن القرآن فوق كلام البشر المعرَّض للاختلاف في التعبير، وفي المبنى والمعنى؟ وما دام كذلك فهو إذاً كلام ربِّ البشر، ربِّ العالمين.

لقد اعتمد القرآن في الدَّعوة على أساس فطري، ثم خاطب الناس بما يتفق ومداركهم، لأنَّ في الناس العالِمَ والجاهلَ، والذكيَّ والبسيطَ، وهؤلاء جميعاً مدعوُّون ليؤمنوا باللّه إيماناً عقليًّا، وعن طريق القرآن نفسه..

(١) العلق: ١.

ولذلك كانت مخاطبته للجميع، بما يتوافق مع مدارك الجميع.

وحين نزلت آيات القرآن الكريم على رسول الله ﷺ، وبلّغها للناس، آمن بها المسلمون وحفظوها عن ظهر قلب، ولم يروا هم، ولم يرَ المشركون، فيها أيَّ تناقض يحتاج إلى تدقيقٍ، بل فهموا جميعهم كل آية في الجانب الذي جاءت تصفه أو تقرِّره... فأمّا المؤمنون، فكانت الآياتُ منسجمةً بالنسبة إليهم في واقعها، وفي نفوسهم، وقد آمنوا بها وصدَّقوها وفهموها فهماً مجملاً، واكتفوا بهذا الفهم، واعتبروها وصفاً لواقع أو تقريراً لحقائق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1].. وأما المشركون فبالرغم من فهمهم للآيات وإعجابهم بفصاحتها وبلاغتها وعجزهم عن معارضتها، واقتناعهم بانسجامها مع الواقع، ومع ما تقرِّر أو تصف، فقد أبت عليهم نفوسُهم إلاَّ معاندة الإيمان، لأسباب وغايات شتَّى، فكفروا بها واستغرقوا في ضلالهم.

وليسَ القرآن معجزاً للعربِ الذينَ كانوا في أيّامِ

---

(١) الملك: ١٤.

الرّسولِ ﷺ فقطْ، ولا للعربِ وحدَهمْ في كـلّ مكان وزمانٍ، بل هو معجزةٌ للنّاسِ أجمعينَ لا فرْقَ في ذلكَ بين قبيلٍ وقبيلٍ، لأنَّ الخطابَ فيه موجّهٌ للنّاسِ أجمعينَ.

قـالَ تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾(١) وقال سبحـانـه: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾(٢)، ولأنَّ آياتِ التّحدّي عامَّةٌ تقولُ: ﴿ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾(٣) وذلكَ يَشمُلُ النّاسَ جميعاً، ولأنَّ القرآنَ أخبرَ عَنْ عَجْزِ الجنّ والإنس، فقالَ تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ ﴾(٤) فَعَجِزَ العربُ عَنْ أَنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ، وعجزَ الناسُ جميعاً عن أن يأتوا بمثلِهِ، فكان هذا الإعجاز هو المعجزة الحسية الماثلة أمام الأسماع والأبصار والأفئدة والعقول جميعاً، وكانت هي الدليل القطعي على أن القرآن هو قول الله تعالى، وهو ﴿ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾(٥).

وإليك بعضاً من آيات القرآن الكريم.

---

(١) سبأ: ٢٨.
(٢) الأعراف: ١٥٨.
(٣) يونس: ٣٨.
(٤) الإسراء. ٨٨.
(٥) فصلت: ٣.

٥ ـ من القرآن الكريم آيات بيِّنات:

حلَّق الإنسان في آفاق الاكتشافات العلمية، وحلَّل المواد والعناصر، وأرسى القوانين والنُّظم، وتعلَّم فعَلِمَ، واستقرأ فاستنبط، وجرَّب فاستنتج، وبحث فاكتشف، ونظر فتأمل، وفكر فوصل، وجدَّ فوجد. كل ذلك صحيح، يدلُّ على قدرة الإنسان وقوَّة مداركه وأحاسيسه، ولكن مهما علم الإنسان ومهما اكتشف أو صنع أو اخترع، فإنَّ معرفته لا تُعدُّ شيئاً يذكر، بل تظل ضئيلة، وضئيلةٌ جداً بالنسبة إلى علم الله جل وعلا الذي أحاط بكل شيء علماً. وهذا ما بينه الله لنا في القرآن الكريم على سبيل التقدير، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]. . . وقال تعالى في مكان آخر: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[2]. .

فهذه الآيات تعرض للناس البحر بسعته وغزارته في

(١) لقمان: ٢٧.
(٢) الكهف: ١٠٩.

صورة مداد - أيْ حِبْرٍ - يكتبون به كلمات الله عزَّ وجلَّ التي تدل على علمه، وتعرض لهم الأشجار في صورة أقلام يستعملونها لتلك الكتابة، فإذا المعجزة أنَّ كل ما في الأرض من شجر، لو قُطِعَ وتحوَّل إلى أقلام، وكلَّ ما في الأرض من بحار، لو تحوَّل إلى حبر، بل لو أنَّ البحر نفد ثم جيء بمثله. . . أيْ لَو أمكن حصول كل ذلك كي يكتب الناسُ كلمات الله، الدالة على علمه، لَنَفِدَت الأشجار، والبحار، وكلمات الله، لم تنفد لأنها ليس لها نهاية. . . وما ذلك إلَّا لأن عِلْمَ الله لا يُحدُّ، ولأنَّ إرادته لا تُكف، ولأنَّ مشيئته - سبحانه - ماضية نافذة لا مَرَدَّ لها.

ولقد ثبت للإنسان، من خلال اكتشافاته العلميَّة، أنَّ كل ما في الوجود، من أصغر ذرة في المكان الذي وجدت فيه، إلى أكبر جرم يسبح في الآفاق، إنَّما يسير وفق نظام دقيق، عجيب، كامل الدقة والإحكام، من أبسط دلائله أن هذا التسيير لا يمكن أن يكون بدون خلق الله تعالى وتقديره. . وهذا ما يؤكده القرآن الكريم في أكثر من سورة وآية، وفي مواضع متعددة، طبقاً للسياق والمنهج والغاية. ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(1). . ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(2).

---

(1) القمر: ٤٩. (2) الفرقان: ٢.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[1]. . ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[2]. ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[3]. . .

ومثل هذا الصنع، وهذا التقدير، جاءت الأبحاث والدراسات تؤكده في كل شيء تناولته، سواء تعلق بحياة الإنسان، أم بحياة النبات والحيوان، أم كان يعود إلى الماء والهواء، أو الجبال والرياح، أو إلى الكون كله، وبما في هذا الكون من عوالم، لا يعلم عددها وكُنهها إلَّا الله سبحانه . .

فما من عالم أو باحث، أمكنه معرفة القرآن والوقوف على بعض جوانبه، إلَّا وتأكَّدَ له، بما لا يقبل الشك، أن في القرآن المجيد إشارةً إلى علْمه أو بحثه، وأنَّ ما يشير أو يلمح إليه القرآن الكريم لا يتعارض مع ما توصلت أو قد تتوصل إليه الاكتشافات العلمية القطعية.

فهذا «ألكس لوازمن» يقول: «خلَّف محمد للعالم كتاباً هو آيةُ البلاغة، وسجلُّ الأخلاق، وهو كتابٌ مقدَّس. وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً أو المكتشفات الحديثة، مسألة تتعارض مع الأسس الاسلامية، فالانسجام

---

(١) الرعد: ٨. (٢) الحجر: ٢١. (٣) النمل: ٨٨.

تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية».

ويقول «جوته»: «إن تعاليم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية».

أما عن بعض مزايا القرآن في تفرُّده بخصائص ذاتيَّة، لا يشاركه فيها شيء، فيقول «جيمس متشنر» في مقال له: «لعلَّ القرآنَ هو أكثرُ الكُتُبِ التي تُقْرأ في العالَمِ، وهو بكل تأكيد أيسرُها حفظاً وأشدُّها أثراً في الحياة اليوميَّة لمن يُؤمن به، فليس طويلاً كالعهد القديم.. ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه وتزداد إيماناً وسموًّا.. ومن الملاحظ أن القرآن يتَّسم بطابَعٍ عمليٍّ فيما يتعلق بالمعاملات بين الناس. وهذا التوفيق بين عبادة الإله الواحد، وبين التعاليم العمليَّة، جعل القرآن كتاباً فريداً، ووحدة متماسكة»..

فالرأي الذي بدأ يسود مع تقدم الاكتشافات العلمية وتعاظمها، أن التوافق تامٌّ بين أحكام القرآن ومعطيات العلم الحديث المتعلقة بخلق الكون والإنسان والحياة، وأن في القرآن الكريم أشياء وأموراً متعلقة بخلق وتدبير هذا العالم، لم يتوصل العلم إلى كنهها، ولم يزل قاصراً عن حلِّ مبهماتها.

كلٌّ ذلك يبيِّن حقيقة القرآن الكريم، بل بعض ما تضمَّنه كتاب الله : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾(١) . . .

ومع هذا فإنّ ما يجدر التنبيه إليه، هو أن القرآن ليس كتاباً علميًّا، ولا موسوعة علميَّة، وأنَّ كلَّ ما ورد فيه من آيات تشير إلى الحقائق التي تتعلق بالخَلق، وبالحياة، والإنسان، والكون، إنما ورد بقصد التَّنبيه إلى ما في تلك الحقائق من آثار الإرادة، والقدرة، والعلم، والحكمة، والتوازن، والإتقان، وهذه كلُّها تدل على وجود الله حقًّا، وتنفي كل الفلسفات المادية والجدلية، التي تجعل من المادة وحركتها أصلَ الوجود، وتدور في حلقة مفرغة وعلى شفا جُرفٍ هارٍ سوف ينهار بما تبنيه من أوهامها وأباطيلها.

فكل ما في القرآن تنَزَّلَ ليؤكد حقيقة وجود اللَّه سبحانه، ويدعو إلى التأمُّل والتفكُّر في عظمته، وجلال قدرته. ومن دلائل آياته في الخلقِ، قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾(٢) ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا

---

(١) سبأ: ٦.

(٢) النحل: ١٧.

يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾[1]. . ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾[2]. .

وإنَّ القرآن الكريم، يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المتكررة، قضايا كونيَّة كبرى، يكشف فيها عن القوانين الإلّهية في الوجود، وينشىء بها عقيدة ضخمة شاملة، وتصوراً كاملًا لهذا الوجود. كما يجعل منها منهجاً للنظر والتفكير، وحياةً للأرواح والقلوب، ويقظةً للمشاعر والحواس. . وإنها يقظة لظواهر هذا الوجود التي تطالع النَّاس صباحَ مساءَ، وهم غافلون عنها، ويقظة لأنفسهم وما يجري فيها من العجائب والخوارق. .

ومن أبسط الدلائل، وأقربها إلى واقع الإنسان ووجوده، ما يتعلق منها بخلقه. . أفلا ينظر الإنسان إلى نفسه، ويتساءل مَن خَلَقَه. . ومِمَّ خُلِقَ، وكيف خُلِق؟!. . إنَّ الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان، بقوله الحق: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[3].

---

(١) القصص: ٦٨.

(٢) الحجر: ٨٥.

(٣) الواقعة: ٥٧ ـ ٥٨.

أيُّ دورٍ للبشر في هذا الخلق، سوى أن يُودِعَ الرجلُ ماءً مهيناً، في رحم المرأة، ثم ينقطع عمله وعملها، لتستمر قدرة الله تعالى وحدها، في هذا الماء المهين: تعمل في خَلْقِه، وتنميته، وبناء هيكله، ونفخ الروح فيه، ليستويَ بعد ذلك إنساناً على هذه الصورة الكاملة، وهذا الخلق القويم! ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[1]. ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[2]. ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[3]. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[4]. إذاً فَلينظر الإنسان ممَّ خلق، وليتفكر في آيات هذا الخلق، التي هي أقرب الأدلة إليه، مبثوثة في جسده وفي نفسه، فيقع عندئذٍ على قدرة الخالق، وما أتاه من عجيب الصنع، وقوة التدبير، وجمال الخلق والتقويم..

---

(١) المرسلات: ٢٠ ـ ٢٣.
(٢) القيامة: ٣٦ ـ ٣٩.
(٣) البلد: ٨ ـ ١٠.
(٤) التين: ٤.

والأدلة والشواهد، على ذلك، في القرآن الكريم، أكثر من أن تُعدَّ وتُحصى، فهو يروي لنا أخبار الأمم الغابرة، وما صادفَها في علاقتها الإيمانية، من اهتدائها إلى الايمان بحقيقة وجود الله تعالى، أو ضلالتها الشيطانية، وابتعادها عن الحق إلى الزيف والبطلان..

وإذا كانت تلك الأدلة والبراهين، التي يسوقها القرآن الكريم عن أخبار الماضين، مما لا يقع عليها الحسُّ، أو لا تظهر لنا في الواقع المحسوس، فإنَّ القرآن يستدرك ذلك، ويرينا من الإثباتات والحقائق، ما نقع عليه في كل لحظة من حياتنا، وما نتعايش وإيّاه، في كل حال في هذه الحياة الأرضية.. فكل شيء قريب منا، وكل شيء يقيم أودَ حياتنا، وكل شيء نتعامل معه، وكل شيء يمكن أن ندركه بفكرنا، ونستدل عليه بعقلنا، كل ذلك إنما هو من صنع الله سبحانه، وهو يدلُّنا على هذا الصنع، ويشكل الدليل الثابت أمام حواسنا ومداركنا.. ونحن نرى جميع الأشياء، ونرى صنعَ الله فيها، ولكننا غافلون عن عظمة هذا الصنع، وعن مواضع الإعجاز فيه، لإلفتنا للأشياء، وتعوّدنا المتكرّر عليها.. ومن هنا فضلُ القرآن الكريم علينا بأنه يفتح عيوننا على هذه الأشياء، ويدلّنا عليها،

حتى نطّلِعَ على السرّ الهائل المكنون فيها، بأدق تعبير وأصدق تصوير.

ومن الآيات المبثوثة في وجود الإنسان، والَّتي هي من بديهيَّاتِ حياة البشر، ومن مشاهداتهم المحسوسة، ما يشير به القرآن إلى ما يقع بين أيديهم، وعلى مرأى من عيونهم، ولكنهم غافلون عنه: الحرثُ، وما ينبت منه من شجر ونبات، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾[1].

إنَّهم يحرثون ويُلقون الحبَّ والبذورَ التي صنعها الله، ثم ينتهي دورهم. وتأخذ الحبة أو البذرة طريقها لإعادة نوعها بإذن الله تعالى، تبدأه وتسير فيه سير العاقل العارف الخبير بمراحل الطريق، الذي لا يخطىء مرة، كما يخطىء الإنسان في عمله، ولا ينحرف عن طريقه، ولا يضل عن الهدف المرسوم.

أو ليس الله ـ سبحانه ـ هو الذي يتولى تلك الحبة، أو البذرة، بالعناية، حتى تستوي نباتاً أو شجراً فيراها الإنسان

(١) الواقعة: ٦٣ ـ ٦٥.

في صورة من الصور، وفي نوع من الأنواع؟

ولولّا أننا نرى ذلك واقعاً محسوساً أمامنا، فهل كان يمكن لعقل أن يصدق، أو لخيال أن يتصوّر، أن حبة القمح الميتة، مثلاً، يكمن فيها هذا الْعُود وهذا الورق، وهذه السُّنبلة وهذا الْحَبُّ الكثير؟... أو أن النواة الجافَّة تكمن فيها هذه الشجرة من النخيل أو الزيتون أو التين... وما في كل منها من جذوع وأطراف وأغصان وأوراق، وزهر وثمر؟!..

أو ليس هذا ما يشاهد في كل حين، ويتكرر على مرأى من جميع الناس؟!..

فهل يمكن لأي إنسان أن يدعي بأنه صنع شيئاً من ذلك سوى الحرث وإلقاء البذور التي صنعها الله وكما عَلَّمه الله؟

ويقول الناس: زرعنا!.. وهم لم يتجاوزوا الحرث وإلقاء البذور.. أما الزرع والإنبات والنمو والارتفاع فكلها من صنع الخالق الزارع... ولو شاء لم تبدأ حبة أو بذرة رحلتها، ولم تعرف طريقها.. ولو شاء لجعلها حطاماً قبل أن تؤتي ثمارها... ولكنها، بمشيئته، تتمسك بالأرض

وتتغذى من العناصر التي تمدُّها بالحياة، ثم من الموات يبدأ الخلق الحي، فتبارك الخالق الصانع رب العالمين!.

وفي ذلك يقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾[1]..

يخرج الحي من الميت!...

نعم.. فهذه حبة الحنطة، أو نواة الثمر، إذا وضعت في الأرض، انفلقت من أسفلها وأعلاها، وخرج من الشق الأسفل عروق تأخذ طريقها في باطن الأرض وتتشبث فيها لتستمدّ منها غذاءها، ومن الشق الأعلى تنبت النبتة ثم تصعد فوق سطح الأرض، لتكون نباتاً متفرعاً، أو شجراً باسقاً، وذلك بعد أن تكون الحبة أو النواة الأم قد تلاشت وانتهى شكلها وحجمها...

فهذه الحياة التي خرجت من الجسم الميِّت، بفضل اجتماع عوامل معيَّنة، أليست كلها من تقدير الله العزيز الحكيم؟

وعن النبات أيضاً ورد قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ

(١) الأنعام: ٩٥.

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1]. .

إنها دعوة الخالق للنظر إلى هذا الثمر الذي نأكله دون أن يثير فينا أية هزة تفكير، إنها الدعوة للنظر إلى خروج هذا الثمر نظرَ اعتبار وتفكرٍ وتأمل، كيف كان ابتداء خروجه حين أثمر، ثم اكتماله حين نضج وأينع، وإدراك الكيفية التي اختلفت فيها الأحوال عليه في الصِّغر والكبر، وفي اللون والرائحة والطعم. . أليس في ذلك استدلال على أن لهذا الثمر صانعاً مدبراً؟ فالمؤمنون بالحقائق، به يستدلون، وبمعرفة مدلولاته ينتفعون. .

ومن آيات الله تعالى التي يذكرها القرآن الكريم كثيراً، وَيُردِّد ذكرها، لِمَا لَها من أهمية في حياة الإنسان، بل وفي حياة كل كائن حي: الماءُ، الذي يشربُه الإنسان،

(١) الأنعام: ٩٩.

ويرتوي منه الحيوان والنبات، وبه تمتلىء الأنهار والبحار. .

ألا تقع عليه أبصارنا كلَّ يوم، وهو يشكل المادة الرئيسية والحيوية لأجسادنا، ولجميع مقومات حياتنا؟. . .

هذا الماء الذي نشربه، يسألنا ربُّنا القادر عنه، هل نحن أنزلناه أم هو خالقه ومنزله، وذلك بقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[1].

نعم هذا الماء، الذي هو أصل الحياة وعنصرها، والذي لا تنشأ الحياة إلاَّ به، كما قدَّر الله، ما دور الإنسان فيه؟ دوره أن يشربه، وأن يسقي منه زروعه وأنعامه، أما تركيب هذا الماء، وضرورة وجوده في جسم الإنسان، وفي جسم كل كائن حي، وأما إنشاؤه من عناصره، وتنزيله من سحائبه وغمائمه، فذلك كلُّه يعود إلى الله سبحانه. . ولقد قدَّر تعالى أن يكون هذا الماء عذباً حتى تستوي الحياة في جانب منها بعذوبته، كما قدَّر أن يكون أُجاجاً مِلْحاً، حتى تستوي الحياة في جانب آخر منها (في

(١) الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠.

البحار) بملوحته.. ولو شاء لجعله مِلْحاً كله لا يُستساغ ولا ينشيء حياة، فهلَّا يشكر الإنسان فضل ربه الذي أجرى مشيئته بما كان؟!...

وتُبيّن آيات القرآن الكريم قدرة الله سبحانه ـ في خلق الماء، بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2]...

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3].. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[4]..

---

(١) الفرقان: ٥٣ ـ ٥٥.
(٢) الزمر: ٢١.
(٣) الجاثية: ١٢.
(٤) الشورى: ٣٢ ـ ٣٣.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(١). . .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

حتى الأرض الصلبة الجافة، فإنها تكون هامدة مواتاً، لا حراك فيها، ولا نضارة أو نماء، فإذا خالطَها الماءُ اهتزَّت وتحرّكت بعد سكون، وزهت بعد ذبول، ونمت بعد يباس، فغدت بهجةً بعد كمون، وحركةً بعد همود، بما ينبت فيها من نباتٍ وزهرٍ وشجر. . فسبحان من يذكّر الجاحدين بنعمه، وينذر المنكرين لبعثه، عندما يقول جلَّ وعلا: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٣). لا إله إلا الله، له الحمد والشكر، والنعمة والرضا، على خلقه، وعلى تنزيله، وعلى إحيائه لكل شيء، عندما جعل من الماء كل شيء حي.

---

(١) العنكبوت: ٦٣.

(٢) الأنبياء: ٣٠.

(٣) الحج: ٥ - ٦.

ومثل الماء، يضربُ الله تعالى المثلَ للناس بالنار التي يوقدون، فيسألهم جَلَّ وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾[1]. .

لقد كان اكتشاف الإنسان للنَّار حدثاً عظيماً في حياته، وربما كان أعظم حدث بدأت منه حضارته. ولكنَّ هذه النَّار أصبحت أمراً مألوفاً لا يثير الاهتمام. والإنسان يوري النار ـ أي يُشْعلها ـ دون أن يعلم عن سرها شيئاً. . أما مَنْ أنشأها، ومَنْ أنشأ الشجر الذي توقد به، فإنه لا يتفكَّر فيه، ولذلك يشدّه القرآن، إلى هذا الشيء المألوف في حياته، حتى يتذكر خالقه، وخالق النَّار والشجر، وكلِّ شيء، ثم ليتذكَّر، ـ وهو يرى ما في هذه النار من حرارة وقوة ـ نارَ الآخرة، وما ينتظره، إن لم يكن من المؤمنين، الصادقين، الذي يسيرون وفق أمر الله تعالى ومشيئته، يهتدون بهداه، ويعملون بما يأمرهم به. . . فالله سبحانه وتعالى هو الذي أنشأ الشجر، ومنه أتى الوقود، فكانت النار المعجزة التي ما زال سرها عند العلماء الباحثين

(١) الواقعة: ٧١ ـ ٧٣.

مجالاً للبحث والنظر والاهتمام.. ولكنَّ العلم يؤكد ما جاءت به الآية القرآنية عن مصدر الاحتراق الذي تنشأ عنه النار. فيقول العلماء بأن النَّار هي عبارة عن ظاهرة لتزايد الحرارة الناتج عن احتراق الأجسام. وإن الاحتراق ـ بمعناه العام ـ هو عبارة عن ظواهر كيماوية تحصل عند اتحاد جسم من الأجسام مع الأوكسيجين. ولكن الاحتراق الذي يولد الحرارة إنما يحصل من اتحاد الأوكسيجين مع الكربون. وهذا الكربون موجود في الطبيعة في أجسام مختلفة من الجمادات والأحياء، ولكن أعظم وجوده وأيسره في النباتات. فأنسجة النبات، كلها من الكربون، بل يكاد يكون الكربون العنصر الوحيد في تركيب جسم النبات وغذائه وثماره.

والنَّار من أعظم الضروريات لحياة الإنسان، في دفئه وطعامه وصناعته. ولو وجدت مكوَّنة كالماء والهواء لأهلكت الحياة، وكانت خطراً دائماً عليها. فلينظر الإنسان كيف أعدَّ الخالق عناصرها، وجعلها كامنة في الشجر الأخضر كموناً بالقوة، وسلَّطنا على تَوْريتها (إشعالها) عند الحاجة، وبقدر اللزوم، وجعلها لنا متاعاً (أي وسيلة فائدة ومتعة عيش)، وتذكرةً (نتذكر بها حينما نستخرجها من

مكمنها في الشجر الأخضر الطري المائيّ الذي لا نتوقع كمون النار فيه، نتذكّر قدرة الله تعالى وحكمته في خلق ذلك وإنشائه).

وهذه الحيوانات، من الدواب والطير، قد ذكرها القرآن الكريم في آيات كثيرة، وأشار إلى اختلافها برغم أنها خُلقت من أصل واحد هو الماء والتراب.. وفي خلق هذه الحيوانات، وتكوينها، واختلاف أنواعها وأشكالها، وأقدارها وأعضائها وقواها، وألوانها وأصواتها، ومنافعها ومضارها، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1]...

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[2]...

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[3].. ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ

(١) النور: ٤٥.
(٢) الأنعام: ٣٨.
(٣) فاطر: ٢٨.

﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[1]..

يقول العلم إن العناصر التي تتألف منها أجسام الحيوانات معلومة، وإن كل حيوان نشأ، في الأصل، من تراب هذه الأرض ومائها، ثم تنوَّع بأمر الله وقدرته، وفقاً للقوانين الإلّهية التي تدل على التصميم والإرادة والحكمة.. ولقد تبيّن، من جراء هذه القوانين، ما كشفه العلم، من أن لكل نوع من الحيوانات مخطَّطات أصيلة خلقها الله في البيوض وفي الكائن الْمَنوي. وبهذه المخطَّطات العجيبة يتميَّز كلٌّ جنس عن الآخر بصفاته وخواصه، مع أن كل الحيوانات قد خُلقت من الماء كما يقول القرآن الكريم.

ومن الدلائل التي أشار إليها القرآن الكريم على خلق الله وهداه، ووحيه وإلهامه، ما ذكره عن النحل خاصة، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]..

---

(١) الغاشية: ١٧.
(٢) النحل: ٦٨ ـ ٦٩.

وإنه لَيأخذنَا العجَبُ لَو عرفنا حياة النحلة التي يشير إليها القرآن، وهي في خَلِيَّتها تقسم بيتها إلى غُرَفٍ وفقَ نظام هندسيٍّ عجيب، منها الصغيرة للعمال، ومنها الكبيرة لليعاسيب (جمع يعسوب) ومنها غرف للملكات الحوامل. . ثم إنها تقتسم الأعمال كما تتقاسم المساكن، فمنها ما يقوم بِجَنْيِ الرحيق من رؤوس الأزهار، ومنها ما يقوم بإعداد الغِذاء للصغار فيمضغ لها العسل ليسهل هضمه عليها، فإذا بلغت صغارُها الحدَّ الذي به تستغني عن هذه المساعدة، كفَّت العاملاتُ الطابخاتُ عن المضغ. . ويستمر هذا التعاون الجماعي، من دون أن يتبدل أو يختل، على كَرِّ الأيام والسنين، بدقة لا يتيسر لنا أن نراها، في أحسن مؤسسة اجتماعية يديرها الإنسان العاقل.

هذا بالنسبة إلى سير حياة النحل وطرق عيشها. . .

أما بالنسبة إلينا فلنتأمل بما تقدمه إلينا من الرزق الحسن، من شراب العسل اللذيذ الطعم الذي جعل الله فيه شفاءً من بعض الأمراض. . أو ليس الله سبحانه وتعالى، كما يقول لنا في محكم كتابه العزيز، هو الذي ألهم النحل أن تتخذ لها خلايا في الجبال والشجر وفي

أماكن أخرى؟!. . . فلننظر إلى النحلة وهي تنقلُ رحيقَ الزهر من مساقطهِ بأفواهها، وتحملُهُ من أوراق الشجر وأضغاث النبات، وكل موقع تصلُ إليه، ولنتأمّل كيف تسقطه سقوط الندى في أماكن مخصوصة، وعلى أوصافٍ معلومة، حتى يكونَ عسلاً صافياً، فيه لذة للشاربين، وفيه نماءٌ وشفاءٌ للآكلين. .

وإنَّ هذا العسل الذي تجنيه رحيقاً، من أزهار النبات والشجر، يأتي بألوان مختلفة، فمنه ما هو شديد البياض، ومنه الأصفر، ومنه ما يميل إلى الحمرة أو السمرة، كأنه مزيج من ألوان الأزهار التي تقع عليها. نعم إنَّ هذا العسل يخرج من بطونها، إلاَّ أنها تلقيه من أفواهها كالريق، وإنما قال الله سبحانه «من بطونها»، ولم يقل من أفواهها، لئلا يظن السامعُ أنها تلقيه من فيها ولم يخرج من بطنها، أو أنها تُخْرِجُه من جَوفها كفَضَلات الحيوان. وإنَّ هذا الخروج للعسل من أفواه النحل، هو من خصائصه التي تدعو للاعتبار، لأن جميع الحيوانات النافعة الأخرى تخرج منافعها من غير أفواهها (كالدجاج أو البقر، أو الماعز. . . وما إلى ذلك من حيوانات نافعة). ومن عِبَرِ النحل أو العسل الذي فيه شفاء أنه يخرج من موضع

السم، ومن نفس مكان اللسع عند النحل..

ومن عجائب وبدائع النحل ما ركّب الله في فطرتها من التدبير والتنظيم بحيث جعل لكل فئة يعسوباً هو أميرها الذي يتقدمها، ويحامي عنها ويدير أمورها، وهي تتبعه وتقتفي أثره، ومتى فقدته انحلَّ نظامها، وزال قوامها وتفرقت شَذَرَ مَذَرَ.

إنَّ في ذلك كلِّه لَحُجَّةً دامغةً، ودلالةً واضحةً على وحدانية الله، وجليل قدرته لقومٍ يتفكرون..

ومثل النحل العنكبوت التي تبني بيوتها من لعابها بذلك التنسيق الهندسي العجيب، لتجعلها شباكاً وحبائل لصيد طعامها.

ومن عجيب خلق الله سبحانه تلك الطيور التي يروى أنها تداوي نفسها، إذا كسرت أرجلها، بالتجبير، فتجمِّع على محل الكسر الطينَ والعشب وتقفُ في الشمس حتى يجفّا، فيتكوَّن رباط قوي متين كالجبيرة، تبقيها على العضو المكسور حتى يلتحم ويجبر.

فبأي دافع، بل بأية غريزة، تقوم هذه الحيوانات الضعيفة بأعمالها المدهشة تلك، التي يعجز عنها الفيل، والحصان، والأسد، بل والقرد؟ وما هي العلاقة بين

النحلة والعنكبوت حتى يكون عند كل منها ذلك العلم من الهندسة، والتنسيق في البناء؟ أوليس ربك يخلق ما يشاء؟! أوليس ربك الذي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى؟!..

والأنعام التي ذكرها القرآن الكريم في آيات عديدة، فأي خالق غير الله ـ سبحانه ـ قادر على أن يجمع في هذه الأنعام الضعف والذلة والانقياد، إلى جانب القوة الكافية للحرث والجرِّ والحمل، وأن يجعل فيها ـ في نفس الوقت ـ طعام الإنسان، ولباسه ودفئه، ومسكنه وأثاثه، وربما قضاء كل حاجاته، دون أن تكلِّفَهُ سوى أن يقدم لها بعض الطعام والشراب، أو أن يُطلِقها تقتات العشبَ وحدَها فتأكل من رزق الله وتشرب من مائه؟!. نعم أي خالق غير الله قادر على أن يخلق هذه الأنعام، ويجعلها على هذه الشاكلة كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ

(١) يس: ٧١ ـ ٧٢.

لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾[1].

وفي هذه الآيات البيِّنات يقدِّم الله ـ سبحانه ـ من عجائب الصنعة، وبدائع الحكمة، ودلائل القدرة للمفكِّرين، ما يجعلهم يعترفون ويُقرُّون بوحدانيَّته، ويعتبرون حقّاً بأن القرآن هو كتابه المُبين الذي أراده أن يكون نوراً للناس أجمعين.. فلنتأمل قوله تعالى: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾[2].. نعم الدم يجري في العروق، واللَّبن في الضرع، ويبقى الفرث كما هو ليخرج فضلات. فاللَّبن، بلونه الأبيض وطعمه الخاص، لا يشوبه لون الدم الأحمر ولا رائحته، ولا لون الفرث الأصفر ولا رائحته.. ولقد جاء العلم يوضِّحُ من خلال عملية الهضم التي تحصلُ عند الحيوان، كيف أنَّ طعامَهُ من النبات ـ في الغالب ـ يتحوَّلُ إلى دمٍ يغذي جسمه، وإلى لبنٍ خالصٍ سائغٍ نشربه، في حين تخرج الرواسبُ والبقايا فرثاً...

---

(١) النحل: ٦٦.

(٢) النحل: ٦٦.

طبعاً هنالك عملية الأعضاء الداخلية عند الحيوان، وما لكل عضو من وظيفة يقوم بها، وبنتيجة أداء تلك الأعضاء لوظائفها على الوجه الأكمل، يخرج من طعام الحيوان اللبن السائغ الذي يَمُدُّنا بالغذاء الكامل...

ذلك هو التدبير الإلٓهي. فتأمل أيها الإنسان، في هذه الألوان المختلفة المتنوِّعة من أحمر قانٍ إلى أبيضَ ناصعٍ، ومن أصفر فاقعٍ إلى أصفر قاتم. أيها الإنسان اللاهي السامد المتَّبع لأهوائه، القريب البعيد المنشغل بإشباع شهواته، انْظُرْ إلى ما يحيط بك من قدرة الله العظيم! . وفكِّر في تدبيره، ودقائق خلقه، وعجيب صنعه.

ولو أنّا أمعنّا النظر والتدقيق في آيات القرآن، لوَجدنا أنه يحضُّ على النظرة الشاملة الكاملة حين يقول: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾(1). وفي هذه النظرة الشاملة دعوة إلى ما في آفاق الكون من آيات دالَّة ومعبِّرة، وما في النفوس من آيات تقدِّم الأدلة والبراهين، وكلها تبيِّن للناس أنه الحقُّ من رب السماوات والأرض، ورب الخلق والعباد، ألا إنه هو

(1) الأعراف: ١٨٥

الخالق القدير، وهو رب العالمين..

إن النظر بالعين المبصرة في هذا الكون العجيب، وفي هذا الملكوت الهائل الواسع، يكفي البشرية كي تدرك الحق الكامن فيه، والإبداع الذي يشهد به، والإعجاز الذي يدل على البارىء الواحد الأحد.. كما أن النظر إلى ما خلق الله من شيء يدلُّ على قدرة الخالق، وإحكام صنعه. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ . وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾(1)...

فكل ما في هذه الآيات دليل على مظاهر الهيمنة المتصرفة في المُلك، والقدرة التي لا يقيدها قيد.. والقرآن يوجه النظر إلى خلق الله في السماوات بصفة خاصة، وفي كل ما خلق بصفة عامة، ويلفتُه إلى خلق الله بكماله حتى ليرد البصر عاجزاً كليلاً مبهوراً مدهوشاً لفرط هذا الكمال. فليس في الكون كله خلل ولا نقص ولا اضطراب. ويتحدَّى القرآنُ الإنسانَ أن يرجع البصر مرة أخرى للتأكد والتثبت، فهل يرى من فطور؟ وهل يقع نظره

---

(1) الملك: ٣ ـ ٤.

على شق أو صدع أو خلل؟ ولو أنه أعادَ البصر كَرَّتَينِ، بل أَلْفَ كَرَّةٍ، فإنه سيجد ما وجده في أول مرة من دقة الصنع، والإحكام، ممّا يبهره، ويثير فيه الرهبة والخشوع. .

إن أسلوب التحدي هذا الذي يأتي به القرآن الكريم ليس من غاية له إلاَّ أن يثير الاهتمام والجد في النظر إلى السَّماوات، وإلى خلق الله كله. وهذه النظرة الحادة الفاحصة، المتأملة المتدبرة، هي التي يريد القرآن أن يبعثها، فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الدقيق. . والذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذا الكون ونظامه ـ كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها ـ يدركه الدهش والذهول. . فالجمال في تصميم هذا الكون مقصود كالكمال. بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة. فالكمال يبلغ درجة الجمال، والجمال يبلغُ درجةَ الكمال. ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السموات بعد أن وجه النظر إلى كمالها: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[1]. .

وبمثل هذا الكمال والجمال رفع الله السماوات بغير عَمَدٍ يَراها الناس، فلينظروا إذاً إلى السماء فوقهم ﴿كَيْفَ

---

(١) الملك: ٤.

بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[1] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾[2]. إنه الله يمسك السموات والأرض أن تزولا، وهو الذي قال: ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[3].. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[4]... ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[5]..

---

(١) ق: ٦.
(٢) الفرقان: ٦١.
(٣) يس: ٣٨ - ٤٠.
(٤) يونس: ٥ - ٦.
(٥) لقمان: ٢٩ - ٣٠.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾[1].

هذه آيات من القرآن تدل على ملكوت السموات والأرض، التي هي بيد الله، صاحب الملك، يصرِّفها كيف يشاء بقدرته التي لا تُحَدّ..

وإذا كان القرآن الكريم، قد بيَّن لنا بعضاً من حقيقة هذا الكون، وما فيه من اتساع وشمول، وما يقوم عليه من دقة الصنع، وعجيب الإتقان والإبداع، بما شهد عليه أهل العلم، ولا سيما أولئك الضالعون في علم الفلك، فإنَّ الدراسات ما تزال إلى الآن بعيدة عن إدراك نهاية الكون، أو ما يمكن أن يسمى حقيقة الانقلاب الكوني؟

فالسؤال: هل إن هذا الكون باقٍ، وإلى أي أجل؟

ما من شك، بأن القرآن قد دلّنا على أن الانقلاب الكوني سيحصل لا محالة، ولكن متى، وفي أي دهرٍ،

---

(١) آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.

فهذا ما لا يستطيع أحدٌ الإجابة عليه، لأنه في علم الله وهو عالم الغيب فلا يظهر عليه أحداً.

أما الانقلاب الكوني، فهذه الآيات تدلُّ عليه: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾[1]

ويبدو الانقلاب الكوني، في مطلع سورة التكوير هائلاً مروِّعاً، يشمل الشمس التي بردت وانطفأت شُعلتها، والنجومَ التي اندثرت وانطمس ضياؤها، والجبالَ التي نُسِفَتْ وذرِّيت هباءً في الهواء، وسيِّرت كالسراب، وتَعَطَّلَ حَمْل الإناث من كل نوعٍ من المخلوقات، والوحوشَ الشاردة في الشعاب، وقد تجمعت من الهول وتلاصقت منها الجنوب... والبحارَ التي التهبت مياهها حتى تفجرت بالنيران، وفاضت بالحمم والمحرقات... والأرواحَ المتجانسة وقد انضم بعضها إلى بعض، في زمر وأزواج،

(١) التكوير: ١ - ١٤.

والأنثى التي وئدت في غلظة، وهي وَحدّها التي يسألها خالقها، ويخُصّها بالسؤال، لأنها كانت مظلومة فعلاً، ولم تراعَ حكمةُ القادر من خلقها، ولا إرادته في بثٍّ الحياة فيها كنفس بشرية، فلأجل ذلك يسألها الله تعالى: ما الذي فعلوه بك أيتها الموؤدة، وبأي ذنب قتلوك.. ألا يعلمون أنهم تعدَّوا على حُرمة الله في خلق الله، ولم تكن لديهم أي موازين للحق الذي أراده في خلقه؟!... وها قد جاء اليوم ليكون لهم الحساب على ما أقدموا عليه!..

ويشمل هذا الانقلاب الكوني، أيضاً، نشر صحف الاعمال حتى لا تخفى يومئذٍ خافية، وإزاحة السقف المرفوع في القبة السماوية، وتسعير الجحيم، وإذكاء حرها بوقودها من الناس والحجارة، وتقريب الجنة من السعداء، حتى لتبدو كالعروس في زينتها، مليئة بالرونق والجمال، ومحفوفة بالسعادة والهناءة... كلّ ذلك سوف يكون يوم هذا الانقلاب، يوم تحين الساعة التي لا ريب فيها.. وفي ذلك اليوم تعلم كل نفس ما قدَّمت وأخَّرت، وما أحضرتْ معها من زاد يخفف عنها العذاب، أو ما حملت من معصية تذيقها مرَّ الذل والهوان...

تلك هي بعض آيات من القرآن، بما احتوت عليه

من حقائق مطلقة، حول الكون والحياة والإنسان، وفيها الدعوة الخالصة للإيمان الصادق، بما يُضرَبُ من الأمثال والعِبر والعظات، حتى يهتدي الناس، وخاصة أولئك الذين يلجأون لغير الله ويتخذون من دونه أولياء، فمثلهم ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(١)، أو الذين لا يستشعرون الضعف، فيناديهم الله وهم غافلون، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾(٢)...

فهل بعدُ أبسط من هذا المثلِ، مَثَلِ الذباب، الذي ضربه القرآن على ضعف المخلوق، وقدرة الخالق؟ إنه حشرة الذباب، إذا سلطها الله تعالى على الإنسان، الذي

---

(١) العنكبوت: ٤١.

(٢) الحج: ٧٣ - ٧٤.

يدَّعي القدرة والجبروت، سلبَتْ منه كل تلك القوة، وكل ما لديه من جبروت. . ألا فليتّق الإنسانُ ربهُ، وليعلم أن مرجعه إليه، ليحاسبه على كل شاردة وواردة، بحيث لا يضيع في علم الله، وفي حساب الانسان، مثقال ذرة من خير، ولا مثقال ذرة من شر. . .

وهكذا نجد أن القرآن الذي نزل على النبيِّ الأميِّ صلىَّ الله عليه وآله في الجزيرة الأميَّة، يتناول جميع الحُجج العقلية البالغة، والبراهين الساطعة الدامغة، التي قضى العلماء والحكماء أعمارهم حتى توصلوا إلى بعضها وتلاقوا على النزر القليل منها، بهدي القرآن بل بهدي الله الذي أنار عقولهم، فيقررها بأبلغ عبارة، وأوجز إشارة، وأصدق تشبيه، بحيث يمكن للإنسان العادي أن يلتقط منها ما يتوافق مع فطرته، كما يمكن للإنسان العالم أن يدرك منها ما يقوده إليه فكره، ويستوعبه عقله. . هـذا في حين يبقى القرآن الكريم، كتاب الله الرحيم للإنسان، على مَرِّ الدهور والعصور، كلما جاءت أجيالٌ، كان فيها عالمون يغوصون في أعماق القرآن، وينظرون في لججه، عما يكشف عن الجديد والتوافق مع العصر الذي يعيشون فيه. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ

نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾[1]..

إنه القرآن الكريم الذي هو كتاب الله الحق، وهو الحقُّ من الله.. ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[2]..

رابعاً: الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام

الرسل: بشر اختارهم الله سبحانه وتعالى إلى الناس كي لا تكون لهم حجة يوم القيامة. والإيمان بالرسل يشمل الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين من أولهم الذي هو ابو البشرية آدم إلى ختامهم وآخرهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فيجب الإيمان بكل نبي ورسول سواء بلغتنا أسماؤهم وقصصهم أم لم تبلغنا. والذين قص الله خبرهم في القرآن الكريم ليسوا كل المرسلين بل هم بعضهم، وهناك أنبياء ورسل لم يذكر عنهم شيء في كتاب الله، وهم كثير لقوله تعالى: ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾[3].

(١) العنكبوت: ٤٣.
(٢) آل عمران: ١٨.
(٣) غافر ٧٨.

النبوة اصطفاء لا اكتساب

من المجمع عليه لدى أهل الحق أن الرسالة والنبوة منحة من الله تعالى، وفضل ورحمة يختص بها من يشاء لقوله تعالى في هذه الآية: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾[1] وفي آيات أخرى بذات المعنى. ولا تكون النبوة بالاكتساب من قبل العبد، مهما فعل من الصالحات أو مارس من الرياضات الروحية وغيرها، لأنها فضل الله تعالى آتاه من شاء من عباده الذين اصطفى ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[2]. وهذا الاعتقاد واجب، فمن زعم أنّ النبوة بالاكتساب والرياضة فقد كفر لمعارضته صريح القرآن والسنة وإجماع الأمة الإسلامية.

النبوة والرسالة

الرسول: هو رجل من بني آدم أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه للناس، والنبي: كذلك، ولكنه مأمور بتبليغ شريعة الرسول الذي سبقه أو هو في زمانه، فكلّ من النبي

---

(١) الحج ٧٥.
(٢) الأنعام ١٢٤.

والرسول مأمور بالتبليغ، لذلك كان الأنبياء يتعرضون للأذى وللقتل أحياناً. (الرسول معناه أعم من معنى النبي فكل رسول نبي وليس كلّ نبي رسولاً).

صفات الرسل

إن الإيمان بالرسل يعني وجوب اعتقاد معنى الرسالة والنبوة على النحو الشامل الجامع لجميع الصفات التي يجب أن يتصف بها الرسول، ولا يجوز بحال اعتقاد خلوه عنها.

وهذه الصفات تميز الرسل عن سائر الخلق، وبها فضلهم الله على غيرهم حيث منحهم العصمة، وحفظهم، وأدبهم وخلَّقهم بأحسن الأخلاق، وأنبل الصفات، وأخصها أربع هي:

١ ـ الأمانة

فيجب في حقهم، عليهم الصلاة والسلام، الأمانة، فهم أمناء الله تعالى على الوحي تنزل عليهم، وأمناء على تبليغ رسالات ربهم، مبشرين ومنذرين الناس، فلا يرشدونهم إلا إلى الهدى والخير، ولا يحذرونهم إلا من

الضلال والشر. ومعنى الأمانة واسع يشمل كل شيء من أمور الدين والدنيا، ولذلك يكونون منذ ولادتهم، وطوال حياتهم قبل اصطفائهم، أبعد الناس عن المساوىء والشرور، وأقربهم إلى فطرة الخير التي فطرهم الله تعالى عليها. . ولكن ذلك لا يمنع، قبل اختيارهم للرسالة، من ارتكابهم بعض الأخطاء أو حتى المعاصي، وذلك لتأكيد صفتهم البشرية، وأنهم بشر مثل سائر الناس، وتسري عليهم قوانين الطبيعة الانسانية، كما تسري على أي فردٍ بشري آخر. . وقد بيّن الله تعالى لنا ذلك فيما قصَّ في قرآنه الكريم من أخبار النبيين والمرسلين، كما في خبر أبينا آدم عليه السلام عندما عصى ربَّهُ وأكلَ من الشجرة التي نهاه عنها. إلاَّ أنه بصدق إيمانه عاد واستغفر ربَّهُ ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ (نبياً) فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾(١)، ألا إن الله هو التواب الرحيم.

وكذلك الأمر في قصة موسى عليه السلام، إذ عندما دخل إلى المدينة على حين غفلة من أهلها ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ (من بني اسرائيل)، وَهَـٰذَا مِنْ

---

(١) طه: ١٢٢.

عَدُوِّهِۦ (من أتباع فرعون). ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[1]. وأنكر موسى على نفسه ما فعل، ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[2]. وراح يستغفر رَبَّهُ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3].

هذا كله يؤكد أن الانسان يمكن أن يخطىء أو يرتكب معصية قبل اصطفائه رسولاً، أما بعد الاصطفاء فجميع الرسل والأنبياء معصومون عن الخطأ وعن المعاصي، صغيرة كانت أم كبيرة، وبذلك تستقر صفة الأمانة فيهم، لتلازم نفوسهم في القول والفعل.

٢ ـ الصدق

الصدق في اللغة ضد الكذب، والصدق: مطابقة الخبر للواقع، فيجب في حق الرسل عليهم السلام الصدق، لانهم مبلغون عن الله تعالى، فلو لم يصدقوا للزم الكذب في خبره تعالى. وقد صدَّقهم ربهم

---

(١) القصص: ١٥.
(٢) القصص ١٥.
(٣) القصص: ١٦.

بالمعجزات، ليؤكد للناس صدقهم. وإن تصديق الكاذب لكذب، والكذب على الله تعالى محال، فيستحيل على الأنبياء الكذب، فهم لا يكذبون في دعوة الرسالة، ولا في الأحكام الشرعية، ولا في سوى ذلك، ووجب بالتالي صدقهم.

٣ ـ الفطانة

الفطانة: هي سرعة الفهم، وحدّة العقل وذكاؤه، وقوة النباهة. وهذه صفة ملازمة للرسل، لأن مهمتهم نشر الدعوة وتبليغ الرسالة، وإبطال العقائد الفاسدة، وتلقين العقائد الصحيحة، وهم يكلمون الناس، وفي الناس الغبي والذكي، واللين والجلف، والهادىء والصخّاب، وهذا الخليط المتفاوت من البشر يحتاج إلى الذكاء والتيقظ، فلو كانت في الرسل ـ والعياذ بالله ـ بلادة في الفهم لضاعت الحكمة من إرسالهم، ولما استطاعوا إقامة الحجة على خصومهم. وبما أن الواقع يشهد أنهم قد أقاموا الحجة على المعاندين في نشر الدعوة كما أمروا، فقد ثبت أنهم عليهم الصلاة والسلام في كمال الفطانة، وسرعة البديهة، ورجاحة العقل، وحدة الذكاء والنباهة.

٤ ـ التبليغ

التبليغ: هو إخبار الناس بالوحي الذي أنزله الله تعالى وأمر بتوصيله إليهم، فالرسل مبلغون عن الله تعالى، ولو كتموا شيئاً لخانوا الأمانة وخيانتهم مستحيلة، ولو كتموا لكنا نحن أيضاً مأمورين بكتم العلم، وكاتم العلم ملعون، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[1]، ولو كتموا لأضاعوا المهمة التي جاؤوا من أجلها. ولم يحصل شيء من ذلك كلّه، بل الذي حصل بالفعل هو أن كل رسول ونبي بلّغ ما أمره الله بتبليغه كاملاً غير منقوص..

المستحيل في حق الرسل

يستحيل في حق كل نبي ورسول أضداد الصفات الأربع الواجبة المتقدم بيانها، وهي: الخيانة والكذب والبلادة والكتمان، وكذلك يستحيل عليهم كل نقص بشري يؤدي إلى النفور منهم كالأمراض المنفرة والعادات

---

(١) البقرة: ١٥٩.

المشينة، فهم لا يصابون مثلاً بمرض كالجذام أو البرص أو العمى أو الجنون، ولا بما نسبه بعض جهلة القصاص إلى أيوب عليه السلام من تآكل لحمه وخروج الدود منه، فالأنبياء معصومون عن هذا وأمثاله، وكذلك هم معصومون عن الاتصاف بما يؤدي إلى نفور الناس منهم كالفظاظة وغلظة القلب.

ما يجوز في حقهم

بما أن الأنبياء والمرسلين جميعاً بشر فإنه يجوز في حقهم كل ما لا يؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية، من الأعراض البشرية، فهم يأكلون ويشربون وينامون، ويحزنون ويفرحون ويتألمون، ويتزوجون، ويمرضون مرضاً غير منفر كالحمى. وإن ما يصابون به من بلاء في الدنيا إنما هو لبيان خستها وحقارتها عند الله تعالى، ولذلك لم يرتضِها سبحانه دار بقاء لأنبيائه ورسله، بل جعلها دار ابتلاء لهم وللصالحين المؤمنين لرفع درجاتهم في الآخرة التي هي دار القرار، ومهوى أفئدة الأبرار.

المعجزة

المعجزة: هي أمر خارق للعادة المألوفة يجريه الله

تعالى على يد الرسول تحدياً للمنكرين، ليكون تصديقاً له في دعواه، ويكون بمنزلة قول الله سبحانه: صدق عبدي في كل ما يبلغ عني.

والمعجزة تأييد من الله تعالى لرسله عليهم الصلاة والسلام، تفضل بها عليهم حتى تسهل مهمتهم وتقوم الحجة على معارضيهم، وهي تفيد اليقين لمن شاهدها وعاينها فآمن، وكذلك تفيد اليقين لمن آمن بها عن طريق النقل الصحيح.

ومن المعجزات المشهورة القطعية الثبوت: انقلاب عصا موسى حية، وناقة صالح التي خرجت أمام القوم من الصخرة، وإحياء عيسى للمتوفى، وإبراء الأبرص والأكمه بإذن الله تعالى. ومعجزات محمد ﷺ كثيرة: أعظمها القرآن الكريم، فهو معجزته الخالدة، لأن التحدي به لا يزال قائماً إلى أن تقوم الساعة بقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

ثم إن القرآن ليس مرتبطاً بالرسول ﷺ كبقية

(١) الإسراء: ٨٨

معجزات الأنبياء، فعصا موسى لا تنقلب إلى حية إلاَّ في يد موسى، وهكذا سائر المعجزات. أما القرآن الكريم فكل من تلاه ونقل ألفاظه كما فعل محمد ﷺ فإن الهداية به قائمة، والتحدي موجود، وهو دال على الرسالة من غير حاجة إلى بقاء الرسول ليحمل المعجزة بنفسه، ويتحدى المعاندين. وكل مسلم باستطاعته أن يتحدى بالقرآن، وهذا ما يحصل ولله الحمد.

خامساً: الإيمان باليوم الآخر

اليوم الآخر: هو آخر يوم قبل دخول أهل الجنة الجنةَ وأهل النار النّارَ، ليس بعده يوم آخَر له أول وآخِر، وهو يوم الحساب وليس يوم العمل، وما بعده فثواب أو عقاب.

وهو يوم القيامة، ويوم الدِّين أي الجزاء، ويوم البعث من القبور، وله أسماء أخرى كثيرة. واليوم الآخر حق لا مراء فيه، أمر رب العالمين التصديق به على ألسنة جميع الرسل، وصدق به العاقلون ذوو الفطر السليمة، ولم ينكره سوى الماديين والمستكبرين الذين عميت بصائرهم. ولو لم ترد به النصوص لأدركه العقل السليم وحده، فإننا نجد بعض المحسنين الصالحين يموتون من دون أن يلقوا

جزاء إحسانهم وصلاحهم، كما أن كثيراً من الظالمين يموتون من دون أن يلقوا جزاء ظلمهم، أو أن يقدر أحد من الناس على محاسبتهم، فلو لم يكن هناك يوم يلتقي فيه الخصوم كلهم، ويلقى فيه الصالحون ثوابهم، لكان ما أشرنا إليه واقعاً يرفضه العقل السليم. لذلك كان لا بد شرعاً وعقلاً من وجود يوم للحساب والجزاء، فكان اليوم الآخر الذي جعله الله تعالى مجمعاً للخلق جميعاً، يحاسبون فيه ثم يجزون ما كانوا يعملون في الدنيا.

والإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، لا يقبل الإيمان ولا يصح من دونه. والدليل على ذلك مئات الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي ذكرت اليوم الآخر وصورت ما فيه من أهوال، وحثت الناس على الاستعداد له حق الاستعداد.

فماذا يحدث في ذلك اليوم؟.

١ ـ البعث من القبور

بعد نفخة الفناء الاولى في الصُّور، ينفخ فيه تارة أخرى للبعث من القبور. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ

﴿ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[1]. أي: يخرج الموتى من قبورهم أحياء استعداداً للحشر والحساب. وقد ثبت هذا البعث بنصوص القرآن الكريم.

٢ ـ البعث بالروح والنفس والجسد معاً

ومما يجب الإيمان به أيضاً أن البعث يوم القيامة ليس بعثاً للروح وبالروح فقط كما قال بعض الفلاسفة، بل الواجب اعتقاد كونه بالجسد والنفس والروح معاً. فالناس يبعثون يوم القيامة بأجسادهم وأنفسهم وأرواحهم وذلك بعودة كل من النفس والروح إلى جسدهما ليحيا بهما من جديد، ومن اعتقد أن البعث بالروح فقط فهو كافر لأنه يناقض صريح الآيات القرآنية. والحساب يكون للنفس، فلها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[2].

٣ ـ الحشر والحساب

بعد الخروج من القبور، وانبعاث الناس أحياء مرة

---

(١) الزمر: ٦٨.

(٢) المدثر: ٣٨.

أخرى كما بدأهم الله تعالى أول مرة، يساقون جميعاً إلى المحشر وهو الموقف الذي سيحاسبون فيه، حيث يجمعهم الله تعالى في صعيد واحد ثم يحاسبهم على أعمالهم خيراً أو شراً. وهذا ما يصوره قوله تعالى في سورة الزلزلة حيث قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾[1].

ويكون الحساب لجميع المكلفين من إنس وجان مؤمنين وكافرين، إلا من أمر الله الكريم بدخولهم الجنة من غير حساب تكريماً لهم. وإذا كان من المؤمنين من يدخل الجنة بغير حساب، فهناك من الكافرين من يدخل النار بغير حساب لشدة غضب الله تعالى عليهم ولعظيم إجرامهم. فالمكلفون ثلاث طوائف: طائفة يدخلون الجنة بغير حساب، وطائفة يدخلون النار بغير حساب، وسائرهم يوقفون للحساب وهم الأكثرون.

والحساب يتفاوت بحسب الذين يحاسَبُون، فمنه

(١) الزلزلة: ٦ ـ ٨.

الحساب اليسير، ومنه العسير، ومنه في السر، ومنه في العلن. والحكمة من الحساب إظهار تفاوت المراتب بحسب العمل تحقيقاً للعدل الإلهي في الحكم، وتبياناً لفضله تعالى على المؤمنين، وفي ذلك ترغيب في الإيمان وعمل الصالحات، وترهيب لترك الكفر والمنكرات.

٤ ـ الصِّراط

ثم بعد الحساب يساق المؤمنون إلى الجنة زمراً، ويساق الكافرون إلى النار كذلك زمراً. فيمرون على الصراط، فمن اجتازه وصل إلى الجنة وإلا وقع في النار، فهو جسر ممدود على متن جهنم، يمرّ عليه ويعبر فوقه جميع المكلفين. وقد ورد ذكر الصراط في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾[1]. كما ورد في السنة الصحيحة ذكر الصراط وأوصافه.

ويختلف الناس في المرور على الصراط: فمنهم

---

(١) يس: ٦٦.

من يجتـازه بـأسـرع من طـرفـة عين، ومنهم من يمـر كـالبـرق الخاطف، أوكالريح، أوكالطير، أوكالجواد السابق، ومنهم من يجتازه سعياً أو مشياً، ومنهم من يحبو حبواً. وسبب هذا التفاوت في العبور تفاوتهم في هذه الحياة بالأعمال.

وهكذا فإنَّ من الخلائق من هو ناج، ومنهم من هو واقع في النار وهالك فيها. والحكمة من الصراط أن يفرح المؤمنون بنجاتهم، ويتحسر الكافرون لوقوعهم في النار وهم يرون المؤمنين يمرون سالمين جزاء بما كانوا يعملون.

٥ ـ الجزاء

الجنة والنار

الجنة جزاء المؤمنين، والنار جزاء الكافرين.

و «الجنة» في اللغة العربية هي: البستـان، وفي الاصطلاح الشرعي: هي دار الثـواب التي أعدهـا الله للمؤمنين من عباده لتكون دار قرار لهم خالدين فيها أبداً.

والجنة درجات ومراتب بعضها فوق بعض، لكل درجة منها أهلها حيث تتفاوت مراتبهم فيها بحسب إيمانهم وأعمالهم الصالحة في الدنيا، فأعلى أهل الجنة منزلة هم

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ومن اصحاب المراتب العالية الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لرفع راية الإسلام ولتكون كلمة الله هي العليا. وبالإجمال فمن دخل الجنة فهو سعيد منعَّم ينال فيها ما تشتهيه نفسه وتلذه عينه.

أما النار في اللغة فهي جسم لطيف محرق، وفي الاصطلاح الشرعي هي: دار العذاب التي أعدها الله للكافرين، ولمن يستحق العذاب من المؤمنين بذنوبهم إلى حين، لأنَّ المؤمنين غير مخلدين في النار.

والنار دركات بعضها أسفل من بعض. وأشد أهلها عذاباً هم المنافقون. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1]. وهنيئاً لمن زحزح عن النار وأُدخل الجنة.

الجنة والنار حقيقتان

مما يجب اعتقاده شرعاً كون الجنة والنار من الأمور الحقة الموجودة فعلاً بعد بعث الناس، وأنهما ليستا من نوع الخيال ولا المجاز، وأن النعيم في الجنة نعيم حقيقي محسوس، يتنعم به المؤمنون بحواسهم، ويتلذذون

(١) النساء: ١٤٥.

به حقيقة، فهم يأكلون من ثمارها، ويشربون من أنهارها، ويتمتعون فيها بكل الطيبات التي أعدّها الله تعالى لهم، وأن العذاب في جهنم عذاب حقيقي أيضاً، فهي نار حقيقية تحرق الجلود والأكباد وتؤلم من يلقى فيها أشد الألم. وقد ثبت ذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾(١).

ومما يجب الإيمان به أيضاً كون النعيم والعذاب دائمين، لا ينتهيان ولا ينقطعان ولا يفنيان، فالنعيم في الجنة دائم لأهلها إلى ما لا نهاية، وكذلك العذاب لأهل النار دائم إلى ما لا نهاية. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾(٢).

---

(١) محمد: ١٥. (٢) النساء: ١٢٢.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[1]. والخلود في النار يكون للكافرين فقط. أما عصاة المؤمنين الذين أُدخلوها بسبب ذنوبهم فإنهم لا يخلدون فيها، بل يُخرجون بعد ذلك، ويُدخلون الجنة ليخلدوا فيها.

لذلك كان زعماً كاذباً قول الزنادقة: إن النعيم والعذاب معنويان، وتفسيرهم العذاب بأنه الحجب عن الله تعالى، وقولهم إن ما جاء في الآيات من أصناف النعيم والعذاب ما هي إلا تعابير مجازية. ففي قولهم هذا كفر بواح يعارض صريح الآيات والأحاديث، ويخرج عن إجماع المسلمين على فهم تلك الآيات، مع أنها من الحقائق المطلقة، ولم ترد على سبيل المجاز، باعتبار أن زعمهم ذاك يؤدي إلى تعطيل اللغة وصرفها عن معناها الأصلي من دون صارف.

فنسأل الله تعالى الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، ونعوذ به تعالى من النار وما قرب إليها من قول أو عمل.

---

(١) الأحزاب: ٦٤ ـ ٦٥.

سادساً ـ الإيمان بالقدر

لا ريب بأن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان. والقدر يعني أن كل شيء يوجد، أو فعل يفعل، إنما هو بتقدير الله تعالى، سواء أكان من أفعال العباد وكسبهم أم لم يكن، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[3]..

وعلى كلّ مسلم أن يؤمن، شرعاً، بقضاء الله وقدره، إلاَّ إذا كان من أولئك المضلّلين، الذين تاهوا عن معنى الإيمان ومعرفة أركانه. وقد انقسم المضلّلون هؤلاء إلى فئتين، بشكل عام: فئة تبطل أمر الله تعالى بقضائه وقدره كالذين قالوا: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا»[4]. وفئة تنكر قضاء الله وقدره السابق. وهاتان الفئتان خصماء لله رب العالمين. قال عوف بن مالك: «من كذب بالقدر فقد

---

(١) القمر: ٤٩.
(٢) الأحزاب: ٣٨.
(٣) الأعلى: ٣.
(٤) الأنعام: ١٤٨.

كذب بالإسلام، إن الله تبارك وتعالى قدر أقداراً وخلق الخلق بقدر، وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى». وقال الإمام أحمد بن حنبل: «القدر قدرة الله». واستحسن ابن عقيل هذا الكلام وقال: «هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين، وهذا حق لأن إنكار القدر إنكار لقدرة الله على خلق أعمال العباد وكتابتها وتقديرها».

وفسّر عبدالله بن عباس (رضي الله عنهما) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[1] بقوله: هم الذين يقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

وقد دار حول القضاء والقدر ومعانيهما جدل كبير، وذلك منذ زمن بعيد. وكان محور ذاك الجدل «أفعال الخلق الاختيارية»، فتفرق الناس في ذلك فرقاً، وذهبوا مذاهب شتى.

ونحن في كلامنا عن القضاء والقدر لن نسترسل في

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) آل عمران: ١٦٥.

بيان مذاهب الفرق المتعددة وأقوالها، لعدم الجدوى من ذلك، ولكننا سوف نبين بعضاً ممن اشتهر أمرها، لأن الغاية التي نتوخاها هي تحذير الناس من الضلال وأهله، ودلالتهم على الطريق الصحيح للإيمان بهدي الله تعالى الذي ينجي من الانسياق مع تيارات الكفر، ومعتقدات الإلحاد، التي تؤدي بأصحابها إلى الانزلاق في مهاوي الجحيم الأبدي، في الدار الآخرة.

القضاء والقدر

١ - كيف نشأت مسألة القضاء والقدر
٢ - المقصود بخير القدر وشره
٣ - معاني القدر
٤ - معاني القضاء
٥ - القضاء والقدر اصطلاحًا
٦ - مراتب القضاء والقدر
٧ - المشيئة والقدر
٨ - الكسب والجبر
٩ - الهدى والضلال
١٠ - انتهاء الأجل
١١ - الرزق في يد الله تعالى
١٢ - فهم الصحابة للقضاء والقدر

القضاء والقدر

١ ـ كيف نشأت مسألة القضاء والقدر.

إن مسألة «القضاء والقدر»قد بحثَها الفلاسفة اليونان وأطلقت عليها ثلاث تسميات: «القضاء والقدر»، «الجبر والاختيار»، «حرية الإرادة»، وكلها تدور حول ما يَحدث من الإنسان من أفعالٍ، وهل هو حرٌّ في إحداثِها أو عدم إحداثها، أم أنه مُجْبَرٌ على القيام بها؟.

وقد اختلف الفلاسفةُ اليونان في نظرتهم إلى هذه المسألة؛ فرأى الأبيقوريون(١) أن الإرادةَ حُرة في الاختيار، والانسان يَفعل جميع الأفعال بإرادته واختياره دون أي

(١) الأبيقوري. هو المنسوب إلى أبيقورس الذي يقوم مذهبه على اسعاد الذات بلذة معنوية يكون الانسان حاذقاً في اختيارها عارفاً في دقائق قيمها، إذاً، الانسان هو الذي يختار.

إكراه. أما الرِّواقيُّون(1) فقد قالوا بأن الإرادة مُجْبَرةٌ على السير في طريقٍ لا يمكنها أن تتعداها، والإنسانُ لا يفعل شيئاً بإرادته وإنما هو مجبورٌ على فعلِ أيٍّ شيء، ولا يملك أن يفعل أو لا يفعل.

وقد تأثر الفلاسفة المسلمون بالفلسفة اليونانية، وكانت أهم المسائل التي شغلت أفكارهم مسألة صفة العدل الإلهي.. فالله تعالى عادلٌ، ويترتَّب على العدل الإلهي مسألةُ الثَّواب والعِقاب، كما يترتب عليه مسألة قيام العبد بأفعاله، وذلك جَرْياً على منهج البحث الذي ساروا عليه في بحث المسألة وما يتفرع عنها، وتأثرهم بما درسوه من أفكار فلسفية تتعلق بالموضوعات التي انكبوا على درسها وتفنيدها والرد على الفلاسفة اليونان، أحياناً، بشأنها. ويُعتَبرُ المُعتزِلةُ هم الأصل في بحثِ مسألةِ القضاء والقدر بل في جميع أبحاث علم الكلام. فقد كانت نظرةُ المُعتزِلة إلى عدلِ

(1) سموا بالرواقيين لأن زينون الفيلسوف صاحب هذا المذهب كان يعلم تلاميذه في رواق. والرواقي يرى أن السعادة في الفضيلة وهو لا يفرح بشيء أتاه، ولا يحزن على شيء فقده، لأن الانسان جزء من الكون، ويرى أن كل ما يقع في الطبيعة إنما هو بتأثير القدر أي بتأثير ما قدره العقل الكلي منذ الأزل، فإذاً هو مسير ولا دخل له في كل ما يجري له.

الله تعالى نظرةَ تَنزيهٍ له عن الظُّلم، ووقفوا أمامَ مسألة المَثُوبة والعُقوبة الموقفَ الذي يتَّفق مع تَنزيه الله تعالى ومع عَدله. فَرأَوا أنَّ عدلَ الله لا يكون له معنى إلا بتقرير حُرية الإرادة في الإنسان، وأنَّه يختار أعمالَ نفسِه، وأنَّ في إمكانه أن يَفعل الشيءَ أو لا يفعل، فإذا فعلَ بإرادته، وتركَ بإرادته كانت مَثُوبتُه أو عُقوبتهُ معقولةً وعادلة، أما إن كان الله سبحانه يخلق الإنسان ويَضطرُّه إلى العمل على نحوٍ خاصٍّ، فَيضطَرُّ المطيعَ إلى الطاعةِ، والعاصي إلى العصيان، ثم يعاقِبُ هذا ويُثيب ذاك، فليس هذا من العدالة في شيء.

والمعتزلة في هذا النمط من التفكير كانوا يقيسون المغيَّب على المشاهد، بمعنى أنهم حاولوا أن يقيسوا الله تعالى الذي لا يَرونه، على الانسان، وأن يخضعوه سبحانه - عز وجل - لقوانين هذا العالَم، تماماً كما فعل فريق من فلاسفةِ اليونان الَّذين أَلْزَمُوا الله بالعدل كما يَتصوَّرُه الانسانُ. فأصلُ البحثِ هو الثَّوابُ والعِقابُ من الله على فعلِ العبد، وهذا هو موضوعُ البَحثِ الذي أُطلِق عليه اسمُ «القَضاء والْقَدر» أو «الْجَبْر وَالاختيار» أو «حُرِّيَةِ الإرادة». وبَحثوا في الإرادة وفي خَلْقِ الأفعالِ.. ففي

مسألة الإرادة قالوا: إنَّا نرَى أن مُريدَ الخير خيِّر، ومُريدَ الشرِّ شِرِّيرٌ، ومُريدَ العدل عادلٌ، ومريد الظلم ظالمٌ. فلو كانت إرادة الله جلَّ وعلا تَتعلَّق بكلِّ ما في العالَمِ من خيرٍ وشرٍّ، لكان الخيرُ والشرُّ مُرادينِ من الله تعالى، فيكون المُريدُ مَوْصوفاً بالخيريَّة والشرِّية، والعدلِ والظلمِ، وذلك محال في حقِّ الله سبحانه. وهم يقولون بأنَّ الله لو كانَ مُريداً لِكُفْرِ الكافر وعصيان العاصي ما نَهاهما عَنِ الكُفرِ والعِصيان. وكيف يُتَصَوَّرُ أَنْ يُريد الله من أبي لَهَبٍ أَنْ يَكفر ثم يأمُره بالإيمان وينهاه عن الكفر؟ ولو فعل هذا أحد من الخلق لَكانَ ظالماً. تعالى الله عن ذلك عُلوّا كبيراً. ولو كان كُفْرُ الكافرِ وعصيانُ العاصي مُرَادَيْنِ من الله تعالى ما استحقَّا عُقوبةً، ولَكان عملُهما طاعةً لإرادته. وهكذا يمضون في الاسْتِدلال في قضايا منطقيَّة، ثم يعقبون ذلك بأدلَّةٍ نَقليَّةٍ من القرآن الكريم، فيستدلُّون بقولِهِ تعالَى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[1] وبقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2] وبقوله تعالى:

---

(١) غافر: ٣١.

(٢) الأنعام: ١٤٨.

﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾[1]. وأوَّلوا ما وردَ من آيات تخالف رأيَهم هذا، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2] ومثل قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾[4] وخَلَصُوا من ذلك إلى الرأي الذي اعتنقوه ودَعَوا له، وهو رأيهم المعروف من أن الإنسان له حُرِّيةُ الإرادة في أن يفعلَ الفعل أو يتركَهُ، فإذا فعل فبإرادته، وإذا ترك فبإرادته.

أما في مسألة خلْقِ الأفعال فقد قال المعتزلةُ: إنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ لهم، ومن عَمَلِهم هم، لا من عمل الله تعالى. ففي قُدرتِهم أنْ يَفعلوها وأنْ يتركوها من غير دخلٍ لقدرة الله. ودليل ذلك ما يَشعر به الإنسان من التَّفرقةِ بين الحركة الاختياريَّة والاضطراريّة كحركة من أراد أن يحركَ يده أو كحركة الْمُـرتعِش، وكالْفَـرق بين الصاعِـد إلى

(١) الزمر: ٧.
(٢) البقرة: ٦.
(٣) البقرة: ٧.
(٤) النساء: ١٥٥.

منارة والساقط منها. فالحركةُ الاختياريةُ مقدورة للانسان فهو الذي يُنْشِئها ويَفعلُها، والحركةُ الاضطرارية لا دَخْلَ له فيها. وأيضاً لـو لم يكنِ الإنسان خـالقَ أفعالـه لَبَطَل التكليفُ، إذْ لَو لم يكن قادراً على أن يَفعل، وألَّا يَفعل، ما صَحَّ عقلاً أن يقال له: إفعلْ ولا تَفعلْ، وَلَمَا كان هذا الفعل محلَّ المدحِ والذَّمِّ، والثَّوابِ والْعِقاب. وهكذا يمضون في الدّلالة بقضايا مَنطقيَّةٍ على رأيهم، ثم يُعقِبون ذلك بأدلَّة نَقليَّة فَيستدلُّون على رأيهم هذا بآيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾[3]، وأوَّلُوا ما ورد من آيات تُخالِفُ رأيَهم هذا مثل قولِهِ تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[5]وخلصوا من ذلك إلى الرأي الذي اعتنقوه في

(١) البقرة: ٧٩.
(٢) النساء: ١٢٣.
(٣) غافر: ١٧.
(٤) الصافات: ٩٥.
(٥) الرعد: ١٦.

مسألة خَلْقِ الأفعال، وهو أن الانسانَ يَخلق أفعال نفسه، وأنه قادر على أن يفعل الشيء وقادر على أن لا يفعلَه.

هذه هي مسألة «القضاء والقدر» في رأي المعتزلة، وفَحواها أنها إرادة فعلِ العبد، وما يحدث في الأشياء من خاصيات نتيجة فعلِ الانسان. وفحوى رأيهم أن العبد حُرُّ الإرادة في أفعالِه كلِّها، وأنَّه هو الَّذي يخلق أفعالَهُ، ويخَلق الخواصَّ الَّتي تحدث في الأشياء من أفعالِه.

وهذا الرأي من المعتزلة أثارَ ثائرة المُسلِمين، وكان رأياً جديداً عليهم، ورأياً جريئاً في أساس العقيدة. ولذلك انبَروا يردُّون عليه. فقام جماعة يُسَمَّوْنَ «الجبريَّة»، ومن أشْهَرِهم جَهْمُ بنُ صفوان، فقال هؤلاء الجبريون: إن الانسان مُجْبَرٌ، وليست له إرادةٌ حُرَّةٌ ولا قدرةٌ على خلْق أفعالِه، وهو كالرِّيشة في مَهبِّ الرِّيح، أو كالخشبة بين يَدي الأمواج، وإنما يخلق الله الأعمالَ على يدَيه. فالله هو خالقُ فعلِ العبدِ، وبإرادتِه وحدَهُ فعلَ العبدُ الفعلَ. ويرَون أن أفعال العبادِ واقعةٌ بقُدرة الله وحدها وليس لِقُدرةِ العبد تأثيرٌ فيها، وليس الانسان إلا محلاًّ لما يُجْريهِ الله على يَدَيْهِ فهو مُجْبَرٌ جَبْراً مُطلقاً، وهو والجماد سواء لا يختلفان إلا في المظهر!. وهكذا يمضون في البرهان على رأيهم

ويستدلون عليه كذلك بآيات من القرآن الكريم، مثلَ قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[4].

القدرية: وهم أصحاب معبد الجهني، وقد زعموا أن علم الله تعالى لم يسبق وجود الأشياء عند حدوثها، لذلك عرف عنهم قول «الأمر أُنُفٌ» أي يستأنف الله علم الأشياء عند حدوثها، ولا علم له بها قبل ذلك. وهذا قول باطل، وكفر صريح، لأنه ينسب إلى الله تعالى الجهل بالأشياء قبل حدوثها. ويقولون إن الله خلق أصول الأشياء ثم تركها فلا يعلم جزئياتها. ويقولون إنَّ أفعال الله ليست عن علم سابق، ولا عن تدبير سابق ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وهذا كله يخالف ما ورد بنص القرآن الكريم

---

(١) الانسان: ٣٠.
(٢) الأنفال: ١٧.
(٣) القصص: ٥٦.
(٤) الرعد: ١٦.

من أن الله خالق كل شيء، صغيراً كان أم كبيراً، أصلاً كان أم فرعاً، وأنه تعالى قدَّر كل شيء قبل وجوده، أي كتبه في اللوح المحفوظ، أي عَلِمَهُ قبل أن يوجد. هذا والقدرية يتركون للإنسان تقدير أعمال نفسه بعلمه، ثم يتوجه إليها بإرادته، وينفذها بقدرته!.

على أن أتباع «القدرية» انقرضوا جميعاً، ولم يبق أحد من المسلمين، والحمد لله، على هذا المذهب الذي يقود إلى الكفر والإضلال.

الأشاعرة: وهم فريق من أهل السنة والجماعة. يقولون: إن «القضاء» هو إرادة الله أزلاً المتعلقة بجميع الأشياء، خيرها وشرها، على ما هي عليه، أي في الواقع. وأما «القدر» فهو، في رأيهم، إنجاز قضائه تعالى، وإخراجه إلى حيز الوجود على قدر مخصوص.

الماتريدية: وهم فريق آخر من أهل السنة والجماعة، يقولون: «القدر» هو تحديد الله تعالى أزلاً لكل مخلوق بحدِّه الذي يوجد عليه من صورة، وحسن وقبح، وغير ذلك، فيرجعون «القدر» إلى علم الله تعالى، ويرجعون «القضاء» إلى القدرة. ويقولون: القضاء هو إيجاد الله

الأشياء مع زيادة الإحكام والإتقان.

ويتلخص قول الأشاعرة والماتريدية بما يلي:

يجب الإيمان بأن الله تعالى علم وأراد جميع الموجودات وقضى بها، ثم تعلقت قدرته سبحانه بها فأوجدها على ذلك القدر المحكم: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[1]. وليس للإنسان إلا الكسب الذي به يثاب وعليه يعاقب. والخالق لكل شيء هو الله سبحانه وتعالى.

وفي الواقع إن المعاني التي أطلقها الأشاعرة والماتريدية حول كل من «القضاء» و «القدر» لا تؤدي إلى اعتقاد فاسد كما فعل المعتزلة والجبرية والقدرية..

٢ ـ المقصود بخير القدر وشره وحلوه ومره

إن القدر من حيث هو علم الله تعالى وقدرته ومشيئته لا شرَّ فيه بوجه من الوجوه، بل هو خير محض، وإنما يدخل الشر الجزئي الإضافي في الشيء المقضي والمقدَّر، ويكون شراً بالنسبة إلى محل، وخيراً بالنسبة إلى

(١) القمر: ٤٩.

محل آخر، وقد يكون خيراً بالنسبة إلى المحل القائم به من وجه، كما هو شر له من وجه آخر، بل هذا هو الغالب، وذلك كالقصاص فإنه شر بالنسبة إلى من يقام عليهم من وجه، وخير بالنسبة إلى غيرهم من وجه آخر، لما فيه من مصلحة الزجر والردع عن ارتكاب الجنايات.

أما الحلاوة والمرارة فتعودان إلى مباشرة الأسباب في العاجل، والخير يرجع إلى حسن العاقبة، والشر إلى سوئها. فالقدر حلو ومر في مبدئه وأوله، وخير وشر في منتهاه وعاقبته. وقد أجرى الله تعالى سنته ان حلاوة الأسباب في العاجل تعقب المرارة في الآجل، وأن مرارتها في العاجل تعقب الحلاوة في الآجل، فحلو الدنيا مرٌّ الآخرة، ومر الدنيا حلو الآخرة، يؤيده قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «حجبت الجنة بالمكاره، وحجبت النار بالشهوات»، أي: أن احتمال ما تكرهه النفوس في العادة من مشاق الطاعات، والكف عن المحرمات هو الفاصل بين الإنسان والجنة فإذا اخترقه دخلها، وأن الانغماس في لذائذ الشهوات العاجلة هو المؤدي في العاقبة إلى النار. وقد قال تعالى عن الكافرين المغرورين بمتاع الحياة

الدنيا: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

٣ ـ معاني القدر

لكلمة «القَدَر» عدةُ معانٍ: يقال في اللغة «قدَر الأمرَ وقدَّره: دبَّره، والشيءَ بالشيء: قاسَهُ وجعلَه على مقدارِه. وقدَر الشيءَ قدارةً: هيَّأه ووقَّته. قَدَر قَدْرَ الله: عظَّمه. وقدَر الله عليه الأمرَ وقدَّر له الأمر: قضَى وحكَم. قدَر وقدَّر على عياله: ضيَّق. وقَدَرَ الشيء أي قدَّرَهُ.

ووردت كلمة «قَدَرَ» في القرآن الكريم بعـدة معانٍ. قـال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[2] أي أمراً مُبْرَماً أو قضاءً محكماً. وقال تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾[3] يعني: فضيق عليه رزقه. وقال تعالى: « فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[4] أي: وفق أمرٍ محتومٍ قدَّره الله في سابق علمه وكتبه في اللوح المحفوظ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان. وقال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾[5] أي: أقوات أهلها ومن

---

(١) النحل: ١١٧.
(٢) الأحزاب: ٣٨.
(٣) الفجر: ١٦.
(٤) القمر: ١٣.
(٥) فصلت: ١٠.

هم عليها من انسان وحيوان، بما يخرج منها من ماء وغذاء. وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾[1] أي: فكَّر ذلك الكافر ماذا يقول حين يصف القرآن، وقدَّر في نفسه ذلك وهيَّأه. وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[2] أي: خلَق كل شيء فسواه على شكله الخاصِّ به، وقدَّر لكل حيوان ما يُصلحه فهداه إليه وعرَّفه وجه الانتفاع به. يعني جعل في كلِّ حيٍّ من إنسان وحيوان حاجات تتطلَّب الإشباع وهداه إلى إشباعها. وقال تعالى: ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ﴾[3] أي: جعلنا فيها سهولة السير وأمنه. وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[4] أي: تقديراً وتوقيتاً. وقال تعالى: ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[5] أي: إلى وقتٍ معلوم. وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾[6] أي: جعلْنا تقديرَ الموت بينكم على تفاوت في الاعمار، فاختلفت أعماركم بين قصيرٍ وطويلٍ ومتوسط. وقال تعالى: ﴿ وَمَا

---

(١) المدثر: ١٨.
(٢) الأعلى: ٢ - ٣.
(٣) سبأ: ١٨.
(٤) الطلاق: ٣.
(٥) المرسلات: ٢٣.
(٦) الواقعة: ٦٠.

نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[1] أي: بمقدار معروفٍ معيَّن. وقال تعالى: ﴿ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[2] أي: كان تقديرنا أنها من الماضين على الضلال. وقال: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾[3] أي: أتيت في الوقت المعينِ الذي سبق في علمنا.

يتبيّن من هذا كلِّه، أن كلمة «قدَر» من الألفاظ التي لها عدة معانٍ، منها التقديرُ والعلمُ والتدبيرُ والوقتُ والتهيئةُ. ولكن على تعدد هذه المعاني لم يرد فيها أن القدرَ معناه أن يفعل العبد الفعل جبراً، بل إن هذه المعاني كلها لغوية ليس لها أي معنى شرعي، ولا يمكن أن يُبنى عليها أي حكم شرعي عن طريق التأويل أو التفسير لأن ذلك يؤدي إلى الابتعاد عن تلك المعاني اللغوية، والدخول في تفسيرات المتكلمين وتأويلاتهم بما لا يتفق مع نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

---

(١) الحجر: ٢١.
(٢) الحجر: ٦٠.
(٣) طه: : ٤٠.

٤ - معاني القضاء

يقال في اللغة قضى يقضي قضاءً الشيءَ: صنعَه بإحكام. وقضَى بين الخصمَين: حكمَ وفَصَل، والأمرَ أمضاه.

وقد وردت كلمةُ القضاء في عدة آيات قرآنية فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1] أي: إذا أبرم أمراً فإنه يدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف. وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾[2] أي: جعل لهذا المخلوق الذي خلَقه من طين، وهو الانسان، أجلًا يموت فيه. وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾[3] أي: أمر أمراً مقطوعاً به أن تعبدوه ولا تعبدوا غيره. وقال تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ ﴾[4] أيْ أوجد السَّماءَ بإحكام حال كونها سبع سماوات، وقال تعالى: ﴿ لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾[5] أي: ليمضيَ قضاءَهُ الذي لا رادَّ له.

---

(١) البقرة: ١١٧.
(٢) الأنعام: ٢.
(٣) الإسراء: ٢٣.
(٤) فصلت: ١٢.
(٥) الأنفال: ٤٢.

وقال تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾(١) أي: أُتِمَّ الأمر، وهو أمر إهلاك الظالمين وتدميرهم، وفُرِغَ منه بإهلاكهم وتدميرهم. وقال تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ﴾(٢) أي: إنه أمر الله تعالى لنبيه محمد ﷺ بأن يقول للكفار المشركين أنه لا يملك من الأمر شيئاً، بل الأمر كله مرده إلى الله تعالى، ولو كان يملك شيئاً مما يستعجلون به من طلب العذاب أو إنزال العقاب بهم لكان انتهى الأمر، ولكنتم هلكتم أيها الكافرون، ولكن الهلاك ليس بيدي، بل هو بيد الله تعالى. وقال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا﴾(٣)، والحتمُ مصدر حتمَ الأمر إذا أوجبه أي: مقضيا محكوماً به وكائناً لا محالة.

وعلى هذا فإن كلمة قضاء من الألفاظ التي لها عدة معانٍ منها: صَنَعَ الشيءَ بإحكام، وأمضى الأمر، وجعلَ الشيء، وأمرَ بأمر، وأتمَّ الأمر، وحتم وجود الأمر، وأبرم الأمر، وانتهى الأمر، وحكم بالأمر، وأمر أمراً مقطوعاً به.

---

(١) هود: ٤٤.

(٢) الأنعام: ٥٨.

(٣) مريم: ٧١.

وهكذا فكلمة «قضاء» لها معانٍ لغوية، استعملها القرآن الكريم في هذه المعاني، ولم يكن هنالك خلاف حول تلك المعاني التي وردت فيها، حتى جاء المتكلمون وبحثوا في «القضاء والقدر» بحثاً عقلياً فحوَّلوا الآيات القرآنية عن معانيها اللغوية والشرعية.

٥ ـ القضاء والقدر اصطلاحاً

لقد وردت كلمة «قضاء» وحدها في جميع النصوص، وكذلك وردت كلمة «قدر» وحدها. أما ورود مصطلح «القضاء والقدر» بجمع الكلمتين معاً كأنهما اسم واحد، واعتبار الأمرين متلازمين ولهما مدلول معيّن.. فإن هذا المصطلح لم يظهر له في السابق أي أثر.

ومن تتبع أقوال الصحابة والتابعين ومَن أتى بعدهم من العلماء، ومن تتبع النصوص الشرعية واللغوية كذلك، يظهر أن الكلمتَين معاً لم يَجْرِ استعمالُهما مجتمعتين بهذا المدلول، لا في القرآن، ولا في الحديث، ولا في كلام العلماء. وكذلك لم يَجْرِ أي خلاف أو نقاش في هاتين الكلمتين كاسمٍ واحد، ولا في مُسَماهما، ولم يعرف المسلمون طوال عصر الصحابة، أي طوال القرن الأول،

بحث «القضاء والقدر». وقد جرى استعمال تعبير «القضاء والقدر» بعد ترجمة الفلسفة اليونانية، وبعد وجود الفرق الكلامية.

وأما ما روي على لسان بعض الصحابة الكرام، مثل الامام علي والخليفة عمر وأبي عبيدة رضي الله عنهم جميعاً، من أنهم قالوا بالقضاء والقدر بالمفهوم الذي طرحه المعتزلة، فغير صحيح، بل الحقيقة أن الذي ورد على ألسنتهم لم يخرج عن مفهوم ما ورد في الكتاب والسنة.

قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1].
وقال تعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[2].

وإن الخلاف أو النِّقاش الذي دار إنما كان في كلمة قدَرِ الله بمعنى علمِه. فالقدرية يقولون: إن الله يَعلم أصول الأشياء ولا يَعلم جزئياتها، والاسلام ينطق بأن الله يعلم أصول الأشياء وجزئياتها. فالنِّقاش في قدَر الله يكون

---

(١) الأنعام: ١٠١.
(٢) الأنعام: ٥٩.

إذاً في علمهِ، أي في موضوع عِلْمِ الله تعالى. وهو موضوعٌ آخرُ غير موضوع القضـاء والقدر، لأنـه بحثٌ منفصلٌ عن بحث القضاء والقدَر، وواقعُه الذي حدَث فيه هو كذلك، أي هو بحث آخر غير بحثِ القضاء والقَدر.

وبهذا يظهر أن كلمتي «قضاء» و «قدر» قد وردتا، وكـان لـكـلٍّ منهـما معـنىً معينٌ، فـلا علاقـة لهمـا في بحث «القضاء والقدر». فكلمةُ «قضاء» بجميع معانيها اللغوية والشرعية التي وردت عن الشارع الأقدس، وكلمةُ «قدَر» بجميع معانيها اللغوية والشرعية التي وردت عنه تعالى، لا علاقة لأي منهما - لا منفردتين ولا مجتمعتين - في بحث القضاء والقَدَر، وإنما يُقتصر فيهما على ما ورد من معنىً، لغةً وشرعاً لأيٍّ منهما.

ومن هذا المفهوم الاصطلاحي لكلمتي «القـضـاء» و «القدر»، يتبين أن المسألة كلها كانت عبارة عن أبحاث جاءت من الفلسفة اليونانية، وبرزت أثناء الجدل الذي كان يحصل بين المسلمين والكفار الذين كانوا يتسلحون بالفلسفة اليونانية. وبما أن «للقضاء» أو «للقدر» معنى يتعـلـق بالعقيدة، فكان لا بد من اعطاء رأي الإسلام في هذا المعنى،

علماً بأنّ كثيراً من الفرق التي بحثت فيه لم تتوصل إلى المفهوم الحقيقي الذي ينطبق على النظرة الاسلامية الصحيحة. فالمعتزلة أعطوا فيه رأياً، والجبرية ردّوا على المعتزلة وأعطوا فيه رأياً آخر، وأهل السنة ردوا على الجميع وأعطوا رأياً قالوا عنه إنه رأي ثالث خرج من بين الرأيين، ووصفوه «بأنه خرج من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين».

والحقيقة أنه لا يجوز إرجاع مسألة «القضاء والقدر» إلى ما ورد عن معنى «القضاء» في اللغة والشرع، ولا إلى ما ورد عن معنى «القدر» في اللغة والشرع، ولا يجوز أن يُتخيَّل ويُتصوَّر للقضاء والقدر معنى يؤتى به من مطلق الفرض والتصور والتخيّل: فيقال إن القضاء هو الحكم الكلي في الكليات فقط، والقدر هو الحكم الكلي في الجزئيات، أو يقال إن القدر هو التصميم الأزلي للأشياء، والقضاء هو الإنجاز والخلق بمقتضى ذلك التقدير والتصميم.. لا يقال ذلك، بل ولا يجوز أن يقال ذلك لأنه مجرد تخيّل وتصور ومحاولة للتمحُّل في تطبيق بعض الألفاظ اللغوية والشرعية، وهي محاولة فاشلة لأنها لا تدل

على هذا المعنى، بل هي تدل على معانٍ عامة ولا يجوز تخصيصها بمعانٍ أخرى من غير دليل.

وكذلك لا يجوز أن يقال إن «القضاء والقدر» سرٌّ من أسرار الله وإننا نهينا عن البحث فيه. لا يقال ذلك لأنه لم يرد نص شرعي على أنه سرٌّ من أسرار الله، فضلاً عن أنه موضوع محسوس ويجب أن يعطى الرأي فيه، لأنه في الواقع بحث عقلي، وموضوع يتعلق بالأمور التي يبحثها العقل، لا من حيث كونها واقعاً محسوساً وحسب، بل ومن حيث تعلقها بالإيمان بالله تعالى.

٦ ـ مراتب القضاء والقدر

للقضاء والقدر، أي للأمور المقضية وللأمور المقدرة، أربع مراتب يجب الإيمان بها، وهي:

المرتبة الأولى: علم الله سبحانه وتعالى بالأمور قبل حدوثها.

المرتبة الثانية: كتابة الله تعالى لها قبل حدوثها.

المرتبة الثالثة: مشيئته تعالى وإراداته لها.

المرتبة الرابعة: خلقه تعالى لها.

أما المرتبة الأولى، وهي علمه تعالى بالأمور قبل وجودها، فقد اتفق عليه جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وقد أجمع على ذلك المسلمون من الصحابة والتابعين بإحسان من الأمة، ولم يخالف في ذلك سوى القدرية الذين نفوا علمه تعالى بالأمور والأشياء قبل حدوثها، وهم كفار بالإجماع بسبب اعتقادهم ذاك.

فالحق الذي لا ريب فيه أنه تعالى بكل شيء عليم، ولا يغيب عن علمه شيء، ولا تخفى عليه خافية، وما من شيء حدث ويحدث أو سيحدث إلا سبق في علمه سبحانه وتعالى. والآيات الواردة في بيان علم الله تعالى، آيات دالّة على إحاطة علمه سبحانه بكل شيء. قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[2]. وقال تعالى:

---

(١) الحديد: ٢٢.

(٢) التوبة: ٥١.

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1].

إن منطوق هذه الآيات، ومفهومها، ودلالتها، ناطقة كلّها بأنها بيان لعِلْمِ الله تعالى، ولا علاقة لها ببحث «القضاء والقدر».

وكذلك الآية المباركة: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[2]، فإنه لا دخل لها في بحثِ القضاء والقدرَ لأنها ردٌّ على الكُفَّار الَّذين يفرِّقون بين السيِّئة والحسنة فيجعلون السيِّئة من الرَّسول ﷺ والحسنة من الله تعالى، فيردُّ عليهم الله بأن الكلَّ من عند الله. والحديث ليس في الحسنة التي يفعلها الانسان والسيِّئة التي يباشرها، بل الحديث في القتال والموت. والآيةُ نفسُها وما قبلَها تبين ذلك، فقد قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟

(١) سبأ: ٣.

(٢) النساء: ٧٨.

يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[1]، فالموضوع إذن يتعلق بما يصيبهم لا بما يفعلونه، ولهذا لا دَخْلَ لهذه الآيات في بَحث القضاء والقدرَ.

وأما المرتبة الثانية: وهي مرتبة الكتابة، فهذه أيضاً لا خلاف فيها، والنصوص عليها متضافرة، منها ما جاء في الحديث المتفق على صحته من قوله ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء». والذكر: هو اللوح المحفوظ، فكل كائن إلى يوم القيامة مكتوب فيه. وأما «أم الكتاب» فقد روي عن ابن عباس أنه اللوح المحفوظ، والصحيح أنه ما سبق في علمه تعالى. و«الكتاب» هو اللوح المحفوظ. فالله سبحانه وتعالى كتب وأثبت في اللوح المحفوظ كل ما سبق في

---

(١) النساء: ٧٧ ـ ٨٠.

علمه أنه سيكون من الوحي ومقادير الأشياء وأمور الخلق وأحوالهم. أي: كلّ شيء. وقد ذكرنا في المرتبة الأولى السابقة بعضاً من الآيات المبينة الدّالة على علم الله سبحانه وتعالى.

وأما المرتبة الثالثة: وهي مرتبة المشيئة فقد دل عليها إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام، واتفاق جميع الكتب المنزلة من عند الله تعالى، وكذلك الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والأدلة العقلية والعيان المشاهَدُ. فمما لا شك فيه ان ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا عمود التوحيد الذي لا يقوم التوحيد إلّا به، والمسلمون مجمعون على ذلك، والآيات والأحاديث الدالة على مشيئته تعالى المطلقة التي لا رادَّ لها كثيرة لا تحصى، فكل ما يقع بالفعل فهو بمشيئته تعالى، وما لم يقع فلعدم مشيئته ولو شاءه لكان. وهذه حقيقة الربوبية ومعنى كونه «رب العالمين، «والقيوم» القائم بتدبير عباده، فلا مالك غيره ولا مدبر سواه. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[1]. وقال: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾[2] وقال:

(١) القصص: ٦٨.
(٢) الحج: ٥.

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

وأما المرتبة الرابعة: وهي مرتبة خلقه تعالى الأشياء وإيجادها فهذا متفق عليه من جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، وبه تنزلت الكتب السماوية؛ وكل ما يقوم به العباد من قول وفعل، وكسب وحركة وسكن، فإنه هو سبحانه الذي أقدرهم على ذلك، وشاءه منهم وخلقه لهم. ومشيئة العباد وأفعالهم تكون بعد مشيئة الله تعالى، فلا يشاؤون إلا أن يشاء الله كما سيأتي في فصل «المشيئة والأمر» التالي. فأفعال المكلفين داخلة تحت قدرته ومشيئته كما دخلت تحت علمه وكتابته.

وخلاصة هذه المراتب الاربع هي وجوب الإيمان بأن الله تعالى كتب في اللوح المحفوظ ما سبق في علمه أنه كائن، وأنه ما من شيء يحدث في الوجود إلا بمشيئته وإرادته وبخلقه وتكوينه، فلا خالق غيره ولا راد لمشيئته سبحانه وتعالى.

٧ ـ المشيئة والأمر

لما كانت مسألة القضاء والقدر من أدق مسائل

---

(١) يس: ٨٢.

العقيدة، وقد يصعب على كثير من الناس أن يحيطوا بها علماً على النحو الصحيح، فقد رأينا أن ننبِّه إلى نقطة مهمة في هذا الباب تزول بمعرفتها إشكالات كثيرة هي «المشيئة والأمر». وملخص القول فيها:

أن الله سبحانه له الخلق والأمر. وأمره تعالى نوعان: أمر تكوين يعقبه الخلق، وأمر تشريع.

فأمر التكوين نافذ حتماً: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(١).

وأما أمره التشريعي أي الوارد في شريعته تعالى فقد يخالفه المكلف ويعصيه.

وإرادته تعالى نوعان كذلك: إرادة تكوين وإرادة تشريع، فما أراده من الخلق كان خلقاً، وما أراده من الشرع كان شرعاً.

فمشيئته تعالى متعلقة بخلقه وأمره التكويني كما هي متعلقة بأمره التشريعي، وبما يحبه ويكرهه، فكله داخل تحت مشيئته تعالى، ولا يوجد شيء إلا بإرادته سبحانه.

أما محبته تعالى ورضاه فمتعلقة بأمره الديني

(١) يس: ٨٢.

التشريعي فقط، فما وجد من أمره الديني التشريعي تعلقت به المحبة والمشيئة جميعاً فهو محبوب له تعالى، وهو واقع بمشيئته: كطاعات الأنبياء والمؤمنين، وما لم يوجد منه فقد تعلقت به محبته وأمره الديني ولم تتعلق به مشيئته وإلا لكان.

وأما ما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي فهو مما تعلقت به مشيئته ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني، وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته.

فلفظ «المشيئة» تكويني ولفظ «المحبة والرضا» ديني شرعي. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[(١)]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[(٣)].

فمشيئته تعالى موجبة لكل موجود، كما أن عدم مشيئته موجب لعدم وجود الشيء. فما شاء الله وجب وجوده، وما لم يشأ وجب عدمه وامتناعه. وهذا أمر يعم كل

---

(١) الزمر: ٧.
(٢) البقرة: ٢٠٥.
(٣) الزمر: ٧.

مقدور من الأعيان والأفعال والحركات والسكنات.

أما المحبة فليست موجبة لشيء، فلا يلزم من محبته تعالى شيئاً أن يكون حتماً، فالله يحب الهدى من كل ضال، ولكن الهدى لا يكون إلا ممن شاء الله له ذلك.

٨ ـ الكسب والجبر

معناهما لغة واصطلاحاً:

من معاني «الكسب» في اللغة: السعي والعمل، وهو المراد هنا، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾[1]. وهذا السعي هو كسب العبد الذي يُسأل عنه، كما قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[2].

أما «الجبر» فإنه يرجع في اللغة إلى ثلاثة أصول: أحدها: الإغناء من فقر وجبر العظم، وثانيها: العز والامتناع. وهذان الاصلان لا علاقة لهما بما نحن فيه. فما يهمنا هو الأصل الثالث لمعنى «الجبر» وهو: الإكراه

---

(١) النجم: ٣٩ ـ ٤٠.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

والقهر، يقال: أجبرته على كذا إذا أكرهته عليه.

وقد أطلق كل من أصحاب الفرق لفظ «الكسب» على معنى يوافق مذهبه، فهو عند «القدرية» (نفاة القدر): وقوع الفعل بإيجاد العبد وإحداثه ومشيئته، على سبيل الاستقلال، من غير أن يكون الله شاءه أو أوجده. والكسب عند الجبرية -نفاة الاختيار عن العبد- لفظ لا معنى له ولا حاصل تحته، فلا كسب للعبد على الحقيقة عندهم لأنه مُجْبَرٌ على فعل ما يفعل، وهو كالريشة في مهب الريح. وهذان المذهبان ضلال لا يجوز اعتقادهما.

أما عند أهل الحق فالكسب هو فعل العبد لأفعاله حقيقة. فالله هو الذي جعل العبد فاعلاً بقدرته ومشيئته وأقدره على الفعل وأحدث له المشيئة التي يفعل بها. فالإنسان فاعل في الحقيقة بمعنى مكتسب، ويمتنع أن يكون محدثاً لأفعاله خالقاً لها. وألفاظ القرآن والسنة كثيرة في نسبة الأفعال إلى العبد باسمها العام وأسمائها الخاصة. فالاسم العام كقوله تعالى ﴿تفعلون. تعملون تكسبون﴾. والأسماء الخاصة كقوله ﴿يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويجاهدون إلخ﴾.

والكسب، كما هو واضح، يقتضي حتماً وجود الاختيار لدى العبد في أن يفعل أو أن لا يفعل. ولذا فإن المدقق في أفعال العباد يرى أن الإنسان يعيش في دائرتين إحداهما يسيطر عليها وهي الدائرة التي تقع في نطاق تصرفاته، وضمن نطاقها تحصل أفعالُه التي يقوم بها بمحض اختياره، والأخرى تسيطر عليه وهي الدائرة التي يقع هو في نطاقها، وتقع ضمن هذه الدائرة الأفعال التي لا دَخْلَ له بها، سواء أوقعت منه أو عليه.

والأفعال التي تقع في الدائرة التي تسيطر على الإنسان والتي لا دَخْلَ له بها، ولا شأن له بوجودها، هي قسمان: قسم يقتضيه نظام الوجود مباشرة، وقسم لا يقتضيه نظام الوجود مباشرة.

القسم الأول: هو الأفعال التي تقتضيها أنظمة الوجود، ويخضع لها الإنسان خضوعاً تاماً، فهو يسير بحسبها سيراً جبريّاً، لأنه يسير مع الكون ومع الحياة طبق نظامٍ مخصوص لا يتخلَّف. ولذلك تقع الأعمال في هذه الدائرة على غير إرادةٍ منه، وهو فيها مُسَيَّرٌ وليس مُخَيَّراً. منها: أنه أتى إلى هذه الدنيا على غير إرادته وسيذهب عنها على غير إرادته. ومنها أنه لا يستطيع أن يطير بجسمه

المجرد في الهواء، ولا أن يمشي بوضعه الطبيعي على الماء، ولا يمكن له أن يَخلق لونَ عينَيه، ولا أن يوجد شكلَ رأسه ولا حجمَ جسمِه. وإن الَّذي أوجـد هذا كلَّه هـو الله تعالى دون أن يكون للعبد المخلوق أيُّ أثرٍ، ولا أيُّ علاقة في ذلك. لأن الله هو الذي خلق نظام الوجود، وجعلَ هذا الوجود يسير بحسبه، ولا يملك الانسان التخلُّف عنه.

القسم الثاني: هـو الأفعال التي ليست في مقدور الإنسان، والتي لا قِبَلَ له بدفعها، ولا يقتضيها نـظام الوجود. وهي الأفعالُ التي تحصل من الانسان أو عليه جبراً ولا يملك دفعها مطلقاً، كما لو سقط شخص عن ظهر حائط على شخصٍ آخر فقتلَه، أو أطلق شخصٌ النَّار على طير فأصاب إنساناً لم يكن يعلم بوجوده فقتلَه، أو تدهور قطارٌ، أو سيارةٌ، أو سقطت طائرةٌ، لخَللٍ طارىء لم يكن بالامكان تلافيه فتسبب عن هذا التدهور والسقوط قتلُ الرُكاب، وما شاكل ذلك.. إن هذه الأفعال التي حصلت من الانسان أو عليه على غير إرادة منه وليس بمقدوره تلافيها، هـي داخلة في الدائرة التي تسيطر عليه، وليس له فيها أي اختيار، ولذلك لا يحاسب الله العبد على هذه الأفعال

مهما كان فيها من نفع أو ضرر أو حُبٍّ أو كراهية بالنِّسبة للإنسان، أي مهما كان فيها من خيرٍ أو شرٍّ حسب تفسير الإنسان لها، فالله وحدَه هو الذي يَعلم الشرَّ والخير فيها، لأن الإنسان لا أَثَرَ له بها ولاَ يَعلم عنها ولا عن كيفية إيجادها شيئاً، ولا يَملك دَفْعها أو جلْبَها مطلقاً. ولذلك لا يُثاب ولا يُعاقب عليها.

أما الأفعال التي تقع في الدائرة التي يسيطر عليها الانسان فهي الافعال التي يقوم بها مختاراً ضمن النِّظام الذي يختاره سواء أكان شريعة الله أو غيرها. وهذه الدائرة هي التي تقع فيها الأعمال التي تصدر من الإنسان أو عليه بإرادته، فهو يمشي ويأكل ويشرب ويسافر في أي وقت يشاء، ويمتنع عن ذلك في أي وقت يشاء، وهو يُحْرِقُ بالنَّار ويَقطع بالسِّكين كما يشاء، وهو يُشبع جوعة غريزةِ النَّوع بالزواج، أو جوعة غريزة حُبِّ البقاء بالتملُّك، أو جوعة المعدة بالطَّعام كما يشاء، يفعل مختاراً ويمتنع عن الفعل مختاراً. ولذلك يُسْأَلُ عن الأفعال الَّتي يقوم بها ضمن هذه الدائرة، فيُثاب على الفعل إن كان مما يستحق الثَّواب، ويُعاقب عليه إن كان مما يستحق العقاب.

إن الإمام جعفراً الصادق (ع) عندما سمع مقال الجبرية ومقال القدرية، قال: «لا جبر ولا تفويض[1] ولكن أمر بين أمرين».

هذا هو الفهم الصحيح والصادق، الذي انطلق من الإمام الصادق، بإيجازه الرائع ليبين لنا معاني «القضاء»، و «القدر».

ونحن، والحمد لله، قد فصّلنا مضامين هذا العنوان العريض: «أمر بين أمرين» عندما قلنا بأن هناك مباشرة أفعال من الإنسان، وهناك خلق أفعال من الله سبحانه وتعالى. فالمباشرة من الإنسان يدل عليها قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾[2].

وفي المباشرة أيضاً قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾

---

(١) لا جبر ولا تفويض أي أن الله سبحانه وتعالى لم يجبر الخلق على أفعالهم حتى يكون قد ظلمهم في عقابهم على المعاصي، بل لهم القدرة والاختيار فيما يفعلون، ولا فوَّض الله سبحانه وتعالى إليهم خلق أفعالهم حتى يكون قد خرج من سلطان قدرته على عباده، بل له الخلق والأمر، وهو قادر على كل شيء، ومحيط بجميع العباد.

(٢) النجم: ٣٩ ـ ٤١.

وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنٰهَا ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[2].

وأما خلق الأفعال فمن الله سبحانه. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾[3]. وفي هذا الخلق أيضاً الذي تختص به قدرة الله وحدها، قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[4].

وهكذا فالآيات كثيرة وكلها تصب على هذين المعنيين: مباشرة الإنسان للأفعال، وخلق الله تعالى للأفعال. والامام الصادق عندما قال: «أمر بين أمرين» كان قصده أن الأفعال التي تصدر عن الإنسان ليست من هذا الإنسان فقط، بل هي منقسمة إلى أفعال يأتيها الإنسان بصورة جبرية ومفروضة عليه، وأفعال فوَّضهُ الله

---

(١) الشمس: ٩ ـ ١٠.
(٢) الإسراء: ١٣ ـ ١٥.
(٣) النجم: ٤٣ ـ ٤٦.
(٤) الشمس: ٧ ـ ٨.

تعالى وخيّره بين اتباعها أو تركها. وهذه الأخيرة هي التي تميّز الناس عن بعضهم، وتبين حقيقة النوايا والسلوك الذي يسلكه كل فردٍ في حياته.

وبهذا المفهوم نصل إلى الحقيقة الجلية التي تمكن الإنسان من فهم واقعه كإنسان، وتعرفه على حقيقة أفعاله وما يترتب عليها من نتائج.

وتتوضح لنا هذه الحقيقة أكثر بما أبانه لنا الإمام الحسن عليه السلام عندما قال: «من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر، ومن حمَّل ذنبه على ربه فقد فجر. إن الله لا يطاع استكراهاً، ولا يعصى لغلبة، لأنه المليك لما ملّكهم، والقادر على ما أقدرهم، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا، وإذا لم يفعلوا فليس هو الذي أجبرهم على ذلك. فلو أجبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب، ولو أجبرهم على المعاصي لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم لكان عجزاً في القدرة. ولكن له فيهم المشيئة التي غيّبها عنهم، فإن عملوا بالطاعات كانت له المنّة عليهم، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجّة عليهم».

٩ ـ الهدى والضلال

إنَّ الإنسان ـ مهما كانت المثل التي يؤمن بها، أو القيم التي يسعى إلى تحقيقها ـ قد يخطىء القول، وقد يخطىء في التصرف، وقد يكون ذلك عن قصدٍ ـ أحياناً ـ أو عن غير قصد.. فالمهم أنه يخطىء، لأنه محكوم بتصرفاته البشرية، إذ العصمة هي من عند الله تعالى يهبها لأنبيائه في دنيا الأرض.. على أن الإنسانَ ـ وفي محاولة تبرير أخطائه، إن كُشِفت له ـ يحبُّ أن يُسند كل خطأ ارتكبه إلى غيره، أو إلى ظرف خارج عن إرادته، في حين أنه لو كان منصفاً لَلَجأ دائماً إلى الاعتذار وتمَّنى أن يُقبَل عذرُهُ.. كل ذلك يفعله لأنه تواقٌ إلى تأمين الراحة الجسدية والاستقرار النفسي، ولأنه يحبُّ أن يبتعدَ عن كل ما يظنُّ أنه يسلُبُه راحَتَهُ واستقراره...

وانطلاقاً من هذه الميول عند الإنسان فإنك تجده، في الغالب، قد غَلَبَ عليه اعتقاده بأن لا إرادةَ له فيما يقوم به من عمل غير مَرْضي. وهذا ما يبدو واضحاً لك عندما تبدأ محاورته كي تصل به إلى إطاعة الله سبحانه، والسَّير وفق أوامره، والابتعاد عن نواهيه، لأنه يجيبك قبل أي تفكير أو

تأمل، ومن غير تروٍّ: «أنا على ذلك، حتّى يهديَني الله».. فتقول له: ولكن الله تعالى هداكَ ودلَّكَ على طريق الرشد، عندما بعث سيدنا محمداً، صلّى الله عليه وآله وسلم، وأنزلَ عليه القرآن الذي يتضمن الهداية والإرشاد.. فيجيبك على الفور: كلا هذا غير صحيح.. وإلاَّ فكيف يقولُ الله في القرآن نفسه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[1]؟!...

ومنعاً لمثل هذا الالتباس الذي يقع فيه الإنسان، نقدم شرحاً موجزاً عن الهدى والضلال مؤيّداً بقرائن عقلية وقرائن شرعية..

لقد عَرَضنا من قبل لمسألة القضاء والقدر، تلك المسألة التي أثارت جدلاً طويلاً في كثيرٍ من الفلسفات القديمة والحديثة، وكانت موضع دراسات من قبل المفكرين ورجال الدين، بل وموضع نقاشٍ بين الإنسان وبين نفسه، كلَّما مرَّ معه، أو حصل أمامَهُ، حادثٌ لا يستطيع إدراك السِّر من حدوثه.

---

(١) فاطر: ٨.

ولكن يبـدو أن جميع الآراء توزعت حول الهدى والضلال في اتجاهين:

ـ **الأول**: هو القائل بأن الإنسانَ مسيَّرٌ بمشيئة الله وقدره، وأن كلَّ ما يأتيه أو يقع عليه يكون محكوماً به، من غير أن تكون له إرادة أو اختيار فيه.

والثاني: هو القائل بأنَّ الانسان هو الذي يملك الزمام في تسيير شؤون أموره وحياته، وإلَّا لماذا أعطيَ له سلطان الإرادة وقوة الإدراك والتمييز؟ وعليه فهو الذي يختار سلوكه وتصرفه بوحيٍ من ذاته، ودفعٍ من ملكاته وطاقاته...

وبمقتضى الاتجاه الأول، فإنَّ هدى الإنسان وضلالَهُ أمران من مشيئة الله، بينما هما، بحسب الاتجاه الثاني، حادثان من الإنسان، ونابعان من نفسه...

والحقيقة أنه وردت في القرآن الكريم نصوص كثيرة على الهدى والضلال، والتنسيق بين مدلولاتها جميعاً، يبيِّن المدى الذي يكون فيه الإنسانُ خاضعاً، شاءَ أم أبى، لقدر الله تعالى فيه. وفي الوقت نفسه يدلُّ هذا التنسيق أيضاً على المدى الذي تُرك فيه للإنسان أن يعمَلَ، ولكن ضمنَ ذلك القدرَ وحتميته.. فالله ـ سبحانه وتعالى ـ خلقَ

في الإنسان طاقات يمكنه بواسطتها أن يتعرف على بعض الحقائق التي تتعلق بنفسه، وبحياته، وبوجوده، بل وبقوانين الكون ونظمه... ولكنَّهُ لم يؤتَ القدرةَ على إدراك الحقائق المطلقة ومعرفة كنهها، ولا على الإحاطة بأسرار الغيب التي تلفُّهُ من كل جانب، ومنها، على سبيل التذكير، حقيقة روحه... فالإنسان مهما بلغ من العلم والمعرفة، ومهما قد يبلغ، فإنه يظل عاجزاً عن إدراك السر الكبير الذي يتعلّق بالروح: ما هي هذه الروح؟.. وأين مقرها في الجسد؟... وما هو دورها في حياة الإنسان، والكائن الحي؟... وإلى أين تصير بعد موته في هذه الدنيا؟... فهذه أسئلة سوف تظل تواجِهُ الإنسان، وسوف يظل عاجزاً عن الاهتداء إلى حقيقتها، بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]؛

إذاً فالإنسان يقف حائراً أمام حقائق كثيرة، منها ما يختص بكينونته وحياته وخَلقه، ومنها ما يتعلق بنظم الكون والوجود، وهو يحتاج فيها كلّها إلى هدى الله تعالى، وبهذا الهدى يمكن أن ينظِّم واقع حياته، وأن يكتشف ما

---

(١) الإسراء: ٨٥.

في الكون من عوالم وأسرار، وأن يعمل بالتالي للقاء ربه راضياً مرضياً. . .

وهذا الهدى الذي يحتاجُهُ الإنسانُ هو تعبيرٌ عن مشيئة الله التي يجري بها قدَرهُ في الكائن الحي، لأنه هو ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[1]. .

وإنّ مشيئة الله هذه هي أن يخلق هذا الإنسان باستعدادٍ مزدوج: للهدى والضلال، وأن يودِع فيه الفطرة لإدراك حقيقة الرُّبوبية الواحدة والاتجاه إليها، مع إعطائه العقل المميِّز، الذي بواسطته يمكن أن يقدِّر كل أمرٍ، ويحكم على صوابه أو خطأه، هذا فضلاً عما بعثَ من رُسُلٍ بالبيّنات والآيات التي توقظ الفطرة إذا غفت، وتهدي العقل إذا ضلَّ. . .

إذاً فالإنسان أوتيَ جميعَ السُّبل التي تمكِّنه من أن يسير وفق مشيئة الله تعالى وإرادته، ولكن ضمن إطار استعداده المزدوج للهدى والضلال الذي فُطِرَ عليه. على أنَّ إرادة الله سبحانَهُ وتعالى، لا يمكن أن تهدف إلاَّ إلى خير الإنسان، وأنَّ مشيئته لا يمكن أن تكون إلاَّ لصالحه.

العقل والمنطق يقولان بذلك، وإلاَّ فكيف كان خَلْقُهُ

(١) طه: ٥٠.

في أحسن تقويم؟ ولماذا كان منحه كلَّ تلك القدرات والطاقات والملكات التي تعزّز وجوده في حياته؟ ولماذا كان إيلاؤه لأجلٍ مهمة يمكن أن تسند إلى مخلوق باستخلافه في الأرض؟... أو ليست هذه كلها تثبت قطعاً بأن الله سبحانه وتعالى ما شاءَ إلاَّ أن يكون الانسانُ ذلك المخلوق المميَّز الذي يستطيع أن يعرف ما هو الهدى والضلال، وأن يفرِّق بينهما، ثم يختار وفقاً لاستعداده المزدوج للهدى والضلال الذي حمله معه حين خُلِق؟...

أو ليست حكمةُ الله سبحانَهُ قد قضتْ بأن يعرف الإنسان قيمة خلقه، وقيمة ما منح له من عطاءات، وأهمية تخصيصه بالاستخلاف؟ وإلاَّ فما الفرق بين إنسان لا يدرك معاني هذه القيم وغاياتها، وإنسان آخر أدركها وعرفها، فعمل بوحيها؟ وما الفرق أيضاً بين إنسانٍ مهتدٍ وبين إنسانٍ ضالّ؟...

من هنا كانت مشيئة الله وإرادته أن يكون الإنسان مخلوقاً باستعداده المزدوج للهدى والضلال حتى يكونَ عدلُ الله سويّاً، فلا يؤخذ الجميع، بمبرَّة الهدى، ولا يؤخذ الجميع بمضرَّة الضلال، بل يكون لكل إنسان ما سعى...

على أنَّ ذلك لا يعني أن الإنسان مسؤولٌ عن الخلق، أي عن خلق الأشياء والأفعال، لأنَّ خلْقَ الفعل هو من الله سبحانه وتعالى، والإنسان ليس مسؤولاً عن خيره أو عن شرِّه. إلَّا أنَّ مباشرة الفعل هي من الإنسان، وبالتالي يكون مسؤولاً عن خير هذا الفعل أو شره بعد تلك المباشرة.. وبمعنى آخر، لقد أودَعَ الله سبحانه في الإنسان العقل، وأعطاه كافة الأجهزة للرؤية والسمع والإحساس... وذلك من أجل أن يميِّز، وأن يدرك الآيات المبثوثة في حياته، وفي الكون، وأن يعيَ رسالات الرُّسلِ التي توصي بالهدى... فبات عليه أن يعمل، بعد ذلك كله، وأن يجاهد للهدى.. وقد قضت مشيئة الله سبحانه أن يجري قدرُهُ بهداية من يجاهد نفسه في سبيل الهدى، وأن يجري قدرُهُ بإضلال من لا يستخدمُ ما أودعَهُ فيه، وما منَحهُ وأعطاه، كي يهتدي..

إذاً، فالأمْرُ كلُّهُ يعودُ لمشيئة الله سبحانه، فلا يقع شيء إلَّا أن يوقِعَهُ قدَرُ الله، لأنه ليس في الوجود مشيئة أخرى تجري وفقها الأمور، كما أنه ليس هناك قوة، إلا قَدَر الله، تُنشيء الأحداث. وفي إطار هذه الحقيقة يتحرك الإنسان بنفسه، ويقع ما يقع له من الهدى والضلال..

كما أن مشيئة الله هي في خلق كل شيء، وهي وحدَها التي تتحقق في كل الحالات ولا يتحقق سواها. وبمقتضى هذه المشيئة، من يهديه الله فهو المهتدي حقاً، ومن يضِلَّهُ الله فهو الضالُّ حقاً، ولا يملك الإنسان قدرة للاعتراض على حكم ربه، أو مشيئته.. إن شاءَ هداه، وإنْ شاءَ أضَلَّهُ... إلاَّ أنه يبقى للإنسان استعداده للهدى والضلال، فمن عقل، وأدرك، ووعى واتَّعظ، اهتدى حتماً.. ومن عطَّلَ مداركه، وكذَّب بآيات ربه ورسله واتبع هواه، ضلَّ حكماً، وإضلاله يكون نابعاً من نفسه، ومما زينت له من شهوات وأوهام وأباطيل..

وهكذا فإن مشيئة الله هي التي يعود إليها كلُّ أمر: لو شاءَ الله سبحانه وتعالى لهدى الناسَ جميعاً، وخلق فيهم الاستعداد للهدى أو لَقَهَرهُم على الهدى... ولو شاءَ الله سبحانه وتعالى لأضَلَّ الناسَ جميعاً وخلق فيهم الاستعداد للضلال أو لقَهَرَهُم على الضلال... ولكن تعالى الله وجلَّت عظمتُهُ أن يُضلَّ عبادَهُ جميعاً، وفيهم المهتدون، ولذلك خلقهم مستعدين للهدى أو الضلال، ولم يشأ بعد ذلك أن يقهرهم على الهدى ولا أن يقهرهم على الضلال، وإنما جَعَلَ مشيئته بهم تجري من خلال

استجابتهم أو عدم استجابتهم لدلائل الهدى وموجبات الإيمان. . . . ومن هنا كان عدلُ الله الشامل في عباده، وفقاً لتلك الاستجابة أو عدمها، لأنه بمقتضى هذا العدل، لا يمكن أن يتساوى المهتدي مع الضالّ، ولا المؤمن مع الكافر (بعد أن تبيّن لهذا الكافر طريق الهدى)، كما لا يعقل أن يُحاسَبَ العبادُ إلاَّ عما يكون نابعاً من أنفسهم. . وإذا كان الله سبحانه يُضلُّ من يشاء، فإنه يُضلُّ أولئكَ الذين كان عندهم الاستعدادُ للضلال، وسلكوا طريقه بسوء اختيارهم وساروا عليه. وإذا كان الله سبحانه يهدي من يشاء، فإنه يهدي أولئك الذين كان عندهم الاستعـداد للهدى، واتبعوه. فمن غلب عليه الاستعدادُ الأول، جرت مشيئة الله وقدَرُه بأنْ يكون من الضالين، ومن جعل الاستعداد الثاني هو الذي يغلب عنده، فإنَّ مشيئة الله وقدَرَهُ قد جرت بأن يكون من المهتدين. .

وهكذا فإنه لا شيء يخرج عن مشيئة الله، فهي المشيئة التي شرعت سنّتَهُ في الحياة. ولكنّه سبحانه أعطى لـلإنسان حـريةَ الاختيـار، ووهبه القـدرة على الإدراك والتمييز، ليتمَّ عملهُ على أساس اختياره، ومدى إدراكه وتمييزه، ويكون الحسابُ الذي ينتظره على أساس ذلك. .

فالإنسان هو الذي يختار بحرية كاملة، وإنْ كان في اختياره لا يخرج عن المشيئة.. فإن قام بالعمل الطيب، أو بقول الصدق، أو الإخلاص في العمل، أو اتباع الحق، أو رفض الانحراف إلى الهوى، والبعد عن إيذاء الناس والمخلوقات، فكل هذه الأعمال تكون من اختياره، وكلها تصبُّ في اتجاه الهداية... وعلى العكس، إن قام الإنسان بالعمل الرديء، أو بقول الكذب، أو اتباع الباطل، أو إشباع نزواته، وإيذاء غيره.. فهذه أعمال قام هو باختيارها، وتدلُّ كلها على اتجاه الضلال.. فاختيار الإنسان إذاً واقع، وقائم، وكل الأعمال الواقعة في دائرة الهداية محكومة بمشيئة الثواب.. بينما جميع الأعمال التي تقع في دائرة الضلال محكومة بمشيئة العقاب.. وهكذا الحال في كل ما يمكن أن يقوم به الإنسان أو يقدم عليه...

ولعلَّ أهمَّ ما يرمي إليه الانسانُ في دنياه هذه هو الكسب، أو الحصول على الرزق، وهو من أجل ذلك، قد يسخّر طاقاته للحصول على رزق حرام، أو قد يستخدم تلك الطاقات لاجتناء الرزق الحلال.. فهو إذاً، في أي من الحالتين، قد حصل على الرزق، ولكنه في الحالة

الأولى قد حصل على هذا الرزق وانطبقت عليه مشيئة العقاب، بينما هو في الحالة الثانية قد حصل على الرزق ذاته، وانطبقت عليه مشيئة الثواب...

من هذه الأدلة يتّضح بأن الانسان هو صاحب الاختيار، ولكنه في هذا الاختيار، لا يخرج عن المشيئة، فلو شاء الله ـ سبحانه ـ أن يمنعه عن إتيان المال الحرام لكان قادراً على ذلك، ولو شاءَ أن يحرمه من المال الحلال لحرمه أيضاً، ولكنه ـ سبحانه ـ ترك له أن يختار، ما دام قد أوجد فيه كامل الاستعداد لهذا الاختيار، وأطلق له الحرية التامة فيه...

وإن مشيئة الله هذه تتبدَّى في كونه تعالى، وحدَه القادر والفاعل، في حين لا يملك عبدُهُ الإنسان أن يكون فاعلاً وقادراً، بل على العكس هو رهينة مشيئة ربه، بل ومشيئة ما يتحكم به من عوامل تخرج عن إرادته.. فالإنسان لا يستطيع مثلاً أن يقول بأنه فاعل غداً أمراً معيناً، ويجزم بأنه قادر على تنفيذ هذا الأمر. وما ذلك إلَّا لسبب وحيد ومعروف، وهو أنه لا يملك المشيئة القادرة على التحقيق، فهو قد يكون في أية لحظة متوفى، وهو غير مالك لزمام الأمور والظروف التي قد تواجهه، فإن

أصابَهُ مرض أقعده، وإن حصل له طارىء منَعهُ، وقد تتبدل كافة المعطيات التي بنى عليها تصوراته، وعلى ذلك فهو لا يملك القدرة على التسيير والتحكُّم فيما هو آتٍ ومستقبل. على أنه وإن كان لا يستطيع الجزم بأنه فاعلٌ شيئاً، لا في اللحظة التي يعيشها، ولا في المستقبل القريب أو البعيد، إلَّا أنه يملك إمكانية القيام بالفعل، وحتى في هذه الإمكانية، لا يضمن النتيجة إلَّا بعد أن يحوزها. . . وهذا ما يجعله خاضعاً لمشيئة الله وقدَره، فهو وحدَهَ القادر، والذي لا تحده قيود، ولا تقف دونه ظروف، بل إنَّ كل شيء يخضع له، ويسير وفق مشيئته لأن كل شيء هو من صنعه. ولذا فإنه سبحانه يقول لرسوله العظيم في قرآنه الكريم تعليماً لنا وتنبيهاً: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾[1]. . .

ولكن يبقى للإنسان، بعد أن يدرك مشيئة الله، وأنه لا يمكن أن يفعل شيئاً إلَّا إذا شاءَ الله له أن يفعله، أن يعزم على الفعل، وأن يختار منه ما يتوافق مع هدايته. . .

---

(١) الكهف: ٢٣ ـ ٢٤.

ولا تتوقف نتائج هذه الهداية على صلاحه في الدنيا وحسب، بل وعلى مصيره في الآخرة، حيث تكون له الجنة والنعيم... هذا بخلاف الإنسان الآخر الذي اختار الضلال فكان مصيره في النار والجحيم...

على أن حسابَ الإنسان في الآخرة لا يكون فقط على الأعمال وما ظهر منها، بل وعلى ما يجري في دخيلة الإنسان، التي عبّر عنها القرآن الكريم بلفظة «السرائر»... فهذه السرائر هي كل شيء يتفاعل في وجدان الانسان ويكوّن نواياه.. وهنا، في داخل الذات، وخبايا النوايا، يكون الاختيار مطلقاً، ولا تقف في طريقه عوائق أو حدود، فليس من قوةٍ في الارض يمكن أن تحولَ بين الإنسان وما ينشئُهُ في نفسه. فهو يعتقد بما يشاء، ويفكر كيف يشاء، ويشعر كما يشاء.. وعليه فمن يقدر مثلاً أن يغير تفكير فرد بالقوة ولو كان من أعظم ملوك الأرض وسادتها؟ أو من يقدر أن يمنع فرداً من الاعتقاد بأن هذا الأمرَ أفضل من ذاكَ؟ وهل هنالك قوّة تستطيع أن تبدل الكراهية بمحبة، إذا ظلت أسباب هذه الكراهية كامنة في النفس، أو أن تغيّر تفكيرَهُ في أمرٍ إذا كانت دوافع هذا التفكير ما تزال لديه؟!... فكل ما في القلب، أو ما في العقل، يبقى

ضمن نطاق حرية الاختيار عند الإنسان، سواء أكان هذا الاختيار يتعلق بنفسه هو، أو بتعامله مع الآخرين. ولذا فإنَّ الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن نأخذ بظاهر الأمور، أو ما تدلُّ عليه هذه الظواهر من خبايا، بينما ما عداها يظل خاضعاً لعلمه وحده سبحانه.. ومن هنا، فإنَّ الله سبحانه وتعالى يحاسبُ الإنسانَ أيضاً على نواياه، وعلى ما أضمَرَ في سرائره.. وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾[1]، أي يوم يكون الحسابُ على النوايا الخفية التي لا يعلمها إلاَّ هو، وإنْ خفيت على الناس، أو أظهر صاحبها عكسها تماماً.. فلو أنَّ ملحداً، خادَعَ الناسَ لغرض أو لآخر وأظهر الإيمان، أو أن شخصاً التزم في الظاهر بالعبادات التي يأمر بها دينُهُ، لا لشيء إلا ليقال عنه بأنه إنسان متديِّن، ورعٌ، تقيٌّ، بينما هو في السِّر يرتكب المعصية، ويخالف أوامر الله تعالى ونواهيه، فهل إن مثل هذا أو ذاك يكون حسابُهُ على أساس ما تظاهر به، أم على أساس ما أخفى في نفسه من نوايا، وما قام به في السرّ من معصية؟!..

---

(١) الطارق: ٩.

ومما لا شك فِيه، أنَّ من يقوم بالمظاهر الخادعة الكاذبة، وإن خفيت حقيقتها على الناس، لا يكون إلاَّ مخادعاً نفسه، فإنَّ فوقه ربّاً يرقبه، وعلى نواياه وأفعاله الخفية يحاسبه... ومثل هذا الانسان، يكون ولا شك قد اختار، ولكن اختياره كان ضلالاً، فأَضَلَّهُ ربُّه الذي يعلمُ الجهرَ وما يخفى، والذي يطلع على ما تهمسُ به النفوسُ، وما تضجُّ به الصدور، فلا تفوته لفتة أو همسة، ولا يعوزُهُ علمٌ أو قدرة.

إذاً فما على الإنسان، إلاَّ أن يدرك هذه الحقيقة، كي يتّقيَ الله، فلا يخادعُ نفسه، ولا يخادعُ الناس، بل يسلك الطريق المستقيم، الذي يرشده إلى الهداية والصواب...

ومن هنا وَجَبَ أن يكون واضحاً بأن كلمة الهداية لا تعني مجرد الإرشاد والعلم فقط، بل تعني الإرشاد مع توفيق الله تعالى إلى العمل، لأنه من دعا لك بالعلم فقد دعا لك بجزء من الخير، وأما من دعا لك بالهداية، فقد دعا لك بالخير كله، لأنه دعا لك بالعلم مع التوفيق إلى العمل، وهذا لا يكون إلاَّ بإذن الله سبحانه. وهذا الاذن

لا يعطى، ولا يمنح، إلاَّ لمن يستحقون رحمته وعفوه، لأنه هو البَرُّ الرحيم.. فمن كان ضالاً واهتدى، فعسى أن يثيبه الله على هدايته، ويعفو عنه. وليس أحق من المؤمنين، أن يدعوا إلى الهداية، لأنها طريق الخلاص من الذنوب والآفات...

وهذا الشاعر المؤمن، نراه وقد أدرك ذلك المعنى للهداية، بعد أن استعرض ذنوبه على نفسه، وأحبَّ أن يقلع عن الانغماس في ملذات الحياة الفانية، وأن يبتعد عن تيه الضلال الذي كان يسيطر عليه، رجاءَ أن يأذنَ له الله في التوبة.. نراه يقول في ذلك:

إذا ما خلوتَ الدهرَ يوماً فلا تَقُلْ
خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيبُ
لهونا على الأيام حتى تتابعت
ذنوبٌ على آثارهنَّ ذنوبُ
فيا ليتَ أنَّ الله يغفرُ ما مضى
ويأذنُ لي في توبةٍ فأتوبُ.

بينما أتى الزمخشري بمعنى أدق رحمه الله تعالى، عندما لفَّهُ الليلُ بسواده، وحامت فوق رأسِه بعوضةٌ فأسْهدتهُ، فلم يستطعْ رقاداً وهو يسمع صوتها، ولم يرها من

حُلْكَةِ الظلام، فاستيقظ ضَعْفُهُ أمام هذه البعوضة، فاستعرض شريطَ حياتِه فعظمت عليه ذنوبه، فرجا ربه أن يهبه التوبة مِنَّةً منه لا استحقاقاً على أعمال قدَّمها، لأنه هو العبد الضعيف الذي يستحق الهبة والمنة، والله سبحانه وتعالى هو الوهاب الحنان المنان، فأنشد قائلاً:

يا من يرى مدَّ البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها
والمخَّ في تلك العظام النُّحَّلِ
أُمنن عليَّ بتوبةٍ تمحو بها
ما كان مني في الزمان الأول

ثم لا بدَّ، بعد هذا، من بيان ما قاله الله تعالى في أولئك الذين يختارون طريق الضلال ويألفونه، ويبتعدون عن طريق الهداية ويمقتونه. لقد قال ـ سبحانه ـ بحقهم، بأنه يخصص لهم شياطين يزينون لهم السير على هذا الطريق القاتل، وذلك بالنص القرآني: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1]..

(١) الزخرف: ٣٦ ـ ٣٧.

فالله سبحانه يسلِّط، على الذين يختارون الكفر، أو الشر، أو الرذيلة، أو أي طريق يبعد عن الهداية، شياطين، هم قرناء لهم، يوحون إليهم بالسوء ـ وهل يوحي الشيطان إلَّا بفعل السوء ـ ويصدُّونهم عن سبيل الله. . . فأي إنسان اتَّخذ هذا الطريق واختاره لنفسه، لا يمكنه بعده أن يقول: ماذا أفعل؟!. . . وقد جعل الله لي رفيقاً من الشياطين يزيِّن لي الإثم والفسوق، ولو ترك الأمر لي، لما اخترت مصاحبة الشيطان، ودعوته ليكون قريناً لي!. . . فأمّا من يحتجُّ بذلك، ويدَّعي أن الله قد أوقعه في حبائل الشيطان، فإننا نقول له: عد إلى نفسِكَ أيها الانسان، وكن بصيراً، ألا تجد أنَّك أنت الذي اخترت طريق الضلال، يوم أن آثرت الابتعاد عن الرحمان، وتعاميت عن رؤية الهداية وعميت عن ذكْر الرَّحمان، الذي لا يريد بك إلَّا الرحمة؟. . أو ليس هو خالقك، وقد منحك كافة الامكانيات التي تجعلك تميِّز، وبالتالي تختار؟. . فإن اخترتَ أنت طريق الضلال، فإنه سيكون لك رفيق وقرين من الشياطين، ما دمت آثرت هذه الرفقة، التي زينت لك زيفاً، ما تفعل. . فالأمر إذاً بيدك أنت. . . وعليه فلا تقولنَّ أبداً: ما ذنبي؟. بل قل: أنا

الضالُّ، أنا الذي اخترت طريق الضلال، وقد نبَّهني ربِّي بأنه، في هذا الضلال، سيجعل لي قريناً من الشياطين. أو ليست آيتُهُ المعبِّرة عن ذلك أمام ناظري في قرآن كريم، فكيف يهديني الله بعد هذا؟...

والعجيب في أمر هؤلاء الذين نسُوا ذكر الله، وابتعدوا عن السبيل القويم، أنهم يفعلون ذلك، برغم كل ما يسَّرَ الله لهم من سُبل للهداية، إن في أنفسهم، أو في الحياة من حولهم، أو فيـما بثَّ في الكون والوجود من آيات عظمته وقدرته، أو فيما بعث إليهم من رسالات سماوية تهديهم إلى الرشد وتصدّهم عن الضلال...

وكما يبيّن القرآن الكريم بأن الله سبحانه وتعالى يجعل للشياطين ولاية على الكافرين والضالين، فإن القرآن نفسه يبيِّن أيضاً أنه لا يمكن أن تكون للشياطين أية ولاية على المؤمنين. وليس هذا البيـان والتأكيد عليه بآيات دالّة، معبِّرة، إلاَّ رحمة بالإنسان، وحباً بهدايته، إذ لعلَّهُ بعد الضلال أن يثوبَ إلى الله، ويعودَ إلى خالقه. ولكي لا تكون للإنسان أيضاً حجةٌ بأنه لم يكن له إرادة في

الاختيار أمام مشيئة الله وقدره.. وإنَّ رحمة الله قد وسعت كلَّ شيء، وهو سبحانه يحثُّ الفرد والجماعة على الرجوع إليه، والعودة إلى توجيهه، واللجوء إلى رحمته، وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾(١)، ﴿ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ ﴾(٢)، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾(٣)، ﴿لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾(٤)، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(٥).. فإذا عادَ الإنسانُ عن ضلاله، وابتعَدَ عن غيه، وغيَّر مفاهيمه، فإن سلوكه سيتغيَّر حتماً، وإن هو نهى نفسه عن الهوى، فإنه يكون قد غيَّر ما تكنّهُ هذه النفس.. وعندها يرسل الله سبحانه وتعالى له أولياء من الملائكة يكونون له عوناً، وأخلاَّء أصفياء في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾(٦)... فهل بعد ذلك توجدُ

---

(١) الإسراء: ٨.
(٢) الأنفال: ١٩.
(٣) الذاريات: ٥٠.
(٤) التوبة: ١١٨.
(٥) الرعد: ١١
(٦) فصلت: ٣٠.

رحمة أوسع من رحمة الله، ويوجد إرشاد أكبر، وهداية أشمل؟!... إنها دعوة صريحة واضحة للإنسان، كي يكون من المهتدين؛ وإن ضَلَّ يوماً أو أضَلَّهُ غيره، فإن أبواب رحمة الله مشرعة أمامه كي يعود إلى الهداية، وإن خالقَهُ وربَّهُ خير معين له في هذه العودة، وهل أفضل وأكبر من هذا العون وهو ـ سبحانه ـ ينزل عليه ملائكة تأخذ بيده إلى سبيل الرشد؟...

وبعد ذلك كله أو ليس الايمان بالله هو خيرُ عونٍ لنا في البعد عن الضلال؟ إذ كم يكون عظيماً إيمانٌ بالله الذي لا حول ولا قوة لأحد إلَّا به، ولا ملجأ منه إلَّا إليه، ولا تدبُّ نملةٌ سوداء على حجر أصلد في الليل إلَّا وهو يراها، وييسِّر أمرها.. ولا ينبض عرق في جزء من كائن في أي مكان إلَّا بأمره.. ولا يغفل عن شيء بآخر.. ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تقوم الحياة إلَّا بأمره، وإذا أراد شيئاً فإنَّما يقُولُ لَهُ: ﴿كن... فيكون..﴾ إنَّ هذا الايمان الذي يدعو إليه الاسلام، لكفيل بأن يمسَّ شغافَ القلب، وأن يملأ شعاب العقل، وأن يملك على المرء حواسه ومشاعره، فيعيش في حقيقة الله الكبرى، حقيقة الهداية التامة...

وهكذا نصل في النتيجة إلى أنَّه ليس من مشيئة تجري وفقها الأمور إلَّا مشيئة الله وقدَره. وقد كانت مشيئته في الهدى والضلال عندما خلقَ الانسان في أحسن تقويم، وترك له الاختيار الحرَّ الطليق في أن يسيرَ إما وفق مشيئةِ الهدى، وإما وفق مشيئة الضلال، وصدَقَ الله العظيم حيث يقول: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1].

وأما قوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[3] وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[4] فمنطوق هذه الآيات فيه دلالةٌ واضحةٌ على أنّ الذي يفعل الهدايةَ والإضلالَ هوَ الله سبحانهُ وتعالى، لا العبدُ، وهذا يعني أنَّ العبدَ، لا يهتدي مِنْ نفسِهِ إلّا إذا هداهُ الله.. إن هذا المنطوقَ قدْ جاءت قرائنُ تصرفُ معناهُ، عنْ جَعْلِ مباشرة الهداية والضلال منَ الله، إلى معنى آخَرَ، هوَ جَعْلُ خلق

(١) الكهف: ٢٩.
(٢) الأنعام: ٣٩.
(٣) الأعراف: ٤٣.
(٤) القصص: ٥٦.

الهداية وخلق الضّلال من الله، وأما المباشر للهداية والضلال والإضلال فهوَ العبدُ. وهذه القرائنُ شرعيّةٌ وعقليّةٌ.

القرينة الشرعية

جاءَتْ آياتٌ كثيرةٌ تنسب الهدايةَ والضلالَ والإضلالَ إلى العبد. قالَ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[1]، وقـال: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[2]، وقالَ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[3]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾[4]، وقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[5]، وقالَ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾[6]، وقال: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾[7]،

(١) يونس: ١٠٨.
(٢) المائدة: ١٠٥.
(٣) البقرة: ١٥٧.
(٤) فصلت: ٢٩.
(٥) الأنعام: ١٤٤.
(٦) سبأ: ٥٠.
(٧) طه: ٨٥.

وقالَ: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾[1]، وقال: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾[2].

فمنطوق هذه الآيات، فيه دَلالةٌ واضحةٌ على أنّ الإنسانَ هو الذي يَفْعلُ الهدايةَ والضلالةَ، فيُضلّ نفسَه ويُضِلّ غيرَه، وأنّ الشيطانَ يقوم بالإضلال أيضاً. فهذه قرينةٌ على أنّ نسبة الهداية والإضلال إلى الله ليستْ نسبةً مباشرةً، بلْ هيَ نسبة خَلْق. فإنّكَ إذا وضعتَ الآيات معَ بعضها، وفهمتَها فَهْماً تشريعياً يتبيَّنُ لكَ انصرافُ كلّ منها إلى جهة غير الجهة التي هي للأخرى، كالآية التي تقول: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾[3] والآية الأخرى التي تقولُ: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾[4]. فالأولى تدلّ على أنّ الله هُوَ الذي هدى، والثانية تدلّ على أن الإنسانَ هو الذي اهتدى. وهدايةُ الله في الآيةِ الأولى هيَ خَلْقٌ للهداية في نفس الإنسان أي إيجاد قابليّة الهداية فيه، ثم تركه يباشر الاهتداءَ بنفسه. والآيةُ الثانية تدلّ على أنّ الإنسان هو الذي باشرَ ما خَلَقَه الله من قابليّة الهداية.

---

(١) آل عمران: ٦٩.

(٢) النساء: ٦٠.

(٣) يونس: ٣٥.

(٤) يونس: ١٠٨.

فهذه الآيات التي تنسب الهدايةَ والإضلالَ إلى الإنسان قرينةٌ شرعيّةٌ دالّةٌ على صَرْفِ مباشرة الهداية عن الله إلى العبد.

القرينة العقلية

إنَّ الله يحاسب الناسَ فيثيبُ المهتدي ويعذِّبُ الضّالَ، قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾(1). وقالَ تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ ﴾(2). وقالَ تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾(3). فيكونُ الذي يُباشر الهدايةَ والإضلالَ هو العبدُ، ولذلك يُحاسَبُ عليهما.

وأمّا من ناحية الآيات التي تقترنُ فيها الهدايةُ والإضلالُ بالمشيئة مثل قوله تعالى: ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ ﴾(4) فإنَّ معنى المشيئة هنا هو الإرادة. ومعنى هذه الآيات هو أنّهُ لا يهتدي أحدٌ ولا يضلّ أحدٌ

---

(1) فصلت: ٤٦.
(2) الإسراء: ٧.
(3) الزلزلة: ٧ ـ ٨.
(4) الأعراف: ١٥٥.

جبراً، بل يهتدي مَنْ يهتدي بإرادة الله ومشيئته، ويضلّ بإرادته ومشيئته. وكانَ السلف الصالح يفهَم هذا المعنى ويُدْرِكُهُ إدراكاً حِسيًّا. ومما ذُكِرَ أنّ علياً عليه السلام، بعدَ رجوعه من صفين سأله رجلٌ: هلْ كانَ ما حدثَ في صفّينَ بمشيئةِ الله وقضائه؟ فأجابه سلام الله عليه: «إن الله أمر تخييراً ونهى تحذيراً وكَلَّف يسيراً، فلمْ يُطَعْ مُكْرَهاً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولمْ يُرْسل الرسل عبثاً، ذلكَ ظَنّ الذين كَفروا».

وأمّا الآياتُ التي يذكر القرآن الكريم فيها أناساً لا يهتدونَ أبداً، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1]، وقوله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾[2]، وقوله: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾[3]، فهذه الآيات إخبارٌ من الله لأنبيائه عنْ أُناسٍ مخصوصينَ بأنّهُمْ لمْ يُؤمِنوا، وهذا داخلٌ في علم الله، وليس معناه أنّ هناكَ فئة تؤمن وفئة لا تُؤمن، بل كلّ إنسانٍ فيه قابليّة الإيمان.

---

(١) البقرة: ٦.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) هود: ٣٦.

وأمّا قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1]، وقولُه: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2]، وقولُه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ﴾[3]، ﴿ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾[4]، إنّ هذه الآيات تعني عدمَ توفيق الله لهمْ بالهداية، إذ التّوفيق للهداية هو منَ الله. والفاسق والظالم والكافر والضالّ والمسرف الكذاب.. كل أولئك يتصفونَ بصفاتٍ تتناقضُ وتتنافرُ معَ الهداية، والله لا يُوَفّقُ للهدايةَ مَنْ كانتْ هذه صفتُه. لأنّ التوفيقَ للهداية تهيئةُ أسبابٍ للإنسان، ومَنْ يتّصف بهذه الصفات لا تتهيأُ له أسبابُ الهداية، بل أسبابُ الضلال. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾[5]، وقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[6] أيْ وفقنا لأنْ نهتديَ، بمعنى يَسّرْ لنا أسبابَ هذه الهداية.

---

(١) المائدة: ١٠٨.
(٢) البقرة: ٢٥٨.
(٣) الزمر: ٣.
(٤) غافر: ٢٨.
(٥) ص: ٢٢.
(٦) الفاتحة: ٦.

ثغرات في سلوك المسلمين

يُشاهَد، عندَ كثيرٍ مِنَ المسلمينَ، ظهور أعمالٍ تخالف عقيدَتَهمُ الإسلاميّةَ، ويشاهدُ، عند كثيرٍ من الشخصيّات الإسلاميّة، سلوكٌ يتناقضُ معَ الشخصيّة الإسلاميّةِ، فيظنّ البعضُ أنّ ما صدَرَ من أعمالٍ تخالفُ العقيدةَ الإسلاميّةَ قدْ أخْرجَتِ الشّخصَ عن الإسلام، وأن ما برَزَ منْ سلوكٍ يتناقضُ معَ صفاتِ المسلم المتمسّك بدينِهِ يُخرجُ الشخْصَ عن كونه شخصيةً إسلاميّةً. والحقيقةُ أنّ وجودَ ثغراتٍ في سلوك المسلم لا يُخْرِجُهُ عنِ الإسلام. ذلك أنّهُ قدْ يغفلُ الإنسانُ فيُغْفِلُ ربطَ مفاهيمِه بعقيدته، وقد يجهلُ تناقُضَ هذه المفاهيم معَ عقيدته، أوْ مَعَ كونه شخصيّةً إسلاميّةً، وقد يطغى الشيطانُ على قلبه فيُجافي هذه العقيدةَ في عَمَلٍ مِنَ الأعمال، وبرغم ذلك لا يصحّ أنْ يُقالَ: إنّهُ في مثل هذه الحال خرجَ عن الإسلام، أو أصبح شخصيةً غير إسلاميّة، لأنّ العقيدة الإسلامية، وهي الأساسُ، تصونُهُ، فهوَ مسلمٌ وإنْ عصى في عملٍ منَ الأعمال، وما دامت العقيدةُ الإسلاميةُ أساساً لتفكيره وميولِهِ، يبقى شخصيّةً إسلاميّةً، وإن فسق في سلوكٍ معيّنٍ من أنواع سلوكه.

ولا يخرجُ المسلمُ عن الإسلام إلا بترك العقيدة الإسلامية قولاً وعملاً، فإذا طرأ خَلَلٌ على العقيدة خرجَ الشخصُ عن الإسلام بهذه الحال فقط، ولو كانت أعمالهُ مبنيّة على أحكام الإسلام، لأنها لا تكونُ حينئذٍ مبنيّةً على الاعتقاد، بل على العادة، أو على مجاراة النّاس.

الفتنة أو التجربة

قد يمرّ على الإنسان حينٌ، فيه يتخلى الله عنه، ليَضَعَهُ في الفتنة، بعدَ أنْ يكون قد قدّم له البراهينَ والأدلّةَ الواضحةَ.. هنا يظهر ضعف الإنسان وسيطرة شهوته عليه، فيحاول أنْ يُكافِحَ، ولكن بدون جدوى.

فإذا كانَ هذا الرجُلُ مؤمناً حقّاً، ندم أشدّ الندم، وربما، أخذَ بالبكاء كما يبكي الطفلُ مِنْ فرطِ نَدَمِهِ، بينما تراهُ في الملمات القاسيات ثابتاً كالجبل لا يتزعزع، ولكنّهُ بعدَ البكاء المرّ والندم الشديد والاستغفار المقلقل (أيْ غير الثابت) يأخذ على نفسه بعزمٍ وتصميمٍ أنّهُ لنْ يعودَ لمثل هذه المعصية، فيبدأ بوضع وسائل الدفاع التي أمَرهُ الله بها. ولكنْ إذا ما بقيَ في النفس شيءٌ من الشهوة لهذا

العمل الذي قامَ به سابقاً، فترى جميعَ الوسائل التي صَنَعَ منها جهازاً قوياً للدفاع تبدأ بالانهيار تدريجياً أمام البقيّةِ الباقية مِنَ الشهوة الكامنة في النّفس.

والنّصرُ النهائيّ لهذا المؤمن من الله سبحانه وتعالى، لا يكونُ إلاّ إذا ذَكَرَ هذا المؤمنُ الأشياءَ على حقائقها، ومن ثمّ رأى العملَ الذي يقومُ بهِ لا يساوي شيئاً بالنسبة لمعصيةِ الله سبحانه وتعالى، وبالنسبة إلى العملِ نفسِه، ثم بعد ذلك، يحاول انتزاعَ هذه الشهوة من نفسِه المؤمنة الحيرى.

ولكنّ التوفيق لا يُواكِبُهُ إلاّ إذا باشرَ بإبعادِ نفسِه عنْ فلكِ الشيء المُشتهى، ليبرهنَ، أمامَ الله وأمامَ نفسه، أنّهُ مؤمنٌ حقّاً، أو أنّ الله سبحانه بلطفه يُميت هذه الشهوةَ في النفسِ، أوْ يُعطّلُها بمرض أو غيره، أوْ يبعد الله هذا المُشتهى فيكونُ، بذلك، الفضل لله وحده. قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾(1).

وقال سبحانه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

(1) النساء: ٢٨.

صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾[1].

الاستمرار في المعصية استسلام للشيطان

أَنَا لا ألوم الذينَ يُذنِبونَ، ولكنّي أُلوم الذين يُصرّونَ على ذُنُوبِهِمْ ولا يتوبُونَ إلى بارِئهِمْ. ولا أُلوم الذينَ يُكرّرونَ الذنْبَ بِدَافع ضَعْفِهِم المُركّب، وجِبِلَّتِهِم التي جَبَلَهُم الله عليها، ولكنّي أُلوم الذينَ لَا يُحاولُونَ أن يتخلّصوا منْ هذه الآثام بعدَ معرفَتِهِمْ لها وخوْفِهِمْ مِنَ الله في نهايتها، ومُشاهدَة مُراقبة الله لأعمالهم. والسؤال الذي ينبغي أنْ يُسْأَلَ: كَيْفَ تكون المحاولة بعدَ ما وَقَعَ الإنسان في شَرَكِ الشّيطان، وأصبَحَ هذا العمل لديه عادةً امتزجَتْ بدمه وحياته اليوميّة أو الأسبوعية؟! والجوابُ: المُنْقِذُ هو الله سُبحانَهُ وتعالى. فعليكَ أنْ تدعوَه خَوْفاً وتضرّعاً لأنَّهُ هوَ الملجأ الوحيدُ، وعليكَ أنْ تَستعمِلَ الإمكانيّات التي وهبَكَ الله إيّاها، ومكّنكَ مِنْها، وستتغَلَّبُ بعدها بحول الله وقوّته، على قَطْع الشراك التي نَصَبَها لكَ الشيطان وأقامَها بمعونة المُغريات التي مكّنه الله منها. وسَيَثْبُت إخْلاصكَ لله عزّ وجلّ ولنفسِك أيضاً. وإيّاكَ أنْ تَيْأَس من

---

(١) العنكبوت: ٢ ـ ٣.

روح الله، وترْتَميَ نهائياً في أحضان الشّيطان لأن الرجْعَة تكون صَعْبةً عليك. ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾[1].

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

١٠ ـ انتهاء الأجل
هو السبب الوحيد للموت

يظن كثيرٌ من الناس أن الموت وإن كان واحداً فإن أسبابه متعددة، ويقولون: تنوعت الأسباب والموتُ واحد. ويرون أن الموتَ قد يكون من مرض مميت كالطاعون مثلاً، وقد يكون من طعن سكِّين أو ضرب رصاص أو حرق بالنار أو قطع رأس أو غير ذلك، فهذه كلها عندهم أسباب مباشرة تؤدي إلى الموت، أي يحصل الموت بسببها. ومن أجل ذلك يعلنون أن هذه الأشياء سببُ الموت. وبناء على هذا فإن الموت يحصل إذا حصلت

---

(١) النساء: ٣٨.

(٢) البقرة: ٢٦٨.

هذه الأشياء، ثم لا يحصل إذا لم تحصل، فيكون الموت عندهم بوجود هذه الأسباب لا بانتهاء الأجل، ويكـون المميت هـو هـذه الأسبـاب وليس الله تعـالى، وإن قـالـوا بألسنتهم: إن المُحيي والمُميت هو الله تعالى.

والحقيقة هي أن الموت واحد، وأن سببَه واحد أيضاً، وهو انتهاء الأجل، وأن المُميت هـو الله تعالى وحـدَه، وأن المباشـر لإيجاد الموت هو الله سبحانه وتعالى. وذلك أن الشيء حتى يصح أن يكون سبباً لا بد أن يُنتج المسبَّب حتماً، وأن المسبَّب لا يمكن أن ينتج إلا عن سببه وحدَه. وهذا بخلاف الحالة فإنها ظرف خاص بملابسات خاصة يحصل فيها الشيء عادة ولكنه قد يتخلف ولا يحصل. فمثلاً: الحياة سبب للحركة في الحيوان فإذا وجدت الحياة فيه وجدت الحركة منه، وإذا عُدِمت الحياة فيه عُدمت الحركة منه. ومثلاً: الطاقة سبب لِدوَران المحرِّك «الموتور» فإذا وجدت الطاقة تحرَّك المحرِّك وإذا لم توجد الطاقة لا توجد الحركة. وهذا بخلاف المطر بالنسبة لإنبات الزرع فإنه حالة من الحالات التي يَنبت بها الزرع وليس سبباً، وذلك أن المطر يُنبت الزرع، ولكن قد ينزل المطر ولا يَنبت الزرع، وقد يَنبت الزرع من رطوبـة الأرض وحدَهـا،

كالزَّرع الصيفي ينبت بدون نزول المطر. وكذلك مرض الطاعون وضرب الرصاص وغير ذلك قد توجد ولا يحصل الموت، وقد يحصل الموت من غير أن يوجد أي شيء من هذه الأشياء التي يحصل فيها الموت عادة. والمتتبع لكثير من الأشياء التي يحصل فيها الموت، والمتتبع للموت نفسه، يتأكد من ذلك واقعياً فيجد أنه قد تحصل هذه الأشياء التي يحصل منها الموت عادة ولا يحصل الموت، وقد يحصل الموت بدون حصول هذه الأشياء: فمثلاً: قد يطعن شخصٌ شخصاً طعنة قاتلة ويُجمِع الأطباء على أنها قاتلة ثم لا يموت فيها المضروب، بل يُشْفَى ويعافى منها، وقد يحصل الموت دون سبب ظاهر كأن يقف قلب إنسان فجأة فيموت في الحال دون أن يتبيَّن نوع الحالة التي يحصل فيها وقوف القلب لجميع الأطباء حتى بعد الفحص الدقيق.

والحوادث الدّالة على ذلك كثيرة يعرفها الأطباء، وقد شهدت المستشفيات في العالم الآلاف منها. فقد يحصل شيء يؤدي إلى الموت عادة جزماً ثم لا يموت الشخص، وقد يحصل موت فجأة دون أن يظهر أي سبب

أدَّى إليه. وفي بعض الحالات ربما يقول الأطباء جميعاً: إن هذا المريض لا فائدة من معالجته حسب تعاليم الطب، لكنه قد يُعافَى ويكون ذلك فوق عِلْمنا. وربما يقولون كذلك: إن فلاناً أصبح معافًى وقد تجاوز دور الخطر، ثم ينتكس فجأة فيموت. وهذا كلُّه واقعٌ مشاهدٌ محسوسٌ من الناس ومن الأطباء، وهو يدل دلالةً واضحةً على أن هذه الأشياء التي حصل منها الموت ليست أسباباً له. إذ لو كانت أسباباً له لما تخلَّف ولما حصل بغيرها، أي لما حصل بغير محسوس. فمجَّردُ تخلُّفها ولو مرةً واحدةً، ومجَّرد حصول الموت بدونها ولو مرةً واحدةً، يدل قطعاً على أنها ليست أسباباً للموت، بل حالات يحصل فيها الموت. وسبب الموت الحقيقي الذي ينتج المسبَّب هو غيرُها وليست هي.

نعم قد يقال: إن هذه الأشياء التي تحصل ويحصل منها الموت عادة هي حالات وليست أسباباً، لأنها قد تتخلف، ولكن هنالك أسباباً مشاهدة محسوسة يحصل منها الموت قطعاً ولا يتخلف فتكون هي سبب الموت. فمثلاً قطع الرقبة، أي إزالة الرأس عن الجسد، فإن

الموت يحصل منها قطعاً ولا يتخلف، ووقوف القلب يحصل منه الموت قطعاً ولا يتخلف، فهذه الحالة وأمثالها من إزالة أعضاء جسم الإنسان مما يحصل منه الموت قطعاً هي سبب الموت.

ونقول ردّاً على ذلك: إن ضرب الرقبة بالسيف حالة من حالات الموت وليست سبباً للموت، وإن طعنة القلب بالسكين حالة من حالات الموت وليست سبباً للموت وهكذا. . فقطع الرقبة وإزالة الرأس عن الجسم لا يحصل من ذاته أي من الرقبة ذاتها ولا من الرأس ذاته، بل إذا حصل فإنه لا يحصل إلا بمؤثّرٍ خارجي، وإذاً فلا يصلح حينئذ أن يكون قطع الرقبة سبباً لأن الذي فعل القطع هو مظنّة السبب وليس القطع ذاته. وكذلك وقوف القلب لا يحصل من ذاته بل لا بد من مؤثّرٍ خارجٍ عنه، وإذاً فلا يصلح حينئذ أن يكون وقوف القلب سبباً، بل الذي سبَّب توقيف القلب هو مظنّة سبب الموت وليس وقوف القلب ذاته، لأنه لا يحصل من ذاته بل بمؤثّرٍ خارجيٍّ. وعلى ذلك فلا يمكن لقطع الرقبة ذاته، أو لوقوف القلب ذاته، أن يكونا سبباً للموت مطلقاً، فلم يبق مظنّة السبب للموت إلا المؤثّر الخارجي.

وعلاوة على ذلك فإن الله خلق للأشياء خاصيَّات فإذا عُدِمت الخاصيَّة زال أثرُها. فمثلاً خلَق سبحانه في العين الـرؤيـة، وخلق في الأذن السمـع، وخلق في الأعصاب الحس، وخلق في النار الإحراق، وخلق في الليمون الحموضة. وهكذا، فالخاصية للشيء نتيجة طبيعية لـوجوده وهي بمثابـة صفـة من صفـاتـه. فـالمـاء من صفاته الطبيعية الميوعة، ومن خاصياته الإرواء. والمحرِّك «الموتور» من صفـاته الـطبيعيَّة الحركة، ومن خـاصياتـه الحـرارة. والقلب من صفـاتـه الـطبيعيـة النبض، ومن خاصياته الحياة. وهكذا فالإرواء، والحـرارة، والحياة، صفات من صفات الشيء الطبيعيَّة مع كونها خاصيّة من خواصِّه. فلا يكون وجود الخاصيَّة في الشيء هو سبب العمل الذي هو أثرٌ لها، ولا يكون حينئذ انعدام الخاصيَّة سبباً لانعدام العمل الذي هو أثرٌ لها. فإن وجود خاصية الإحراق في النار ليس كافياً لإيجاد الإحراق، ولا يصلح أن يكون سبباً لايجاد الإحراق، ويكون حينئذ انعدام خاصية الإحراق من النَّار ليس سبباً لعدم الإحراق. وكذلك ليس وجود خاصية الحياة في القلب كافياً لإيجاد الحياة فلا يصلح، إذاً، أن يكون سبباً للحياة. وإذا كان وجود خاصية

الحياة ليس سبباً لإيجاد الحياة فيكون حينئذ انعدام خاصية الحياة من القلب ليس سبباً لانعدام الحياة. وعلى ذلك لا يقال إن ذهاب الشيء سبب لذهاب خاصيَّاته، بل الذي يكون سبباً لذهاب خاصيَّة الشيء هو أمر خارج عن الشيء ذاته يذهب خاصيته ويبقي الشيء ذاته دون خاصيته، أو يذهب الشيء ذاته فيذهب معه خاصيته. ويكون الشيء الذي أذهب الخاصية أو أذهب الشيء وأذهب معه خاصيتَهُ هو سبب ذهاب الخاصيَّة، وليس الشيء بذاته سبباً لذهاب خاصيته. وعليه فإنه من هذه الجهة أيضاً أي من جهة كون الحياة خاصيةً من خواص وجود الرأس على الجسم، وخاصيةً من خواص نبض القلب، لا يقال إن إزالة الرأس عن الرقبة سبب الموت ووقوف القلب سبب الموت، بل مظنة السبب هو الذي أزال الخاصيَّة من الرقبة بقطعها ومن القلب بوقوفه، وليس هو قطع الرقبة ووقوف القلب. وعلى ذلك لا يكون سبب الموت الحقيقي هو اتلاف العضو، أي قطع الرقبة ووقوف القلب، لأنه يستحيل أن يحصل أي إتلاف للعضو إلا بمؤثِّرٍ خارجي، ولأن الحياة خاصية من خواصه ـ أي العضو ـ فذهابه لا يكون منه وإنما بمؤثِّرٍ خارجي أزالها ـ أي الخاصية ـ أو أزاله وأزالها معه.

وكذلك لا يكون سبب الموت هو المؤثِّر الخارجي لأنه ثبت عقلاً وواقعاً أنه قد يحصل المؤثِّر الخارجي ولا يحصل الموت وقد يحصل الموت دون أن يحصل هذا المؤثِّر الخارجي، والسبب لا بد أن ينتج المسبَّب حتماً. فلم يبقَ إلا أن سبب الموت الحقيقي الذي ينتج المسبَّب حتماً ـ وهو الموت ـ هو غير هذه الأشياء.

وهذا السبب الحقيقي لم يستطع العقل أن يهتديَ إليه لأنه لا يقع تحت الحس، فلا بد أن يخبرنا به الله تعالى وأن يثبت السبب الحقيقي للموت بدليل قطعي الدلالة، قطعي الثبوت حتى نؤمن به، لأن ذلك من العقائد التي لا تثبت إلا بالدليل القطعي. وقد أخبرنا الله تعالى في آيات متعددة بأن سبب الموت هو انتهاء الأجل، وأنه جلَّ وعلا هو الذي يميت لا غيرُه. فالموت يحصل حتماً بالأجل ولا يتخلَّف مطلقاً فكان الأجل سبب الموت لا غيره. والذي يُميت هو الله سبحانه وتعالى، وهو الذي يباشر فعل الموت بدليل ورود ذلك في آيات متعددة كمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[1] أي: أنه كتبَ الموت كتاباً مؤقتاً إلى أجل معلوم

(١) آل عمران: ١٤٥

لا يتقدَّم ولا يتأخَّر. وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾(١) أي: أنه يُميت الأنفس حين يكون قد قضى بموتها، فهو الذي يسلب ما كانت حيَّةً به. وقال تعالى: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾(٢) أي: هو الذي يباشر خلق الحياة وإيجادها، وهو الذي يباشر فِعْلَ الموت وإيقاعَهُ. وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾(٣)، قال ذلك سبحانه رداً لقول الذين كفروا، والآية الكريمة بكاملها هي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾(٤) أي: أن الأمر بيد الله قد يحيي المسافر والغازي ويميت المقيم والقاعد، يفعل ما يشاء. وقال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ﴾(٥)، أيْ:

---

(١) الزمر: ٤٢.
(٢) البقرة: ٢٥٨.
(٣) آل عمران: ١٥٦.
(٤) آل عمران: ١٥٦.
(٥) النساء: ٧٨.

في أيِّ مكانٍ تكونون فإنَّ الموت يأتيكم ويصل إليكم ولو كنتم في حصون حصينةٍ. وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾[1]. وهذا جواب للكفار أيضاً، فالله جلَّ وعلا يقول: إنهم راجعون إلى ربهم فسوف يُميتهم إذ يرسل لهم ملك الموت ليتوفَّاهم، والآية هي: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ۝١٠ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾[2] أي: يأخذ أنفسكم إليه، فالتوفي هو تَلَقِّي الروح من لدن بارئها. وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾[3]أي: أن الموت الذي تهربون منه، ولا تجسرون أن تتمنوه خيفة أن تُؤْخَذُوا بوبال كفركم، لا تفوتونه، وهو ملاقيكم لا محالة. وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[4] أي: إذا حَلَّ الأجلُ الذي قدَّره لهم لا يتأخرون عنه أقل

---

(١) السجدة: ١١.
(٢) السجدة: ١٠ - ١١.
(٣) الجمعة: ٨.
(٤) الأعراف: ٣٤.

وقتٍ مُمْكِن. وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ ﴾[1] أي: نحن قضينا وقدّرنا بينكم الموت تقديراً، وقسمناه عليكم قسمة الرزق على اختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا، فاختلفتْ أعمارُكم بين عمر قصيرٍ وعمرٍ طويلٍ أو عمرٍ متوسط.

فهذه الآيات وغيرها مما هو قطعيٌّ الثبوت، قطعيٌّ الدلالة، تدل دلالةً لا تحتمل غير معنى واحد هو أن الله سبحانه هو الذي يُحيي ويُميت بالفعل دون وجود أسباب ومسبِّبات، وأن الإنسان لا يموت إلا بانتهاء أجَلِهِ، وليس من الحالة التي حصلت وظن أنها سبب الموت. فيكون سبب الموت انتهاء الأجل فحسب، وليس الحالة التي حصل فيها الموت. ولا يقال إن إسناد الموت إلى الله باعتبار الخَلْق، أما المباشرة فهي من الانسان أو من الأسباب التي نتج عنها الموت، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[2]، وكقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ

(١) الواقعة: ٦٠.
(٢) الأنفال: ١٧.

﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[2]. لا يقال ذلك لأن هناك قرائن تصرف مباشرة الفعل عن الله تعالى إلى الإنسان، وتجعل المعنى أن الله خلق الرَّمي، وخلق شَرْحَ الصَّدر، وخلق ضِيق الصدر، وخلق الضَّلال، وخلق الهداية، ولكن الذي يباشر ذلك فعلاً ليس الله وإنما هو الإنسان. وهذه القرائن عقلية وشرعية لأن قوله «رَمَيْتَ» معناه حصل الرَّمي من الرسول، ولأن معاقبته على الضَّلال وإثابته على الهدى يدل على وجود الاختيار من الانسان، يختار الإسلام أو يختار الكفر، مما يدل على أن المباشرَ للفعل هو الإنسان. ولو كان المباشرُ هو الله لما أثابه ولا عذَّبه. وأيضاً فإن الأمر المحسوس المعقول أن الرسول هو الذي كان يرمي، وأن الانسان هو الذي يهتدي باستعمال عقله استعمالاً صحيحاً، وهو الذي يَضِلُّ بعدم استعمال عقله أو باستعماله استعمالاً غير مستقيم. كل ذلك بخلاف الموت فإنه لم تَرِدْ أي قرينةٍ تدل على أن مباشرة الموت من غير الله، وأنه حصل بغير إنهاء الأجل، بل على العكس، قد ثبت أنه لا يوجد سبب محسوس للموت، ولا

---

(١) الأنعام: ١٢٥.

(٢) إبراهيم: ٤.

يوجد نصٌّ يصرف الآيات عن معناها الصريح، ولا قرينة تدل عل أن المباشر للموت غير الله، فتبقى الآيات على المعنى الذي وردت به صراحة حسب مدلول اللغة والشرع، وهو أن الآمِرَ المباشِرَ للموت هو الله تعالى.

ومن ذلك كله يتبيَّن أن الدليل العقلي يقطع بأن الأشياء التي يحصل فيها الموت عادةً هي حالات وليست أسباباً، وأن السبب الحقيقيَّ هو غيرها مما لا يقع تحت الحس، وثبت بالدليل الشرعي أن هذه الأشياء التي يحصل منها الموت ليست هي التي توجِد الموت، ولا هي كانت أسباباً للموت. وقد دلت الآيات القطعية على أن سبب الموت هو انتهاء الأجل، وأن المُميت هو الله سبحانه وتعالى.

١١ ـ الرزق بيد الله سبحانه

الرزق غير الملكية، لأن الرزق هو العطاء، فرَزقَ معناها: أعطى، وأما الملكية فهي حيازة الشيء عن طريق شرعي. ويكون الرزق حلالاً ويكون حراماً، وكله يقال عنه رزق، فالمال الذي يأخذه المقامر من غيره في لعب القمار رِزْق، لأنه مال أعطاه الله إياه حين باشر حالة من

الحالات التي يحصل فيها الرزق.

وقد غلب على الناس الظن بأنهم هم الذين يجلبون الرزق لأنفسهم، وهم يعتبرون الأوضاع التي يحوزون فيها الثروة أسباباً للرزق، وإن كانوا يقولون بألسنتهم إن الله هو الرزَّاق الكريم. فإنهم يرَون أن الموظف الذي يأخذ راتباً معيَّناً بكدِّه وجهده هو الذي رزق نفسه، وأنه حين يبذل مجهوداً منه أو يسعى بوسائل متعددة لزيادة راتبه هو الذي رزق نفسه هذه الزيادة، والتاجر الذي يربح مالاً بسعيه في التجارة هو الذي رزق نفسه، والطبيب الذي يعالج المرضى هو الذي رزق نفسه، وهكذا يرونَ أن كل شخص يباشر عملاً يكسب منه مالاً هو الذي رزق نفسه، فأسباب الرزق عند هؤلاء محسوسةٌ ملموسةٌ، وهي الأوضاع التي تؤدِّي إلى كسب المال. والذي يقوم بهذه الأوضاع هو الذي يُرزق هذا المال سواء أكان نفس المرزوق أم غيره. وإنما جاء هذا القول للناس من كونهم لم يميّزوا بين السبب والحالة. والحقيقة أن هذه الأوضاع التي يأتي فيها الرزق هي حالات حصل فيها الرزق وليست أسباباً للرزق، ولو كانت أسباباً لما تخلّفت مطلقاً، مع أن المشاهَد حِسّاً أنها تتخلف. فقد

تحصل هذه الحالات ولا يأتي الرزق، وقد يحصل الرزق دون حصولها. فلو كانت أسباباً لنتج عنها المسبَّب حتماً، وهو الرزق، وبما أنه لا ينتج عنها حتماً وإنما قد يأتي حين تكون، وقد يتخلف مع وجودها، فإن ذلك يدلّ على أنها ليست أسباباً وإنما هي حالات. قد يشتغل الموظف طول الشهر ثم يُحْجَز قسمٌ من معاشه لسداد دين سابق، أو للإنفاق على من وجب عليه نفقته، أو لتسديد ضرائب للدولة، فيكون في هذه الحالة حصل الوضع الذي يأتي بالرزق، وهو عمل الموظف، ولكن هذا الرزق سُدِّد أو أُنفق دون أن يَنتفع به هو شخصيّاً. وقد يكون شخص في بيروت قاعداً في بيته فيأتيه ساعي البريد برسالة مكتوب فيها بأنَّ قريبه فلاناً في أمريكا قد مات، وأنه هو وارثُه الوحيد، وأن أمواله قد آلت إليه، فهذا رزق قد جاءه وهو لا يَعلمه. وقد يقوم شخصٌ بشراء كمية من السِّلع فَيرتفع ثمنها ارتفاعاً كبيراً فيربح مالاً وفيراً. فالأول رُزِق رزقاً جاءه ولم يَسْعَ هو إليه، والثاني نال رزقاً قد سعى هو إليه. وبهذا الصدد قال علي بن أبي طالب (ع): «الرزق رزقان: رزقٌ تَطلبُه ورزقٌ يَطلُبك».

وبناءً على هذا فلو كانت الأوضاع التي تحصل من

الإنسان سبباً للرزق لما تخلّفت، ولما جاء الرزق إلا إذا وجدت، ولكن المشاهَد المحسوس أنها تتخلّف. فهذا يدل على أنها حالات وليست أسباباً. والحوادث التي يحصل فيها الرزق دون سبب ظاهر أكثر من أن تحصى. فحوادث الأكل والسفر وترك الطعام المهيَّأ للأكل، وغير ذلك،كلُّها تدل على أن الأوضاع التي يحصل فيها الرزق عادةً هي حالات للرزق وليست أسباباً.

وبالإضافة إلى ذلك لا يمكن اعتبار الحالات التي يأتي الرزق بواسطتها، حين توجد، أسباباً للرزق، ولا الشخص الذي قام بها هو الذي أتى بالرزق، لأن ذلك يتعارض مع نص القرآن القطعي الثبوت، القطعي الدلالة، وإذا تعارض أي شيء مع نص قطعيٍّ الدلالة، قطعيِّ الثبوت، يتعين الأخذ بالنص القطعي دون أي تردُّد، ويُرفض ما عداه رفضاً باتّاً، لأن ما ثبت بالدليل القطعيِّ أنه من الله تعالى يجب أن يؤخذ به ويُترك غيره. ولذلك فإن الحقيقة التي يجب على المسلم أن يُسلِّم بها هي أن الرزق من الله وليس من الانسان. وقد وردت الآيات الكثيرة التي تدل على ذلك بصراحة لا تقبل التأويل، وصرَّحت بأن الرِّزق من الله تعالى وحده، وليس من الانسان. وهذا ما

يجعلنا نجزم بأن ما نشاهده من وسائل وأساليب يأتي فيها الرزق إنما هي حالات يحصل أن يأتي الرزق بواسطتها، أو يحصل العكس، فالله تعالى يقول: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾(١). ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾(٢). ويقول تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾(٣). ويقول تعالى أيضاً: ﴿ فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾(٤). ويقول تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾(٥). ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾(٦). هذه الآيات وغيرها كثير، قطعية الثبوت، قطعية الدلالة، ولا تحتمل إلا معنىً واحداً لا يقبل التأويل وهو أن الرزق من عند الله وحدَه لا من غيره، وأن الله وحدَه هو الرزاق الكريم، وأنَّ الرزق بيد الله تعالى وحده.

إلا أن الله سبحانه أمر عباده بالقيام بأعمال، وجعل فيهم القدرة على الاختيار بأن يباشروا فيها الحالات التي

---

(١) الروم: ٤٠.
(٢) آل عمران: ٣٧.
(٣) الرعد: ٢٦.
(٤) العنكبوت: ١٧.
(٥) هود: ٦.
(٦) الذاريات: ٥٨.

يأتي فيها الرزق باختيارهم، ولكن ليست هذه الحالات هي سبب الرزق، وليسوا هم الذين يأتون بالرزق، كما هو صريح نص الآيات، بل الله تعالى هو الذي يرزقهم في هذه الحالات، بغضّ النظر عن كون الرزق حلالاً أو حراماً، وبغضّ النظر عن كون هذه الحالات قد أوجبها الله أو حرَّمها أو أباحها، وبغضّ النظر عن كونها قد حصل فيها الرزق أو لم يحصل.

غير أن الإسلام قد بيَّن الكيفية التي يجوز للمسلم أن يباشر فيها الحالة التي يحصل فيها الرزق، والكيفية التي لا يجوز أن يباشر فيها الحالة التي يحصل فيها الرزق. لقد بيَّن الإسلام أسباب التملك لا أسباب الرزق، وحصر المُلكية بهذه الأسباب، فليس لأحد أن يملك الرزق إلا بسبب شرعي، لأنه هو الرزق الحلال وما عداه فهو رزق حرام، وإن كان الرزق كله من الله سبحانه وتعالى.

بقيت مسألة واحدة وهي: هل رزق الشخص هو كل ما يحوزه وإن لم ينتفع به، أم أن رزقه هو الذي ينتفع به فقط؟ والجواب على ذلك أن آيات القرآن تدل على أن رزق الانسان هو كل ما حازه سواء انتفع به أم لم ينتفع به.

قال الله تعالى: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾(١). وقال تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾(٢). وقال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾(٣). وقال تعالى: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾(٤). وقال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾(٥). وقال تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾(٦). وقال تعالى أيضاً: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾(٧). وقال سبحانه: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾(٨). إن هذه الآيات صريحة في إطلاق اسم الرزق على كل ما حازه الإنسان، وهو بالطبع يُطْلَقُ على كل ما انتفعَ به، فلا يخصص الرزق فيما انتفعَ به فقط، لأن الآيات عامَّةٌ ودلالتها عامة. ولا يقال حين يأخذ أحد منك مالَك سرقةً أو غصباً أو اختلاساً أنه أخذ منك رزقك، بل يقال إنه أخذ رزقه منك، أو بعبارة أخرى

---

(١) الحج: ٣٤.
(٢) الرعد: ٢٦.
(٣) الطلاق: ٧.
(٤) يس: ٤٧.
(٥) البقرة: ٥٧.
(٦) النساء: ٥.
(٧) البقرة: ١٢٦.
(٨) البقرة: ٦٠.

اختلس أو سرق ما تملك أنت. فالانسان حين يحوز المال قد أخذ رزقه، وحين يؤخذ منه المال لا يكون قد أُخِذَ رِزْقُه بل يكون مَنْ حاز المال قد أَخَذَ رزقَه منه، فلا يأخذ أحدٌ رِزْق أحدٍ، وإنما يأخذ الشخص رزقَه هو من غيره.

١٢ ـ فهم الصحابة للقضاء والقدر

إن فهم مسألة القضاء والقدر ليست بالأمر العسير على العاقل المتبصر، لأن النصوص من الكتاب والسنة واضحة الدلالة على وجه الحق فيها، ولكن الذين جادلوا في ذلك هم فئات من أهل الرأي والهوى المتَّبَع، قاسوا الأمور كما يتوهمون، فجاءت النتائج لديهم غير مطابقة للواقع.

إن الإيمـان بالقضاء والقدر مبني في الأساس على الإيمان بأن الله على كل شيء قدير، وأنه تعالى أحاط بكل شيء علماً. فبمقدار ما يكون هذا الإيمان قوياً وصحيحاً يكون فهم القضاء والقدر كذلك.

والصحابة رضوان الله عليهم تلقوا العلم والإيمان من مصدره الأول سيدنا محمد ﷺ، فكانوا أقوى الخلق إيماناً، وأرسخهم عقيدة، وأفهمهم لما جاء به النبي الكريم

ﷺ. ومن ذلك ما بلغنا عن نفر منهم من أقوال في القضاء والقدر تدل على دقة الفهم وسلامته وعمقه، وقوة الإيمان ورسوخه.

وها نحن نورد قصتين كمثل على ما ذكرنا:

القصة الأولى: ما قاله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في القدر. فقد أخرج البخاري ومالك في الموطأ عن ابن عباس رضي الله عنه أن عمر عندما خرج إلى الشام، في إحدى المرات، لقيه قرب تبوك أمراء الأجناد أبو عبيدة وأصحابه، فأخبروه أن مرض الطاعون وقع في الشام. فاستدعى عمر المهاجرين الأولين واستشارهم في أمر هذا الوباء، فاختلفوا، وقال بعضهم: معك بقية الناس، وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء. وقال بعضهم: قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه. فقال عمر: ارتفعوا عني. ثم استدعى الأنصار فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم. ثم استدعى من كان معه من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فلم يتخلف منهم أحد، فاستشارهم، فقالوا جميعاً: نرى أن ترجع بالناس، ولا تقدمهم على هذا

الوباء. فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظَهْرٍ فأصبحوا عليه. فقال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ قال عمر: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! ـ أي: لأدبته ـ نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كانت لك إبل هبطت وادياً له عُدوتان ـ أي: لـه جانبـان ـ إحداهمـا خصبة والأخـرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟» فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً في بعض حاجته، فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا، فراراً منه» فحمد الله عمر ثم انصرف.

وهذه القصة غنية عن التعقيب والبيان.

أما القصة الثانية فهي قـول بليغ لأميـر المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، قاله لشيخ أقبل عليه بعد انصرافه من صفين يسأله.

قال الشيخ: أخبرني عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره؟.

قال علي: والذي فلق الحبة وبرأ النَّسمة ما وطئنا موطئاً، ولا هبطنا وادياً، ولا علونا تلعةً، ـ أي: مرتفعاً من

الأرض ـ إلا بقضاء الله وقدره.

قال الشيخ: عند الله أحتسب خُطاي، ما أرى لي من الأمر شيئاً.

قال علي: مَهْ أيها الشيخ! عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين، ولا إليها مضطرين.

قال الشيخ: فكيف ساقنا القضاء والقدر؟.

قال علي: ويحك!! لعلك ظننت قضاء لازماً وقدراً حتماً ـ أي: جبراً ـ لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنهي، ولم تأت لائمة لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء، ولا المسيء أولى بالمدح من المحسن. تلك مقالة عبدة الأوثان وجنود الشيطان، وشهود الزور، وأهل العمى عن الصواب. إن الله أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلف يسيراً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

---

(١) ص: ٢٧.

فهل بعد هذا البيان من بيان؟، فتأمله أيها القارىء، وأعد قراءته وتأمَّلَه مرة تلو أخرى، فإنك واجد فيه ما ينشرح له صدرك، ويطمئن به قلبك. والحمد لله رب العالمين.

المعلوم من الدين بالضرورة

هذا العنوان باب مهم وخطير الشأن يـدخل في أبواب العقيدة من حيث وجوب التصديق به، لذلك رأينا إثباته في آخر مباحث الإيمان، ونحن نسير في طـريق الإيمان، فنقول:

المقصود بالمعلوم من الدين بالضرورة، أو بما علم من الدين بالضرورة، تلك الأحكام الشرعية التي اشتهرت بحيث يعرفها المسلمون جميعاً، يستوي في ذلك العلماء والعامة، من دون توقف على تفكر أو تأمل، وذلك كوجوب الصلوات الخمس وسائر أركان الإسلام، وكحرمة الزنا وشرب الخمر، فإن هذه الأمور وأمثالها معلومة لدى جميع المسلمين، ولا يجهلها أحد منهم. فلو سئل أي مسلم عن الصلاة مثلاً لقال: هي فريضة واجبة، ولو سئل عن شرب الخمر لقال: شربها حرام، وهكذا. . لذلك فمن أنكر حكماً شرعياً من هذه الأحكام فقد خرج عن

الإسلام، ويطبق عليه حكم المرتد والعياذ بالله تعالى.

أما ما خفي من الأحكام على العامة مثل هل يجوز الايصاء بالزواج؟ فلو أَنْكَرَ أحدهم معرفته لهذا الحكم الشرعي فلا يكون إنكاره كفراً لأنه ليس من المعلوم من الدين بالضرورة.

ولا يدخل في هذا الباب الأحكام الفقهية الاجتهادية المختلف فيها بين الفقهاء، كاختلافهم في بعض أسباب نقض الوضوء مثلاً، أو في بعض مفطرات الصائم، فمن رد وأنكر ما يخالف مذهبه في مثل هذه المسائل فلا شيء فيه.

وملخص القول في هذا الباب: أنه يجب على المكلف الإيمانُ بمشروعية ما أوجبه الله وشرعه من الأحكام، وبحرمة ما حرمه من المحرمات، فيؤمن بوجوب النطق بالشهادتين لدخول الإسلام، وبالصلاة والزكاة والصيام والحج وأمثالها، ويعتقد جازماً بتحريم شرب الخمر والزنا وأكل لحم الخنزير والنظر إلى عورة المرأة الاجنبية التي لا خلاف فيها، وأمثال ذلك.

الحلول الصحيحة

إنّ المشاكلَ المتنوّعة التي تقعُ على الإنسان، تحتاجُ إمّا إلى حلّ ماديّ أو فكريّ. والحلولُ لنْ تكون حلولاً صحيحةً، إلّا إذا كانَ هناكَ اقتناعٌ يقينيّ بصلاحيّتها.

وإنّني لأرى أنّ أفضلَ الحلول هو قراءةُ القرآن الكريم. وربّ معترض على ذلك يقولُ: لقدْ قرأتُ القرآن كلّهُ ولمْ أجد حلاًّ. فالجوابُ على ذلك: أنه فاتَتْكَ الآيات التي تتضمّن الحلولَ، وبعدَ فواتها، اصطدمتَ بالمشكلة، فأكملت القرآن ولم تعثرْ على الآيات التي تحلّ هذه المشكلة. كرّرْ مراجعة القرآن ثانياً وثالثاً، وتمَعّنْ في المشكلة، وبمعاني الآيات، وما تهدف إليه، فسوف تنتهي بحلول مُقْنِعَةٍ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[2].

وأخيراً فإننا فهمنا من مضمون القرآن الكريم

---

(١) محمد: ٢٤.

(٢) الإسراء: ٩.

المرسل من عند الله سبحانه وتعالى، أنه يجب علينا أن نقوم بالتعاليم التي أنزلها الله، وأن نكيِّف أعمالَنا وظروفَنا ونسيِّر أنفسنا على خطَّة معيَّنة رسمها الرسول الذي أنزل عليه. لقد بيّنا عن طريق الفكر المستنير طريق الإيمان الصحيح، وأصبحنا نعتقد اعتقاداً جازماً لا يعتريه شك ولا ريبٌ، بأن الله خلقنا، وأنه أرسل رسولاً للناس كافة وأمرهم باتباعه وطاعته، ثم دعاهم للتسليم بأحكامه تسليماً كليّاً، فإن نفذوا أوامره ونواهِيَه كان المصير إلى جنة أعدّها للمطيعين، وإن خالفوه وابتعدوا عن سبيله كان المصير إلى نار أَعَدَّها للمستكبرين.

وأما ما يتعلق بجميع المفاهيم والأفكار التي يحملها الآخرون فنلاحظ أن الدعاة في العالم اليوم فريقان فِكريّاً وعمليّاً: دعاة الديمقراطية، ودعاة الاشتراكية الشيوعية. فدعاة الديمقراطية الرأسمالية لهم نظرة في أسباب وجودهم، والغاية منه، والمصير الذي سينتهون إليه، ودعاة الاشتراكية الشيوعية لهم نظرة تختلف كل الاختلاف عن النظرة الديمقراطية، فعلينا إذاً أن نعرف كل نظرة على حدة. ولقد وضعنا شرحاً موجزاً عن القاعدة التي قام عليها كل من الإسلام والديمقراطية والاشتراكية، وكيف

نشأ كل مبدأ؟ وعلى أي أساس يقوم؟ وما هي نظرته إلى الحياة.

هـذا ما تجـده أيها القـارىء الكريم في كتـاب «الإسلام وأيديولوجيـة الإنسان» الـذي أثبتنا فيـه عملياً مختلف تلك النظريات المنبثقـة عن المبدأ الاشتـراكي والمبدأ الديمقراطي الرأسمالي وتعارضها مع الإسـلام، فعسى أن تقرأها، لتكون إن شاء الله على بيّنة من الأمر، وتختار الطريق الصحيح في حياتك.

الفهرس

طريق الإيمان

طريق الإيمان السليم، هو طريق الفكر المستنير.

فعن طريق الفكر المستنير، أي طريقة التفكير العقلية، يستطيع الانسان أن يجيب على اسئلته بأجوبة تقنع عقله، وتطمئن قلبه، وتريح نفسه.

وهذه الاسئلة هي:

- من أين أتيت؟
- ولماذا أتيت؟
- وإلى أين المصير؟

ولا نستطيع هنا أن نستعمل الطريقة العلمية بحيث لا نستطيع أن نضع الانسان تحت التجربة، أي في المختبر، لأنه ليس مادة للإذابة أو للتفتيت، بل علينا أن نلاحظ ونستنتج...